محمد قطب

منهج الفن الإسلامي

دار القلم

منهج الفن الإسلامي

محمد قطب

منهج الفن الإسلامي

الناشر
دار القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الفن . . الإسلامى ؟!

وهل للإسلام صلة بالفن ؟

أو ليس الإسلام دينا . . والفن فنا ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟

بل إن كانت هناك علاقة فهى علاقة النفور والخصام ! فالأديان تبحث عن « الحقيقة » والفن يبحث عن « الجمال » . وفرق بين الحقيقة التى تتقيد بأنها حقيقة ، و بين الجمال الذى لايتقيد بشىء لأنه هائم طليق يسبح فى عالم الخيال . .

ثم هناك الناحية « الخلقية » . .

فالأديان تحرص على الأخلاق ، والفن يكره القيود كلها بما فيها قيود الأخلاق.

لابد إذن أن الفن الإسلامى مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات !

* * *

ذلك فهم ضيق للدين وللفن على السواء !

إن الدين يلتقى فى حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال . .

وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

فحين تتبلد النفس ، فيمر الإنسان على هذا الكون مرورا آليا لايراه ولايحس به فى أعماقه . . لايثير فيه الشوق العلوى ، ولا تتفتح نفسه لما فيه من جمال وحركة

وحياة وتناسق . . فإنه يكون قد ضيّق على نفسه المنافذ ، وحصر عالمه فى نطاق ضيق محصور .

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم الفن والجمال .

وحين تتبلد النفس ، فيمر الإنسان على الوجود مروراً آليا ، لايتفتح لغاياته وأهدافه وروابطه ، ولا يستجيب استجابة حية لما يربطه بالله والكون والحياة والناس من صلات . . ولا تنطلق نفسه فى الأفق الأعلى الذى تلتقى فيه كل هذه الصلات . . فإنه يكون قد ضيّق على نفسه المنافذ ، وحصر عالمه فى نطاق ضيق محصور .

ويكون قد أغلق نفسه دون عالم العقيدة .

ومن هنا يلتقى الفن والعقيدة فى أعماق النفس ، كما يلتقيان فى أعماق الوجود .

* * *

والفن الإسلامى ليس بالضرورة هو الفن الذى يتحدث عن الإسلام !

وهو على وجه اليقين ليس الوعظ والإرشاد والحث على اتباع الفضائل .

وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة ، مبلورة فى صورة فلسفية .

فليس هذا أو ذاك فناً على الإطلاق !

إنما هو الفن الذى يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود .

هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان ، من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان .

هو الفن الذى يهيىء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » . فالجمال

حقيقة فى هذا السكون، والحق هو ذروة الجمال. ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود.

* * *

وقد كان يخطر فى حسى دائماً أن العرب لم يستفيدوا من القرآن ولا من الإسلام فى إنتاجهم الفنى.

لقد مرت عليهم فترة فى أول الإسلام، انصرفوا فيها عن كثير من فنون القول.

وربما كان لهذا الانصراف أسباب متعددة..

فقد كان بناء العقيدة الجديدة فى داخل النفوس وفى واقع المجتمع، ومجاهدة القوى المحتشدة فى طريق هذا البناء، سواء فى واقع الحياة أو فى داخل الضمير، يستنفدان جهداً نفسياً ضخما.. بل يستنفدان الطاقة الحيوية كلها، ولا يدعان فيها فضلة تُذَّخَرُ للتعبير الفنى.

وإذا لاحظنا المراحل الثلاث التى يمر خلالها الإنتاج الفنى، ولا يتم إلا بها، وهى الانفعال النفسى بالتجربة الجديدة، ثم استبطان هذا الانفعال فى داخل النفس، حتى يمتزج بأعماقها ويعطيها من لونه ويأخذ من ألوانها؛ ثم ارتداد التجربة إلى الخارج فى صورة «إفراز» أو «تعبير»..

إذا لاحظنا هذه المراحل الثلاث، ولاحظنا أن التعبير الفنى يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية مختزنة فى باطن النفس، تسعى إلى التعبير عن ذاتها فى صورة موحية، لأن فيها شحنة مذخورة تريد الانطلاق.. أدركنا أن فترة البناء للعقيدة الجديدة لم تكن مناسبة لهذا اللون من التعبير.

لقد كانت العقيدة الجديدة فى الواقع تنشىء النفوس إنشاء من جديد. كانت «تغسل» النفوس من أدرانها الجاهلية، ومن موروثاتها القديمة كلها،

ومن مفاهيمها المنحرفة ، ومن تصوراتها الخاطئة ، وتملأ الفراغ الحادث أولا بأول، بتصورات جديدة ومفاهيم جديدة ومشاعر جديدة ، وسلوك وعمل جديدين . ومن ثم لم يكن الرصيد القديم صالحاً للإيحاء الفنى ، فقد كان « غير موجود » فى النفوس التى استجابت للدعوة الجديدة فنفضت عن نفسها كل تراث قديم ، وانسلخت من كل مايربطها بماضيها الجاهلى من مشاعر وأعمال ووشائج قربى ، وصارت تحس نحوه بنفرة وتقزز . ولم يكن الرصيد الجديد قد تجمع بعد فى الصورة التى تصلح للأداء الفنى ، الذى يعبر — كما قلنا — عن شحنة مذخورة تريد الانطلاق ، لاعن الشحنة فى دور التكوّن ، قبل أن تمتلىء بها النفس ثم تفيض بالتعبير .

ويمكن أن يكون من أسباب انقطاع التعبير الفنى فى تلك الفترة كذلك أن الأغراض « التقليدية » التى كان يقال فيها الشعر — فن العرب الأول — قد تغيرت من أساسها بفعل العقيدة الجديدة ، فصارت تلك الأغراض نشازاً فنياً وشعورياً لايصلح للقول فيه . فالفخر والمديح والهجاء والمجون ، والتغنى بالدمن والآثار ، وذكر المناقب « القبلية » والحروب والغارات والثارات . . كلها متعلقة بمشاعر الماضى الذى انسلخت منه النفوس المؤمنة ، و بتصورات هذا الماضى وعلاقاته التى نبذتها هذه النفوس . . ومن ثم لم تعد صالحة للقول ؛ بينما الأغراض الجديدة التى يمكن أن يقال فيها لم تتبلور بعد بلورة فنية . وهذه خطوة أبعد من السابقة. فليست المسألة أن المشاعر المذخورة التى تدفع إلى التعبير الفنى لم تكن قد تجمعت بعد ، بل المسألة كذلك أن أغراض التعبير وطرائقه لم تكن قد تبلورت بعد لتساوق المعانى الجديدة والآفاق الجديدة . وكل غرض فنى ، وكل طريقة أداء جديدة ، تحتاج إلى فترة من « الحضانة » قبل أن تظهر فى صورة إنتاج فنى . وقد كانت المعانى الجديدة والآفاق الجديدة ، التى كانت قمينة بأن تعدل أغراض

التعبير وطرائقه ، شديدة الضخامة بالنسبة للعالم النفسي والبيئي المحصور الذى كان يعيش فيه الشاعر العربى فى ظل القبيلة الجاهلية ، وكانت فى حاجة إلى حضانة فنية عميقة واعية قبل أن تنبثق فى ثوبها الجديد .

كما يمكن أن يكون من تلك الأسباب أيضاً وقع القرآن فى نفوس العرب . فقد تلقوه مأخوذين مبهورين ، حتى الذين لم يسلموا منهم . يتجلى ذلك فى حديث الوليد بن المغيرة الذى لم يسلم : قال : « فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم منى بالشعر ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ! » كما يتجلى فى كلام عمر حين أسلم : « فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ، ودخلنى الإسلام »[١] .

هذا الانبهار الذى تلقى به العرب القرآن ، حتى قبل أن يسلموا ، يمكن أن يكون سبباً من أسباب توقفهم فترة عن التعبير الفنى ، فقد كانت شحنته الفنية العجيبة تملأ نفوسهم ملئاً ، وتتعمقها من جميع أقطارها ، فتستوعب منهم كل طاقة الفن ، وتغنيهم — مؤقتاً — عن جمال الأداء بجمال التلقى والانفعال .

وثمت سبب رابع قد يفسر انقطاع المسلمين الأوائل عن التعبير الفنى .

وهو سبب أستمده من تجربتى الشخصية ومن قراءتى لإنتاج الأدباء والفنانين فى مختلف الميادين .

فقد كنت فى فترة من الفترات أقول الشعر . وقد ظللت اثنتى عشرة سنة أو تزيد ، أقول فى معنى واحد متكرر ، كلما اتجهت إلى الكتابة وجدتنى أكتب فى نفس المعنى وإن اختلفت المشاعر المباشرة الدافعة إلى التعبير . كانت

---

(١) راجع كتاب « التصوير الفنى في القرآن » لسيد قطب .

فى نفسى « أزمة » كبيرة . أزمة الشعور بالضياع الكامل فى الحياة . وعبث الجهد فى هذه الحياة المفضية إلى الزوال :

ثم مرت بىَ دورات الليالى
وانطوى السحر الذى غشّى خيالى
فإذا « بالحق » فى الكون بدا لى !
وإذا الناس جميعا فى ضلال !
ما الذى يرجون فى دنيا الزوال ؟
أنا والوهم الذى يشغل بالى
فى غدٍ نذهب فى طيات هاتيك الرمال
ثم يمضى الكون فى التيه المعمّى . . لا يبالى !

وكانت هذه الأزمة تؤزنى وتجهد مشاعرى وتحز إحساسى . . فأعبر عن ذلك كله بالشعر غالباً وبالنثر أحيانا . . حتى مررت بتجربة ضخمة اقتلعت هذه الأزمة من أساسها ، وأزالت ما حولها من مشاعر وأحاسيس . وكانت هذه التجربة هى . . الإسلام !

لقد وجدت نفسى من ضياع ، ووجدت لهذه الحياة غاية وهدفا ؛ ووجدت أن هذه الغاية لا تذهب سدى ، ولا تنقطع بانقطاع حياة فرد ، ولا تنطوى فى الرمال ؛ ووجدت أن الكون لا يمضى فى التيه المعمى ، بل يمضى لهدف مرسوم معلوم . . وأنه كان يبدو لى أنه « لا يبالى » لأن نفسى هى التى كانت منقطعة الصلة عن روابط الحياة العظمى ، لا لأنه هكذا فى حقيقته . .

ثم . . وجدتنى — دون قصد منى — أنصرف عن قول الشعر !

لقد ذهبت « الأزمة » التى كانت تدفع إلى القول .

ذهب « الضياع » . . وأصبحت أحس « بالوجود » .

ولـكن الإحساس « بالوجود » ، بغير أزمة لاذعة ولا وخزة دافعة ، لم يوح إلىّ بالشعر ، لأنه فى حاجة إلى طاقة فنية ضخمة — أكبر من طاقتى — تستطيع أن تعبر ، لا لأنها متألمة ولا شاكية ، ولـكن لأنهـا موجودة وممتلئة بهذا الوجود . . وراضية كذلك بهذا الوجود !

ولقد كان المسلمون الأوائل يواجهون هذه التجربة الفريدة . . تجربة الإسلام !

التجربة التى تزيل رواسب النفس المسمومة كلها ، وتملأ النفس « بالوجود » الـكامل ، الراضى بهذا الوجود . .

وهى تجربة لا تقول الشعر . . إلا بطاقة فنية ضخمة لا توهب لـكل إنسان .

ولقائل أن يقول ولا شك : إن هذا « الوجود » ولو أن سِمَتَه العـامة هى الرضى والارتياح . . كانت له « أزمات » .

أزماته هى تلك الابتلاءات المتلاحقة التى عاشها المسلمون الأوائل حتى استتب لهم الأمر وظهر الدين واستقر . .

وكان من الممكن أن تؤدى هذه الأزمات إلى تعبير فنى . .

ولـكنا — عندئذ — نعود إلى الأسباب الثلاثة السالفة فنجد أن الفرصة لم تـكن مواتية لمثل هذا التعبير . فقد كانت الشحنة النفسية لا تتلبث حتى تنطلق بالتعبير الفنى ، فى الموجة الموّارة التى تشمل المجتمع والنفوس . وكانت الأغراض الجديدة والطرائق الجديدة لم تتبلور بعد لتجد سبيلها إلى التعبير الفنى . ثم كان القرآن يتنزل فى تلك الأحداث فيصفها فى بلاغة فنية موحية ، تغنى عن جمال التعبير بجمال التلقى والانفعال . .

* * *

تلك الأسباب — كلها أو بعضها — قد صرفت العرب المسلمين فترة من الوقت عن التعبير الفني .

ولكنهم حين عادوا إلى التعبير لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم وأغراض تعبيرهم وطرائقه . وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة فى مجال التعبير ، أغراضه وطرائقه ســـواء . عاد الشعراء إلى الفخر والمدح والهجاء والمجون ، بل عادوا إلى حدود القبيلة التى كانوا قد تحرروا منها فترة من الوقت . وعادت مقاييسهم الفنية هى ذاتها مقاييس الجاهلية بحذافيرها !

هل عادت هذه النفوس إلى الجاهلية الشعورية وارتدت عن الإسلام ؟

هل مر الإسلام على ظاهر نفوسهم فقط ، ولم يتعمق فيها ؟

هل هم — أولئك العرب — ذوو طبيعة فنية ضحلة لم تستطع أن تستوعب إيحاءات الإسلام الضخمة فى عالم الفن ، فانحسرت عنها ، وعادت إلى رصيدها القديم ؟

أسئلة تحتاج إلى جواب . . وتحتاج قبل ذلك إلى بحث .

ومع أنه ليس من همى هنا القيام بهذا البحث ، وإنما هدفى الأول أن أرسم بعض الخطوط العريضة لمنهج الفن الإسلامى ، فإنى أرى أن الإجابة على هذه الأسئلة بالإيجاب القاطع فيه ظلم كبير للواقع . فقد ارتدت بعض النفوس حقاً عن بعض الآفاق الإسلامية العالية ، أو فليكن كثير من النفوس . . ولكن لم يحدث قط الارتداد الكامل الذى يلغى الإسلام من النفوس ويجعله كأن لم يكن . فمنذ انطلقت الشرارة الأولى فأضاءت صفحة الكون بضوئها الباهر ، لم تنطفئ الشعلة أبداً ، ولم يخْبُ نورها إلى حد الإظلام .

ثم إن العرب — مهما يكن مستواهم الفنى بالنسبة للنتاج العالمى — ليسوا بالضحالة التى قد توحى بها البيئة الصحراوية ، فقد ثبت من التاريخ أنهم قد استوعبوا مستويات أعمق وآفاقا أوسع ، واستطاعوا أن ينتجوا فى بعضها بدرجة الإبداع .

لا بد إذن أن هناك أسبابا أخرى .

قد تكون السياسة قد لعبت دوراً فى ذلك ، إذ ارتدت — منذ العهد الأموى ، أو قُبَيْلَهُ فى الحقيقة — إلى عصبية جاهلية قبلية ، وجرفت معها الشعراء الذين تحلقوا حول السلطان ، فغمرتهم فى تيارها ، فإذا هم — حين يعبرون — يرتدون إلى مشاعر القبيلة فى الجاهلية ، فيتخذون فنون القول القبلية بوعى أو بغير وعى .

وقد يكون النقاد الأوائل مسئولين أيضاً عن ذلك . فالنقد يبحث دائما عن « القواعد » . وغالباً ما يبحث عن القواعد الموجودة بالفعل ، لا عن القواعد التى يمكن أن تستحدث . إذ النقد تقعيدى فى طبيعته ، وليس إنشائيا كالتعبير الفنى . ومن ثم جمد هؤلاء النقاد على ما كان موجوداً بالفعل فى رصيدهم الفنى ، وهو طرائق الجاهلية وأغراضها ، وقيدوا الشعراء بها فساروا فى نطاق ذلك القيد .

وأياً ما كان الأمر ، فقد خسر الأدب العربى فرصة هائلة للاستمداد من رصيد الإسلام الضخم ، وظل فى تاريخه الطويل كله مجانباً — تقريبا — لهذا الرصيد ، مبتعداً عن تراثه ، محروما من القدرة على إبداع لون من الفن كان حريا أن يكون أروع الفنون العالمية وأبدعها ، لو وجد التوجيه الصالح والقدرة الفنية المواتية . .

وإن من هدف هذا البحث أن يوضح بعض سمات هذا الفن الإنسانى الرفيع ، لعل المسلمين — الذين لا يجدون فى تراثهم الفنى ما يغنيهم ، فيروحون ينتهبون نهبات متناثرة من فنون الغرب ، صالحها وفاسدها بغير تمييز — لعلهم أن يفيئوا إلى كنزهم الضخم الذى أهملوه ، وأن يفيئوا إلى أنفسهم حين يفيئون إلى هذا الرصيد ، فيجدوا أن فى مكنتهم أن يتقدموا القافلة ، لا أن يكونوا متخلفين فى الطريق ينتهبون ما يتناثر من الفتات .

والله ولى التوفيق ؟

محمد قطب

طبيعة الإحساس الفني

الفن — في أشكاله المختلفة — هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقونه في حسهم من حقائق الوجود ، في صورة جميلة موحية مؤثرة .

والفنان شخص موهوب ، ذو حساسية خاصة ، تستطيع أن تلتقط الإيقاعات الخفية اللطيفة التي لا تدركها الأجهزة الأخرى في الناس العاديين ؛ وذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع أن تحول هذه الإيقاعات — التي يتلقاها حسه مكبرة مضخمة — إلى لون من الأداء الجميل يثير في النفس الانفعال ، ويحرك فيها حاسة الجمال .

إنه كجهاز الاستقبال اللاسلكي الدقيق ، الذي تحس صماماته بالموجات الدقيقة الخفية فتلتقطها وتكبرها ، ثم تحولها إلى صوت ونغم ، صاف جميل يهز الأسماع .

والفنان — وكل بشر بصفة عامة — لابد — مادام حيا — أن يتلقى من الكون إيقاعات معينة في حسه ، تتوقف على طبيعة هذا الحس ، بين العمق والضحالة ، والكبر والضآلة ، وتتوقف على المساحة التي يكشف عنها حسه من صفحة الكون الكبير . ثم يمضي يحاول التعبير عن هذه الإيقاعات بالطريقة الفنية الميسرة له ، من لفظ أو لحن أو خطوط أو ألوان .

ومن ثم لا يمكن الفصل بين الفن — في أي شكل من أشكاله — وبين الصورة التي يتخذها الوجود في نفس الفنان ، والإيقاعات المختلفة التي يتلقاها حسه من هذا الوجود .

وقد تكون هذه الحقيقة واعية فى نفس الفنان أو غير واعية . ولكن النتيجة واحدة فى الحالين . فهو لا يمكن أن يعبر إلا عن انعكاس الحياة فى نفسه ، ولا يمكن أن يكون تعبيره إلا من الزاوية التى يرصد منها الوجود ، ويتلقى منها الإيقاع . . ذلك مادام فنانا حقيقيا ، صادق التعبير ، وليس مجرد صانع ماهر يتفنن فى صنعة الإخراج .

لذلك يكون من المهم أن نعرف صورة الكون فى حس كل فنان قبل أن نقوم بتقويم إنتاجه الفنى . ويكون من أصلح المقاييس فى هذا التقويم أن نعرف المساحة التى يشغلها الكون فى نفسه ، أو المساحة التى تطلع نفسه عليها من كيان الكون فعلى قدر اتساع هذه المساحة أو ضيقها يكون اتساع أفقه الفنى أو ضيقه ، وتكون عظمة فنه أو ضآلته . . وذلك مع الوفاء بشروط الأداء الفنى بطبيعة الحال .

ولكل فنان - صادق — موقف من الكون والحياة — أراد أم لم يرد . موقف تحدده طريقة تصوره لهذا الكون وارتباطاته ، وطريقة تفاعله مع الحياة والأحداث .

هذا الموقف قد يكون واعيا كما قلنا أو غير واع . ولكنه موجود بالضرورة . وهو مكشوف لمن يرقب أعمال الفنان ، متى كان بصيراً واعى الحس ، قادرا على الفهم والتقدير ، ويستطيع — إذا كانت له هذه المقدرة — أن يكيف هذا الموقف ويقوّمه ، ويزن عن طريقه أعمال الفنان .

فالفنان — أو البشر على وجه العموم — الذى لا تطّلع نفسه من الكون إلا على الحياة اليومية الصغيرة ، ومشاهدها وجزئياتها ، دون أن يرى فيها ارتباطا ولا تماسكا ، أصغر مساحة فى التقويم الفنى والإنسانى ، من الفنان — أو البشر — الذى تطّلع نفسه على ما وراء هذه المساحة المحدودة من الكون والحياة ، فترى

أكثر من الجزئيات العابرة فى الحياة اليومية . . ترى ما بينها من ارتباطات ظاهرة أو خفية ، وترى — على قدر عمقها واتساعها — ما وراء هذه الارتباطات من « كليات » عامة شاملة تفسر هذه الارتباطات وتلك الجزئيات ، وتجعل منها كيانا متماسكا لا مجرد جزئيات متناثرة فى صفحة الكون .

والفنان — أو البشر — الذى تطّلع نفسه من هذه الارتباطات على ارتباط واحد ، فيشغل به حسه ، ويصرف له همه ، وليكن — مثلا — رابط الجنس ، أو رابط الاقتصاد ، أو رابط المجتمع ، أو رابط الصراع ، أو رابط الحتمية التى تسيّر الأشياء والأحياء . . أو أى رابط يرى فى حسه أنه هو الذى يفسر حركات الحياة وسكناتها ، وتفرقها واجتماعها . . أصغر مساحة فى التقويم الفنى والإنسانى ، من الفنان أو البشر الذى تطلع نفسه على أكثر من ارتباط واحد ، ويرى عمل هذه الارتباطات المتعددة حين تعمل معا ، ويدرك تأثيرها على الحياة والناس والأحداث .

والفنان أو البشر الذى يطّلع حسه على الكون المادى وحده ، أو الروحى وحده ، أصغر مساحة فى التقويم الفنى والإنسانى ، من الفنان الذى يستطيع حسه أن يتفتح لهذا الكيان وذاك ، ويستطيع أن يدرك ما بين الروح والمادة من ترابط وامتزاج .

والفنان الذى يرى من الكون المادى مشاهده « الحية » وحدها أو « الجامدة » وحدها ، أصغر مساحة فى التقويم الفنى والإنسانى ، من الفنان الذى يرى ذلك الكون المادى فى جميع مجاليه ، فيحتفل حسه بالجمال المبثوث فى ربوع الكون كله ، من أناسى وطير وحيوان ونبات ، وجبال وأنهار وأرض وسماوات وكواكب ؛ ويكون هذا الأخير أكبر مساحة فى التقويم الفنى والإنسانى لو استطاع فى الوقت ذاته أن يدرك « الروح » السارية فى هذا

الكون كله بجميع مجاليه ، الروح التي لا تجعله مادة جامدة حتى فى الأشياء الجامدة ، وإنما تجعله حيا يتحرك ويحس ويتعاطف ، ويلتقى على شتى المشاعر والانفعالات . . .

ذلك مقياس صادق نقيس به الفن والفنان معاً ، على شرط الوفاء بشروط الأداء الفنى فى كل حال .

* * *

وإذا أدركنا ذلك . . إذا أدركنا أن الفن هو محاولة البشر أن يصوروا حقائق الوجود وانعكاسها فى نفوسهم ، فى صورة موحية جميلة ؛ وأن مكان الفنان والفن يتحدد بمدى المساحة التى تشملها الحقيقة التى يشير إليها العمل الفنى أو يرمز لها من كيان الكون . . إذا أدركنا ذلك فقد أدركنا فى ذات الوقت أن الفن الذى يمكن أن ينبثق عن التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، هو أرفع فن تستطيع أن تنتجه البشرية . . .

* * *

التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم . . إنه التصور الذى لا يأخذ جانبا من الوجود ويدع جانبا آخر . . وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته ومعنوياته ، وكل كائناته .

إنه التصور الذى لا يجعل الحس بمعزل عن الحياة المنبثة فى أعماق الكون ، بل يطلق الحس ليتملى الحياة فى كل شىء فى هذا الكون ، ويتصل بها اتصال المودة والقربى والإخاء .

إنه التصور الذى لا يأخذ الإنسان جسما ويدعه روحا ، أو روحا ويدعه جسما ، أو جسما وروحا بغير اعتبار لطاقة العقل . ثم هو لا يأخذ هذه العناصر

متفرقة منفصلة ، بل يأخذها مترابطة متحركة — مع ترابطها — فى واقع الحياة .

ولا يأخذ الإنسان فرداً ويدعه جماعة ، ولا جماعة ويدعه فرداً ، وإنما ينظر إليه فى ذات الوقت بوصفه فرداً وجماعة مترابطين ممتزجين غير منعزلين فى الكيان .

ولا يأخذه ضرورات قاهرة ويدعه أشواقاً طائرة ، ولا أشواقاً ويدعه ضرورات ، وإنما يأخذه بمجموعه كله ، عاملا حساب الضرورات والأشواق ، ومكان كلتيهما من نفسه ومكانها من الحياة ، وأصالتها فى هذه وتلك ، ودورها المرسوم هنا وهناك .

ولا يأخذه ارتباطات اقتصادية أو اجتماعية أو جنسية أو فكرية أو روحية أو مادية . . أياً من هذه بمفردها . وإنما يأخذها كلها جميعاً ، بوصفها انبثاقا من نفسه المتعددة الجوانب الكثيرة الأهداف ، وبوصفها كلها « حقائق » موجودة فى واقع الأرض مترابطة فى كيان الحياة .

ثم لايأخذه فرداً واحداً فى جيل ، ولا جيلا واحداً من أجيال . . بل لايأخذه فى الحياة الدنيا وحدها ويدع الآخرة ، وإنما يأخذه فرداً وجيلا وسلسلة متصلة من الأجيال ، ثم يأخذه كياناً ممتدا بين الدنيا والآخرة على نسق متصل مترابط الأجزاء .

ثم هو بعد ذلك لايأخذ الإنسان وحده منعزلا عن بقية الكون ، أو منعزلا عن بقية الأحياء . وإنما هو يأخذ الإنسان وغيره من كائنات الأرض ، وكائنات الكون ، ويأخذ فى اعتباره « الأحياء » وغير الأحياء . ويصل بينها جميعاً برباط حتى يخلع عليها صفة الحياة المشتركة التى تربط بين الجميع .

ثم هو بعد ذلك كله لايأخذ أحداث الكون والحياة فرادى ، منتثرة

بلارابط ، وإنما يربط بينها جميعاً برباط واحد محكم ، يجعل لها كلها غاية واحدة .. فكلها انبثق من إرادة الله ، وكلها صائر إلى الله ، وكلها محكوم بقَدَرِ الله . ومن ثم فهى « نظام » دقيق مترابط ، لافوضى فيه ولا اضطراب ، ولا مصادفة ولا جُزَافَ .

ومن وراء ذلك حقيقة الله . . الخالق المدبر ، القادر الحكيم .

* * *

ذلك أصفى تصور لحقائق الوجود . وأشمل تصور للكون والحياة والإنسان . أشمل تصور فى تاريخ البشرية كله . . .

فكل فكرة أخرى وكل نظام وكل عقيدة ، قد أخذت شيئاً من هذه الجوانب المتعددة ، ولم تأخذها كلها ، فنشأ من ذلك قصور فى التصور ، وخلل فى التوازن ، وخلل فى الاتساق .

والإسلام وحده هو الذى شملت فكرته هذه الجوانب كلها فى توازن واتساق .

وكل فكرة ونظام وعقيدة قد أنشأت فناً مبنياً على طبيعة تصورها للكون والحياة والإنسان ، واختلف الفنانون بطبيعة الحال بحسب استعداداتهم الفردية ، والزوايا الخاصة التى يرصدون منها الوجود ، ويتلقون منها فى حسهم إيقاعاته ، ولكنهم جميعاً تأثروا بطبيعة تصورهم ، وأخذوا مكانهم فى الميزان الفنى والإنسانى بحسب طبيعة هذا التصور ، والمساحة التى يشغلها من الكون .

وبقى الإسلام — فى شموله وتكامله واتساقه — لم يجد تعبيره الفنى الكامل فى غير القرآن . لم يجد الطاقات الفنية البشرية الواعية التى تطيق هذا الشمول والتكامل ، وتعبر عنه فى صورة موحية جميلة مؤثرة .

وليس هنا مجال بسط الأسباب التى أدت إلى خلو الصفحة الإسلامية العربية

من فنانين كبار ، فنانين مسلمين يدركون الإسلام على حقيقته الشاملة ، وتنفعل به نفوسهم على اتساعه ، ثم يقدمون هذا فى صورة فنية جميلة . .

ليس هنا مجال التحدث فى هذه الأسباب . . وإنما نقول فقط إن الإسلام دين البشرية فى جميع عصورها ، وجميع أجيالها ، وجميع أجناسها ؛ فإذا كانت صفحته — لسبب من الأسباب — قد خلت فى الماضى من روائع الفن البشرى المنبثقة من تصوره الشامل ، فالفرصة لتمثله موجودة دائماً ، وممكنة فى كل جيل . والمهم أن ندرك طبيعة هذا التصور الشامل على حقيقتها ، حتى إذا اتجهت الطاقات الفنية إلى تمثلها اليوم أو غداً ، اتجهت إليها بقلوب واعية وحس مدرك ، فأتت بما يناسب روعتها وشمولها .

ونحاول فى الفصل القادم أن نبسط طبيعة التصور الإسلامى ، لنرى كيف يمكن أن يتملاها حس الفنان الملهم البصير .



طبيعة التصور الإسلامى

لكى ندرك مجالات الفن الإسلامى وطبيعته ، لابد لنا أن ندرك أولا طبيعة التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، وارتباطها بعضها ببعض . فمن هذا التصور -- كما بيّنا فى الفصل السابق — ينبثق العمل الفنى فى نفس الفنان .

والتصور الإسلامى يبدأ من الحقيقة الإلهية التى يصدر عنها الوجود كله ؛ ثم يسير مع هذا الوجود فى كل صوره وأشكاله وكائناته وموجوداته ، ويعنى عناية خاصة بالإنسان — خليفة الله فى الأرض — فيعطيه مساحة واسعة من الصورة ؛ ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التى صدر عنها وإليها يعود .

وهو فى هذه الجولة الواسعة من الله وإليه ، يشمل كل دقائق الكون ، لا يغادر منها شيئاً يقع فى محيطه ، سواء منها ما تدركه الحواس وما لا تدركه ، ومايدركه العقل بوعيه وما تدركه الروح فيما وراء الوعى. ويشمل كل نشاط الإنسان وكل طاقاته . سواء نشاطه المادى ونشاطه الروحى . وسواء حياته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . وسواء عمله فى الحياة الدنيا ، وفيما وراء هذه الحياة .

* * *

الله . . يصوره الإسلام فى أوضح صورة وعاها الحس البشرى ، وفى أروع صورة كذلك .

الله هو الخالق المدبر القادر المهيمن .. الذى خلق كل شىء .. كل ما فى الوجود

خلقه . ولا خالق غيره فى السماوات والأرض . وهو القادر الذى لا حد لقدرته . المهيمن على كل خلقه فى السماوات والأرض . لا يقع فى الوجود شىء إلا ما يريده أن يقع . ولا يكون شىء إلا ما أراده أن يكون .

قدرة مطلقة لا يحدها شىء ولا يقف فى طريقها شىء .

وهو واحد مفرد أحد . . لا شريك له فى الخلق ولا فى الهيمنة على شئون الخلق .

هو المتسلط وحده ، وهو المدبر وحده ، وهو القادر وحده ، وهو المتصرف وحده فى ملكه العريض .

بيده ملكوت كل شىء ، وإليه ترجع الأمور .

صورة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض .

ليس فيها شىء من اضطراب الأساطير واختلاطها وحيرتها وتضاربها وخرافتها .

وليس فيها شىء من انحرافات التصور التى أصابت الديانات الأخرى أرضيها وسماويها .

صورة صافية لا تحتاج إلى كدٍ فى تصورها .

وهى فى الوقت ذاته صورة رائعة تروع الحس البشرى وتهزه من أعماقه .

تهزه القدرة القادرة . والعلم الشامل . والحكمة البالغة . والدقة المعجزة . . .

والإسلام يوقّع على الحس البشرى هنا توقيعات شتى ، تهز الوجدان من أعماقه ، وتنبه الحس وتفتح البصيرة ، حتى تصبح هذه الحقيقة الإلهية بكل إشعاعاتها يقينا عميقاً فى النفس ، وبديهية من بديهياتها ، بل جزءا من صميم كيانها ، تتنفس به حياتها ، وتنشط به نشاطها ، وتسكن به سكونها ، وتعيش به كل لحظة من لحظات الحياة .

وتتنوع الإيقاعات . .

فهى مرة توجه القلب البشرى إلى آيات الله فى صفحة الكون ، ومرة توجهه إلى قدرة الله القاهرة التى تحكم كل شىء ، ومرة توجهه إلى علم الله الشامل الدقيق . . .

الكون آية الله الكبرى ، ومعرض قدرته المعجزة التى تبهر العقول .

« ولكن الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون ، وروعة الإحساس بها جياشة واصلة إلى الأعماق .

« الحواس تتبلد لما ترى وما تسمع ، فتمر بكل شىء كأنه لا وجود له ، وتنسى — بحكم التعود — أن كل شىء حولها آية للقدرة القادرة المبدعة الخالقة التى تبدع كما تريد .

« الليل والنهار متعاقبين متكورين على الأرض ، مختلفين فى الطول باختلاف الفصول واختلاف المكان . .

« الشمس الطالعة الغاربة فى كل يوم ، لا تكف يوما عن الطلوع أو تكف يوما عن الغروب .

« النجوم المتلألئة فى ظلمة الليل كأنها عيون توصوص فى الظلمة وتتناجى على ما بينها من أبعاد .

« القمر الذى يبدأ زيقة صغيرة لا تكاد ترى ، ويظل يكبر حتى يمتلئ وجهه بالنور ، ويغمر الأرض بنور رائق شفاف حالم هادئ جميل ثم يتناقص حتى يعود كما بدأ زيقة لا تكاد ترى . . ثم يختفى فى المحاق .

« الحياة النابتة فى الشطأة الصغيرة التى تفتح الأرض بقوة وتنشق عن ورق أخضر صغير جميل .

« الحياة النابتة فى الطائر الصغير والحيوان الضئيل وهو يدرج وراء أمه تزقه أو ترضعه أو تغذوه .

« الحياة المنبثة فى تضاعيف الكون « الميت » لظاهر العين ، وهو فى حقيقته طاقات حية متحركة على الدوام .

« النظام المذهل فى روعته ، المذهل فى دقته ، الذى يسير عليه الكون كله ، فلا يختل منه كوكب واحد ، ولا يخرج عن مساره قيد أنملة فى الزمان الطويل الذى يقدر بالملايين والبلايين من السنين .

« الزمن ذاته . كنهه وحقيقته ، وطريقة إدراكه .

« المخلوق البشرى المعجز بكل ما فيه من أجهزة دقيقة وطاقات .

« العمليات الجسمية ، والعمليات الفكرية ، والعمليات الروحية فى كيان الإنسان .

« امتزاجه وترابطه المحكم الشامل الدقيق الذى يجمع كل طاقاته ويوحد بينها فى كيان . .

« آيات كلها من آيات الله فى الكون . كل منها معجز ، وكل منها هائل ، وكل منها مثير . ولكنها لطول الإلف والعادة يمر بها الإنسان دون وعى ودون تفكير .

« والإسلام — وهو يربى الروح — يعمد إليها فيثير فيها الحياة .

« فالقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله فى الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة . . فى أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها ، فتتفتح للكون كأنه جديد :

« إن فى خلق السماوات والأرض ، وإختلاف الليل والنهار ، والفلك التى

تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، و بث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[١] »

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى .ذلـكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لـكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلـكم لآيات لقوم يؤمنون[٢] »

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا ، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ،

(١) سورة البقرة [١٦٤]   (٢) سورة الأنعام [٩٥ — ٩٩]

ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »[1] .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا ، وقضباً ، وزيتونا ، ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبًّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم »[2] .

« وهكذا . . وهكذا . . يوقظ القرآن الحس لآيات الله فى الكون وفى النفس ، ليعيش متفتحاً لها ، حفيا بها ، محساً بعظمتها ، متتبعاً لها فى كل صغيرة وكبيرة ، شاعراً بالقدرة القادرة من وراء كل آية ، واليد المبدعة من وراء كل تدبير ، ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق ، تسبح بحمده وتتطلع إلى حماه .

* * *

« وكما يوجه القرآن القلب البشرى إلى قدرة الله المبدعة فى صفحة الكون ، فكذلك يوجهه إلى قدرته القاهرة التى تمسك بيدها كل أمر ، وتدبر وحدها كل تدبير :

«ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير »[3] .

«بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »[4] .

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لاتأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السماوات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم »[5] .

---

(١) سورة الروم [١٩ ــ ٢٥]   (٢) سورة عبس [٢٤ ــ ٣٢]
(٣) سورة البقرة [١٠٧]   (٤) سورة البقرة [١١٧]
(٥) سورة البقرة [٢٥٥]

« وهو القاهر فوق عباده » [١] .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » [٢] .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » [٣] .

« وكلها آيات توجه القلب إلى هذه الحقيقة الضخمة فى بنية الكون وبنية النفس : أن الله وحده هو الخالق . والله وحده هو المدبر . والله وحده هو الذى يصرف الأمور . لاقوة سوى قوته . ولا تدبير سوى تدبيره ، وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية ، لا تملك لنفسها شيئاً ، فضلا على أن تملك للآخرين . والنفع والضر بيده وحده . لاينفع أحد إلا بإذنه ، ولا يضر شىء إلا بإذنه . والرزق بيده . والموت والحياة بيده . والبعث والجزاء بيده . بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

* * *

« وكما يوجه القلب إلى قدرة الله المبدعة ، وقدرته القاهرة ، كذلك يوجهه إلى علم الله الشامل الذى لايند عنه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا فى داخل النفوس .

« وعنده مفاتح الغيب ، لايعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر . وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار . ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » [٤]

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » [٥] .

(١) سورة الأنعام [١٨]
(٢) سورة الإنسان [٣٠]
(٣) سورة التوبة [٥١]
(٤) سورة الأنعام [٥٩ — ٦٠]
(٥) سورة الرعد [٩ — ١٠]

« يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو الرحيم الغفور » (١) .

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير » (٢) .

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (٣) .

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » (٤) .

« يعلم السر وأخفى » (٥) .

« ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات وما فى الأرض ، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاهومعهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » (٦) .

* * *

« فإذا وجه القلب هذه التوجيهات كلها ، وهزه بها من أعماقه ، وجعله ينفعل انفعالاحيا متجددا مطردا لاينقطع ولا يفتر . . فقد انعقدت بين الله و بين القلب البشرى صلة لاتنقطع فى النهار أو الليل . لاتنقطع فى عمل أو شعور أو فكر . لا تنقطع فى سر ولا جهر . لاتنقطع فى خلوة ولا صحبة . لا تنقطع مادامت الحياة . .

« و يتصل القلب بالله صلات شتى :

« يتصل به خشوعاً وتقوى .

---

(١) سورة سبأ [٢]
(٢) سورة فاطر [١١]
(٣) سورة غافر [١٩]
(٤) سورة لقمان [١٦]
(٥) سورة طه [٧]
(٦) سورة المجادلة [٧]

« ويتصل به مراقبة له فى كل أمر من أمور الحياة .

« ويتصل به حباً وتطلعاً .

« ويتصل بين اطمئناناً إلى قدره وتسليما بما يرضاه » (١)

* * *

تلك حقيقة الألوهيه فى التصور الإسلامى . وذلك موقف الكون والحياة والإنسان من الله .

إنه موقف العبودية الخالصة للخالق . وهو فى ذات الوقت موقف الحب والطاعة والتسليم ، عن رغبة فى التسليم وسعادة فى الاتجاه إلى حمى الخالق المنعم الكريم .

إنه ليس موقف العناد والحقد والكراهية والصراع . . ذلك الموقف الذى تصوره فى وضوح أساطير الإغريق القديمة ، والذى تلصص إلى داخل اللاشعور الأوربى وظل قابعا هناك !

« وينبغى أن نعرف أن أوربا لم تكن مسيحية حقة فى يوم من الأيام ! على الرغم من انتشار المسيحية فيها وتعصب الأوربيين لها فى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش . وعلى الرغم مما لا يزال يرد على بعض الألسنة الغربية حين تتحدث عن « الحضارة المسيحية » !

« كلا ! لم تكن مسيحية حقة فى يوم من الأيام . وإنما كان قصارى المسيحية عندهم أن تلين لها قلوبهم فى المعبد ، وتتأثر أرواحهم بأنغامها الشجية وسبحاتها الروحية المرفرفة ، ولكنها لا تحكم الحياة العامة ، ولا تحكم فى أمر من أمور هذه الأرض . فإذا خرج الناس من صلاتهم فى المعبد ارتدت عنهم

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل « تربية الروح ».

مسيحيتهم ، وعادوا إلى الوثنية الرومانية الإغريقية القديمة ، يستمدون منها أفكارهم ومشاعرهم ، وتشريعاتهم وتنظيماتهم ، وكل حضارتهم المادية العريقة . . !

« وأياً ما كان الأمر فقد ظلت فى لاشعور الأوربيين — تحت القشرة المسيحية الرقيقة — تلك النظرة الإغريقية إلى الله ، تؤثر فى وجدانهم نحوه ، وتطبع إحساسهم الدينى فى الأعماق .

« فكيف كانت الأسطورة الإغريقية تصور الله . . أو الآلهة ؟

« لن نستعرض هنا الأساطير كلها ، ولا الصورة الزرية التى كانت تعرض بها الآلهة ، فتصورهم — على أحسن تقدير — بشرا فائقى القوة ، ولكن نفوسهم مشحونة بالنزوات الطائشة والانحرافات النزقة التى يتورع عنها البشر العاديون . . وإنما نستعرض أسطورة واحدة ذات دلالة ، هى بروميثيوس سارق النار المقدسة !

فبروميثيوس كائن أسطورى كان الإله زيوس يستخدمه فى خلق الناس من الماء والطين . وقد أحس « بالعطف » نحو البشر ، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم . فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكِّل به نسر يرعى كبده طول اليوم وتتجدد الكبد فى أثناء الليل ، ليتجدد عذابه فى النهار . ولكى ينتقم زيوس من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم « باندورا » — أول كائن أنثى على وجه الأرض — ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشرى!! فلما تزوجها إبيميثيوس — أخو بروميثيوس — وتقبل منها هدية « الإله ! » فتح الصندوق فانتثرت الشرور وملأت وجه الأرض ! !

«تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله ! النار المقدسة ، نار « المعرفة» قد استولى عليها البشر سرقة واغتصابا من الآلهة ، ليعرفوا أسرار الكون والحياة ،

ويصبحوا آلهة ! والآلهة تنتقم منهم فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان !

«وهذه العلاقة قد اندست فى أوهام الأوربيين ، وصارت تصرّف أفكارهم ومشاعرهم بغير وعى . العجز وحده هو الذى يخضعهم لمشيئة الله ! وهم غير راضين عن هذا العجز ولا ساكتين عنه . فهم يطلبون القوة ويطلبون المعرفة . ويحاولون دائما أن يقهروا هذا العجز . أو يقهروا — بلغتهم — قوة الطبيعة . أو — بلغتهم اللاشعورية أيضا — « ينتزعون » الأسرار ! ينتزعونها من الإله الوثنى القديم الذى سرقوا منه ناره المقدسة من قبل !

« وبهذا الدافع الخفى المطبوع فى أعماق النفس الغربية — فى أعماق اللاشعور — يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها « العلم » ترفع الإنسان فوق نفسه درجة ، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر ! « وتظل « المعركة » هكذا دائرة : كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله ويرفع الإنسان ، حتى تأتى اللحظة المرقوبة التى يتحلب لها ريق الغرب ويتلهف إليها ، اللحظة التى « يخلق » فيها الإنسان الحياة ، ويصبح هو الله ! »(١) .

موقفان متباينان تبايناً حادا حاسما شديدا : موقف أوربا من الله وموقف الإسلام .

ولا نحتاج هنا أن نقارن بين القلق والصراع والحيرة والاضطراب التى تستولى على القلب الذى تتملكه العقيدة الإغريقية الوثنية الفاسدة ، والسلام والراحة والأمن والاطمئنان الذى ينعم به القلب الذى تتملكه عقيدة الإسلام .

---

(١) من كتاب « قبسات من الرسول »

ولكننا نقول فقط إن كلاً من التصورين له تأثيره فى الإنتاج الفنى ، كما سيجئ تفصيل ذلك فى الفصول التالية من الكتاب .

* * *

والكون — المنبثق من إرادة الله — هو فى التصور الإسلامى شىء جميل ، حىّ متحرك محس ، متعاطف مع الإنسان ، متجاوب معه تجاوب الصداقة والزمالة والمودة .

فالسماء «مزينة» بالمصابيح : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح»[١] .

والتعبير بالزينة هنا تعبير موح بأن خالق الكون قد قصد فى خلقه أن يجعله جميلا ، وأن الجمال جزء من بنية الكون أصيل .

والأرض التى يعيش عليها الإنسان قد جعلها الله معاونة له على الحياة ، وهيأها بكل ما تتطلبه هذه الحياة من مطالب : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها »[٢] . « وجعلنا لكم فيها معايش »[٣] . « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[٤] «وجعلنا فى الأرض رواسىَ أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون»[٥] .

والسماء والأرض بما تشتملان عليه من طاقات وكائنات تعاونان كذلك فى تهيئة الحياة للإنسان ، وتيسير مهمته فى الخلافة عن الله فى الأرض :

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »[٦] .

---

(١) سورة الملك [٥]
(٢) سورة فصلت [١٠]
(٣) سورة الأعراف [١٠]
(٤) سورة الملك [١٥]
(٥) سورة الأنبياء [٣١]
(٦) سورة يونس [٥]

« وسخر لـكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه »[١] .

« والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لـكم فى الأنعام لعبرة ، نُسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون[٢] » .

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلـكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلـكم تهتدون . وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون[٣] » .

ومن ثَم فالوجود كله صديق للإنسان ، متعاون معه ، بارّ به ، عاطف عليه ، لا تقوم بينه و بينه العداوة ولا البغضاء . ولا الجفوة ولا النفور .

وهذا الوجود الجميل ، المتعاطف مع الإنسان ، هو فى الوقت ذاته كائنات حية ذات حس ووعى و إدراك :

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين[٤] »

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . . وحملها الإنسان[٥] »

« يُغشى الليل النهار يطلبـه حثيثا[٦] »

(١) سورة الجاثية [١٣]
(٢) سورة النحل [٦٥–٦٧]
(٣) سورة النحل [١٤–١٦]
(٤) سورة فصلت [١١]
(٥) سورة الأحزاب [٧٢]
(٦) سورة الأعراف [٥٤]

« والنجم والشجر يسجدان[١] »

« فلا أقسم بالخنس . الجوارى الكنس[٢] »

ثم هو كون منسق متوازن ، كل شىء فيه مقدر بمقادير مضبوطة لا تضطرب ولا تختل :

« إنا كل شىء خلقناه بقدر[٣] »

« والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون[٤] » .

ثم هو مخلوق بالحق . فلا عبث فى خلقه ولا باطل . ولا مصادفة ولا جزاف :

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين[٥] »

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق[٦] »

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[٧] »

ويحسن هنا أن ننقل من « ظلال القرآن » بعض الفقرات فى الإشارات القرآنية للكون :

« الشمس والقمر بحسبان » .

---

(١) سورة الرحمن [٦]
(٢) سورة التكوير [١٥]
(٣) سورة القمر [٤٩]
(٤) سورة يس [٣٨ — ٤٠]
(٥) سورة الدخان [٣٨]
(٦) سورة الحجر [٨٥]
(٧) سورة الجاثية [٢٢]

« حيث تتجلى دقة التقدير فى تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعورا بضخامة هذه الإشارة ، وما فى طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

« وجسم الشمس ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها فى فلكها . وكذلك حجم القمر وبعده ودورته . . كلها محسوبة حسابا كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما فى حياة الأرض ، وبالقياس إلى وضعهما فى الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى . .

« ونتناول طرفا من الحساب الدقيق فى علاقتهما بكوكبنا الأرضى وما عليه من حياة وأحياء . .

« إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخارا يتصاعد فى الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذى يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليونى جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذى يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هى التى فى مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بدداً !

« وكذلك القمر فى حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذى يحدثه فى بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها ، وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذى لا يخطىء مقدار شعرة ! وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما فى وزن وضعها ، وضبط خطاها فى هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذى تجرى فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل

فى الساعة فى اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لاتلتقى بأى نجم فى طريقها على ملايين السنين !

« وفى هذا الفضاء الشاسع الرهيب لايختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق فى حجم ولا حركة .

« وصدق الله العظيم . . « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » .

« وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير فى بناء الكون الكبير . فأما هذه فهى إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهى إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

« إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذى فى السماء . كما فسره بعضهم بأنه النبات الذى لايستوى على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة فى النص واحد ينتهى إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

« والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها فى حقيقتها واحدة .

« ولقد أدرك القلب البشرى منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية فى الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدنى فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس !

« ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة فى بناء الـكون ، ولـكنه لايزال بعيدا عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

« والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هى وحدة بناء الـكون ، وأنها فى حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هى قاعدة الـكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفراده .

« فإلى أين يتجه الـكون بحركته التى هى قاعدته وخاصيته ؟ » .

« القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه — وهى الحركة الأصيلة ، فحركة ظاهره لاتـكون إلا تعبيراً عن حركة روحه — وهى الحركة التى تمثلها فى القرآن آيات كثيرة منها هذه : والنجم والشجر يسجدان ، ومنها : « تسبح له السماوات السبع ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لاتفقهون تسبيحهم » . . ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات . كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه » .

« وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الـكون فى عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشرى متاعاً عجيباً ، وهو يشعر بكل ماحوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه ، وهو فى وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهى تدب فيها جميعها ، وتحيلها إخواناً له ورفقاء !

« إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . . . »[1] .

« والخنس الجوارى الـكنس . . هى الـكواكب التى تخنس ، أى ترجع فى دورتها الفلـكية وتجرى وتختفى . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة

---

(١) « فى ظلال القرآن » ج ٢٧ ص ١١٣ — ص ١١٤ .

الظباء . وهى تجرى وتختبىء فى كناسها ، وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعورى بالجمال فى حركتها . فى اختفائها وفى ظهورها . فى تواريها وفى سفورها . فى جريها وفى عودتها . يقابله إيحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه »[1] .

« الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

« والذى يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه — كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها — يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لاتحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل . فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح و يستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحى مع الحى ، قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

« ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون ، و إلى تملى مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً وفى كل عصر . . .

« والجمال فى تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال ، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . .

« ومشهد النجوم فى السماء جميل . مافى هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته . ويختلف من صباح

---

(١) « في ظلال القرآن » ج ٣٠ ص ٦٦ .

إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة ، ومن مرصد لمرصد ، ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

« هذه النجمة الفريدة التي توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء !

« وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

« وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها فى حلقة سمر فى مهرجان السماء . وهى تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة فى مهرجان !

« وهذا القمر الحالم الساهى ليلة . والزاهى المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفانى الذى يدلف للفناء ليلة . . !

« وهذا الفضاء الوسيع الذى لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .

« إنه الجمال . الجمال الذى يملك الإنسان أن يعيشه و يتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات !

« والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهيأ فيها للحياة الخالدة ، فى عالم طليق جميل ، برىء من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية . و إن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الالهى فى الكون ، ذلك أنها

هى اللحظات التى تهيئه وتمد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته و يتملاه »[1] .

* * *

والحياة — معجزة الخالق الكبرى — جميلة بكل صورها وأشكالها . . والقرآن يوجه القلب إليها ، و يعقد صلة القربى بين الإنسان وغيره من الأحياء فى هذا الوجود . النبات والحيوان والطير . .

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خَضِراً نُخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخيل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه[2] » .

فهنا مهرجان من الحياة المتمثلة فى النبات بشتى أنواعه . مهرجان زاخر حافل ، مختلف الألوان والأشكال والشيات . كلها مبهج وكلها جميل . تستغرق الحس بتمليها واحدة إثر واحدة ، ثم بالمقارنة بينها واحدة إثر واحدة . فهذه طويلة سامقة وهذه قريبة المنال . وهذه متشابهة وتلك غير متشابهة . وهى جميعها تثمر و ينع ، يلذ الأعين و يلذ الحس . والآية توجه الناس إلى « النظر » « إلى ثمره إذا أثمر و ينعه » . وهو توجيه يلفت النظر هنا بصفة خاصة فى مجال عرض هذه « المأكولات » الشهية التى يتوق لها الحس . فهو لا يقول هنا — كما يقول فى مواضع أخرى — « كلوا من طيبات ما رزقناكم » بعد هذا العرض المشهى بالفاكهة المختلفة الأشكال والأنواع . ولكن يقول « انظروا » ! انظروا إلى الجمال المبثوث فى هذه الكائنات الحية ، وتمتعوا بهذا الجمال فى تلك

---

(١) «فى ظلال القرآن» ج ٢٢ ص ١٢ — ١٥ .

(٢) سورة الأنعام [٩٩]

اللوحة الطبيعية الحية المتناسقة البهيجة ! فالجمال هنا هدف مغذٍّ للروح ، وهو هنا المقصود أولا قبل غذاء الأبدان !

« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون[1] »

وهنا الأنعام ذات فوائد ومنافع يبينها الله للناس ليشكروا نعمته وفضله . ولكنه لا يوجههم إلى الفوائد الحسية وحدها فى الأنعام ، بل يوجههم توجيها صريحاً إلى « الجمال » فى هذه الأنعام . جمال « حين تريحون وحين تسرحون » . فالجمال عنصر أصيل فى بنية الكون والأحياء . وعنصر مطلوب . مطلوب ليستمتع به الناس . وموهبة يذكّر الله بها الناس ليشكروه ويعبدوه .

والإشارة إلى الجمال هنا ذات دلالة واضحة لا تخفى بالنسبة للتصور الإسلامى للوجود . فعنصر الجمال عميق فى هذا الوجود جدا ، يتبدى فى كل كائناته « الجامدة » وغير الجامدة . والإنسان — خليفة الله فى الأرض — مطالب أن يفتح حسه لهذا الجمال ، ليلتقى أجملُ ما فى نفسه — وهو حاسة الجمال — بأجمل ما فى الكون ، وينتج من هذا اللقاء ارتقاء الإنسانية صعداً ، حين تشف وتصفو ، وتلتقى بالحقيقة الإلهية على هذا الاتساع الشامل ، الذى يشمل كل مجالى الجمال فى الكون والحياة .

وتوجيه نظر الإنسان إلى « الجمال » فى الأنعام ذات « المنافع » المتعددة له دلالته كذلك فيما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى التصور الإسلامى . فهو مخلوق واسع الأفق متعدد الجوانب ، ومن جوانبه الحسى الذى يرى منافع الأشياء ، والمعنوى الذى يدرك من هذه الأشياء ما فيها من جمال وهو مطالب

---

(١) سورة النحل [٥ — ٦]

ألا تستغرق حسه المنافع ، وألا يقضى حياته بجانب واحد من نفسه و يهمل بقية الجوانب . فكما أن الحياة فيها منافع وجمال ، فكذلك نفسه فيها القدرة على استيعاب المنفعة والقدرة على التفتح للجمال . فينبغى أن يأخذ الحياة هكذا بكلياتها ، و يتلقاها بنفسه كلها ، عاملا فيها بجميع طاقاته ، ليصبح جديراً بمكانه الكريم عند الله .

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس[1] »

هذه الجولة مع النحل التى تتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرش الناس ، ثم تأكل من كل الثمرات مما ينبت طبيعياً ومما يزرع الناس . . ثم يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس . .

إن هذه الجولة تثير فى النفس وجدانات شتى . . فهى أولا تتتبع هذا المخلوق الضئيل النشيط المتحرك الدءوب فى رحلته الدائبة التى لا تهدأ ، والتى يكاد التعبير بنغمته وموسيقاه يرسمها متموجة كتموج النحلة فى حركتها ذات اليمين وذات اليسار ، وإلى أعلى وإلى أسفل ، تهدأ لحظة ثم تنطلق فى اتجاه جديد . . ثم يدركها العجب من هذا المخلوق الضئيل الدءوب ، و يدركها الإعجاب فتنشأ بينها و بينه صلة نفسية هى مزيج من المودة والعطف . . ثم هى أخيراً تحس بالصلة المباشرة بينها و بينها ، فهى رائحة غادية على « الناس » وفى النهاية تخرج شرابا « للناس » ! وهكذا تقرب هذه الصلة حتى تمتزج ، وتصبح نوعا من الزمالة فى الحياة !

(١) سورة النحل [٦٨ — ٦٩]

« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافاتٍ و يقبضن ، ما يمسكهن إلا الرحمن . إنه بكل شيء بصير[1] »

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه[2] »

والتوجيه هنا إلى الطير ، وهى صافات أرجلها وأجنحتها ، وحين تقبضها ، توجيه له عدة أهداف .

فهو توجيه إلى آيات الله فى الكون ، وقدرته القادرة المبدعة الخلاقة البصيرة.

وهو توجيه إلى عظمة الله التى يسبح لها كل من فى السماوات والأرض — ومن بينها الطير — كل بلغته الخاصة ، وعلى طريقته الخاصة .

تلك أهداف « مباشرة » مذكورة بنصها .

ولكن هناك أهدافا أخرى يلتفت إليها الحس البصير الذى يعيش فى جو القرآن ، والتصور الإسلامى للكون والحياة . . إن كلمة « فوقهم » فى الآية الأولى لا تحدد مكان الطير وحده ، ولكنها بالإضافة الموجودة فى آخرها « . . .هم » تعقد صلة بين الطير والناس ، لم يكن الإنسان ليحسها لو قال : أو لم يروا إلى الطير صافات ويقبضن . أو لو قال : أو لم يروا إلى الطير فى السماء صافات و يقبضن ! فكلمة « فوقهم » بما فيها من إضافة قد علقت القلب البشرى بالطير ، بعلاقة أوثق من مجرد الرؤية والتأمل . إنها علاقة فيها صلة ما . . صلة يخفق لها القلب مع خفقة الطير .

أما الآية الثانية فهى تعرض صلة أخرى بين الناس والطير وجميع الكائنات . إنها كلها تسبح لله . كل بطريقته . . ولكنها كلها تلتقى على

---

(١) سورة الملك [١٩]   (٢) سورة النور [٤١]

التسبيح ، وتتصل وجداناتها على العبادة ، و يجمعها شعور واحد وثيق !

وهكذا تقوم وشائج القربى بين الـكائنات الحية كلها فى هذا الـكون ، ما تدركه الحواس منها من ناس وطير وحيوان ونبات ، وما لا تدركه الحواس ممن يشملهم لفظ « من فى السماوات والأرض » الذين يسبحون كلهم لله . . .

ولا تقتصر صلات القربى على هذه الإيحاءات الدقيقة التى يتفتح لها الحس حين يعيش فى جو القرآن والإسلام ، فهناك إيحاءات أخرى لها كذلك دلالتها :

« والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير[1] » .

إن صلة القربى هنا ليست معنوية ووجدانية فحسب . إنها أصرح من ذلك وأقرب . إنها صلة « مادية » محسوسة . إنها الاشتراك الحقيقى — لا المجازى — فى « مادة » واحدة خلقت منها كل الـكائنات ، ثم تعددت أنواعها بعد ذلك وتفرقت أشكالها ، ولـكنها جميعاً ترجع إلى هذا الأصل الواحد الذى نبتت منه جميعاً !

إن الإنسان إذن ليس واهما ولا متخيلا خيالا شعريا حين يحس بالرابطة الوثيقة بينه و بين الـكائنات الحية فى الوجود من حوله . إنها « حقيقة » . ولـكنها حقيقة هائلة تفتح للقلب منافذ شتى يطل منها على الحياة ، فتتسع مساحتها فى نفسه وتعمق أصولها فى حسه . و يجد فيها الشعر والفن منفذاً يصل بين النفس والـكون فى أوسع مداه . ولا يفوتنا هنا التعبير بكلمة « من » فى الحديث عن الدواب ، بدلا من « ما » القياسية فى الحديث عما لا يعقل .

(١) سورة النور [٤٥]

فهو تعبير مقصود ليصل بين وجدان الإنسان ووجدان هذه الكائنات !

وهذه القربى التي ذكرتها الآية السالفة بين الإنسان ودواب الأرض ممن يمشي على بطنه ومن يمشي على أربع، تذهب بها آية أخرى إلى أبعد من ذلك.. عن طريق الإيحاء على الأقل إن لم يكن باللفظ الصريح: «والله أنبتكم من الأرض نباتاً[1]».. فبصرف النظر عن المدلول «العلمى» لهذه الآية ونحن لا نعلمه على وجه اليقين[2]، فإن لها مدلولا نفسياً، هو صلة القربى بين هذا الإنسان ونبات الأرض. فكلاهما نابت من الأرض. وكلاهما نبات !

أى صلة عميقة وثيقة تربط الإنسان بالحياة فى الكون ! وأى سعة يحسها الإنسان فى نفسه وفى الكون، حين يتعمق فى حسه الشعور بالوشائج الحية التي تربطه بالأحياء ؟

لا عجب إذن حين نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يمسك بنبتة صغيرة فيقبلها، وحين يقول: «ليتنى شجرة تُعضَد» (أى تقلّم). فهو يتكلم بهذا وقد فاضت فى روحه العظيمة مشاعر الاتصال الوثيق بالحياة فى جميع الأحياء !

***

ثم يجيء دور الإنسان فى التصور الإسلامى.

الإنسان خليفة الله فى الأرض: «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة[3]».

وهو كريم عند الله منذ خلقه: «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[4]»

---

(١) سورة نوح [١٧]

(٢) دون تعلق بنظرية التطور التى تقول إن الحياة النباتية قد أدت إلى الحياة الحيوانية ثم إلى الإنسان !

(٣) سورة البقرة [٣٠]

(٤) سورة الإسراء [٧٠]

وقد خلقه فى أحسن صورة : « وصوركم فأحسن صوركم[١] »

ووهب له مواهب جمة : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[٢] »

وأعطاه مكانة عالية فى الكون : « وسخر لكم ما فى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه[٣] » « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه[٤] ».

ومكانة إيجابية فى أحداث الحياة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٥] » فإرادة الله نافذة عن طريق إرادة الإنسان .

وهكذا يتحدد دوره فى الحياة . فقد خلقه الله فى أحسن صورة ، ووهب له هذه المواهب كلها فى نفسه وفى الكون من حوله ، وأعطاه مكانه فى أحداث الحياة ، ليقوم بدور الخلافة فى الأرض ، من عمارتها وترقيتها ، واستخراج كنوزها وأرزاقها ، والتعرف على أسرارها ، وأسرار ما فى السماوات والأرض من طاقات مسخرة له . بإذن الله ، ولينشىء بكل ذلك حياة إنسانية صالحة رشيدة مهتدية بهدى الله . « فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٦] » . حياة فاضلة نظيفة مترفعة . حياة تليق « بالإنسان » الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق ، فلا تهبط عما يليق بالتكريم والتفضيل ، ولا ترتكس إلى مستوى الحيوان .

وفى الفصل القادم تفصيل للحياة الإنسانية فى نظر الإسلام .

---

(١) سورة التغابن [٣] (٢) سورة الملك [٢٣]

(٣) سورة الجاثية [١٣] (٤) سورة الملك [١٥]

(٥) سورة الرعد [١١] (٦) سورة البقرة [٣٨]

الإنسان في التصور الإسلامي

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » [1] .

الإنسان فى التصور الإسلامى هو هذان العنصران المختلفان ، مترابطين ممتزجين فى كيان واحد .

قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله .

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية : الأوكسيچين والإيدورچين والكربون والكالسيوم والفوسفور . . إلخ . وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض.

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية وقوة الوعى المدركة وقدرة النفس المريدة .

وهذان معاً يكوّنان الإنسان .

فهو ليس قبضة طين خالصة . تخضع للضرورات القاهرة من طعام وشراب وجنس . . إلخ ، خضوعاً لاتملك نفسها منه ، ولا تختار لنفسها سلوكا معينا إزاء هذه الضرورات .

وليس إشراقة روح خالصة ، طليقة من القيود ، ترفرف حيث تشاء ، لاتخضع لضرورة ، ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان ، والوجود والفناء ، وثقلة الجسم المنجذب إلى الطين .

(١) سورة ص [٧١ — ٧٢]

ولكنه مزيج من الضرورة القاهرة والإشراقة الطليقة من القيود .

مزيج قد يغلب عليه فى بعض الأحيان أحد عنصريه ، فتظهر الضرورة الغليظة وعتامة الطين ، أو تظهر النورانية الشفيفة وخفة الشعاع . ولكنه أبدا غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر فى أية لحظة من اللحظات .

وحين ينفصل — لو أمكن ذلك — يخرج عن كيانه الأصيل فلا يصبح هو « الإنسان » .

حين يصبح جسداً خالصا . حين يصبح متعة حسية منقطعة عن كل إشراق . حين يصبح ضرورة غليظة . حين يصبح جوعة طعام أو شراب أو جنس لا تشبع ولا تهدأ . حين ينحصر فى حدود ماتدركه حواسه لايجاوزها إلى العالم الفسيح الذى تدركه الروح فيما وراء الوعى .. لايعود إنسانا و إنما يرتكس إلى عالم الحيوان .

وحين يصبح روحاً خالصة . حين يهمل كيانه المادى وضروراته القاهرة ويترهبن . حين يهمل العالم الذى تدركه حواسه ليعيش فيما وراء المحسوسات .. لا يصبح إنساناً . إنه يحاول أن يكون كائنا أفضل — فى نظره — من الإنسان ، ولكنه لايصل فى الحقيقة إلى هذا الفضل . فالسلبية الكاملة التى يتوصل إليها ليست فضلا ولا مزية ، و إنما هى إهدار لأفضل مايشتمل عليه الإنسان : الإيجابية الفاعلة التى تحقق كيانها فى واقع الحياة .

ولكنه يحقق رسالته فى الأرض ، ويحقق أفضل مايستطيعه ، و يحقق كثيراً من الخير ، حين يكون على طبيعته المزدوجة : قبضة الطين ونفخة الروح .

ومقتضى هذا الامتزاج فى مفهوم الإسلام : أن الإنسان يقضى ضروراته الأرضية الحيوانية على طريقة الإنسان لاعلى طريقة الحيوان . ويحقق أشواقه الروحية الملائكية على طريقة الإنسان لاعلى طريقة الملاك !

يأكل ويشرب ويقضى ضرورة الجنس . . . وهى كلها مسائل يشترك فيها مع الحيوان . ومع ذلك يقضيها هو على طريقته . . ولا يكون الفرق الرئيسى فى طريقة الأداء الميكانيكية — فهذه قد تتشابه فى « بعض » الأحيان — وإنما يكون فى الفارق النفسى والشعورى وطريقة « السلوك » .

الطعام والشراب والجنس . . ضرورات يقضيها الحيوان بطريقة مباشرة ، وعلى أسلوب واحد محدد تفرضه « الغريزة » ، ليس له فيه اختيار . لا اختيار فى القدر . ولا اختيار فى الموعد . ولا اختيار فى الانصراف عنه لسبب من الأسباب .

والطعام والشراب والجنس . . ضرورات يقضيها الإنسان . ولكنه يقضيها بطريقة الإنسان . فيجعل لها سلوكا ، مهمته التهذيب والتجميل ، و « الاختيار » .

فهو لا يهبر هبرة من اللحم النيىء ويقضمها بأسنانه أو يمزقها بأنيابه . ولا يخطفها ويجرى بها . ولا « يفترسها » افتراسا . وإنما يجعل لكل ذلك آدابا . مهمتها أن تبعد المسافة بين دفعة الغريزة المباشرة وبين الاستجابة لهذه الدفعة . وهو فى النهاية يستجيب . نعم ، لاشك . ولكن المرحلة التى يقضيها بين الدفعة والاستجابة ، المسافة التى ينشىء فيها قواعد السلوك وأدب الأداء ، المسافة التى « يتجمل » فيها بمشاعر معينة وأفكار معينة وحركات سلوكية معينة . . هذه المسافة هى ذاتها التى تفرق بين الإنسان والحيوان ، والتى تبين كيف يقضى الإنسان ضرورة الحيوان ولكن على طريقة الإنسان !

والأمر فى الجنس كذلك .

ففى عالم الحيوان تهيج الذكور والإناث للإخصاب فى موسمها الجنسى . لا اختيار لها فى تحديد الموعد . وتهيج جماعاتٍ ، لا اختيار فى التميز الشخصى .

وتهيج فى حركات محددة تصل فى نهايتها إلى اللقاء الجنسى . لا اختيار فى هذه الحركات .

وأهم من ذلك أن كل أنثى مباحة لكل ذكر . وكل ذكر فى اشتياق لكل أنثى . لا يقف دون تحقيق هذه « الشيوعية » الكاملة إلا عراك الذكور واقتتالهم على الإناث ، وهلاك الكثيرين منهم فى المعركة واستيلاء من بقى منهم حيا على قطيع الإناث [1] .

وفى عالم الإنسان توجد ضرورة الجنس .

ولكنه — حين يكون إنسانا — يقضيها على غير طريقة الحيوان .

فقد تحرر الإنسان — بادىء ذى بدء — من قيد الموعد المحدد ، وصارت السنة كلها بالنسبة إليه موسما صالحا للإخصاب . ولكنه فى مقابل ذلك يلتزم — لصالح نفسه قبل كل شىء آخر — بتحديد القدر الذى ينغمس فيه فى هذه الضرورة ، وقد زود بالأداة اللازمة لذلك : أداة « الضبط » والتقدير .

وقد تحرر من صورة القطيع فى شئون الجنس — كما هو فى كل شأن آخر — فأصبحت له ذاتيته المتفردة ، التى تختار لنفسها سلوكها وطرائقها ومواعيدها وإقبالها وامتناعها .

ولم يعد — فى عالم الإنسان — كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وكل ذكر فى اشتياق لكل أنثى . لأن الجنس فى عالم الإنسان ليس أداء ميكانيكيا لهدف غير واع ، يتحقق من وراء وعى الفرد الحيوانى ، ودوره فيه هو مجرد الأداء . وإنما هو — ككل شىء فى عالم الإنسان — هدف واعٍ يدركه الفرد الإنسانى ، ويؤديه بموجب هذا الإدراك .

---

(١) هناك بعض صنوف الحيوان مع ذلك تمارس نظام « الزواج » كالحمام والثعابين ، فيكون الذكر والأنثى إلفين غير منفصلين .

وقد اقتضى هذا الإدراك أن يفهم الإنسان أن رسالته فى الأرض لاتتحقق إلا بتكوين « مجتمع » و « أسرة » ، وأن من لوازم هذه الأسرة استقرار العواطف وتخصيص أنثى واحدة لـكل رجل ، ورجل واحد لـكل أنثى[1] ، ليتكون المحضن الصحيح لتربية الأجيال الناشئة فى عش هادىء يتمتع بالسلام النفسى والمادى . ولتتكون بين أفراد المجتمع علاقة أخرى غير علاقة التقاتل الوحشى بين الذكور على اصطياد الإناث . ولتتوجه اهتمامات الفرد — بعد قضاء حاجة الجنس فى سلام وأمن — إلى أهداف الإنسانية الأخرى التى يشملها كيان الإنسان .

وهو فى النهاية يستجيب لدافع الجنس . نعم . لا شك . ولـكن المسافة الهائلة التى يقطعها بين الدفعة والاستجابة . المسافة التى يكوّن فيها سلوكا وآدابا للجنس . المسافة التى يضيف فيها إلى الدفعة البيولوجية « مشاعر » إنسانية : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[2] . المسافة التى يضيف فيها أفـكارا ذات أهداف . . هذه المسافة هى هى المسافة بين الإنسان والحيوان ، وهى التى تبيّن كيف يقضى الإنسان ضرورة الحيوان .. ولـكن على طريقة الإنسان .

***

تلك هى الصفحة الأولى من التصور الإسلامى للإنسان ، الصفحة التى تعرض صلته بالحيوان . أما الصفحة الثانية التى تعرض صلته بالملاك ، فهى تقتضى أن يستجيب الإنسان لأشواقه العليا ولـكن على طريقة الإنسان لا على طريقة الملاك .

---

(١) إلا حين يختل العدد فتزيد نسبة الإناث على نسبة الذكور ، وهو مايحدث فى الطبيعة ، فيباح تعدد الزوجات لملافاة هذا النقص .

(٢) سورة الروم [٢١]

فالملاك — كما ترد صورته فى الفكرة الإسلامية — مخلوق من نور خالص ، ليس له ثقلة الجسم ولا عتامة الطين . ومن ثم فهو إشراقة خالصة محددة الاتجاه . اتجاهها هو الطاعة المطلقة الدائمة الكاملة : « لا يعصون الله ما أمرهم ، و يفعلون ما يؤمرون[1] » . « يسبحون الليل والنهار لا يفتُرُون[2] » « يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون[3] » .

وهى صورة جميلة شفافة رائقة . . ولكنها ليست من طبيعة الإنسان المزدوج الطبيعة والاتجاه . ولذلك لا يُقْسَر عليها الإنسان قسراً ، لأنها تفسد طبيعته ، إذ تهمل الجانب الحيوى من كيانه ، وتتركه بدداً لا ينفع بشىء . لذلك قال : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم[4] » .

وليس معنى ذلك ألا يستجيب الإنسان لما ركب فى طبيعته من إشراق وتطلع إلى الخفة والانطلاق من القيد والترفع على الضرورة . بل هو يشجِّع على ذلك تشجيعاً ، ويوجِّه إليه بكل وسيلة . ولكن على ألا ينزع نفسه من الأرض : « ولا تنس نصيبك من الدنيا[5] » . « عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها ! فقالوا أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى[6] » .

(١) سورة التحريم [٦]
(٢) سورة الأنبياء [٢٠]
(٣) سورة فصلت [٣٨]
(٤) سورة الحديد [٢٧]
(٥) سورة القصص [٧٧]
(٦) الشيخان والنسائى

وتلك عبقرية الإنسان : أن يسير بجسمه على الأرض وهو متطلع بروحه إلى السماء !

وهى كذلك معجزة الإسلام فى مراعاته للفطرة البشرية .

فهو يكوّن نقطة الوسط بين الاتجاهات المتطرفة المنحرفة .

لا يؤمن — كالداروينية — بحيوانية الإنسان .

ولا يؤمن كالهندوكية والبوذية برهبانية الإنسان .

وقد نشأ عن النظرة الداروينية التى تؤمن بمادية الإنسان وحيوانيته اتجاهات شتى فى الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس . .

كما نشأ عن النظرة المثالية فلسفات وأفكار .

عن الأولى نشأت الماركسية فى عالم الاقتصاد ، والتفسير المادى للتاريخ فى عالم الاجتماع ، والتفسير الجنسى للسلوك فى عالم النفس .

ونشأت عن الثانية الفلسفة المثالية ، والنظريات التجريدية ، من نظرية المثل لأفلاطون فى العصور القديمة إلى فلسفة هيجل فى القرن التاسع عشر .

ونشأت عن هذه وهذه فنون .

وسنتكلم عن هذه الفنون بتفصيل أوسع ونحن نتحدث عن « الواقعية فى التصور الإسلامى » . ولكننا هنا نثبت ملاحظة عابرة ، هى أن هذه الفنون كلها « منحرفة » بطبيعة انبثاقها من تصور خاطىء للإنسان ، وأنها على كل ما فيها من جمال ودقة وبراعة فائقة ، لا ينبغى أن تخدعنا عما فيها من انحراف ، حين نقيسها بهذا المقياس « الإنسانى » الكاشف ، الذى يمثل طبيعة الإنسان على حقيقتها الشاملة ، ويأبى أن ينحصر فى جانب واحد من جوانب الإنسان .

* * *

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك . لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدًى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1] » .

تلك قصة آدم . . قصة البشرية كلها من المنشإ إلى المصير . . قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه .

وإن فيها لمجالات واسعة للفن ، سيجىء الكلام عنها فى موضعها . . وإنما نحن هنا مشغولون بعرض التصور الإسلامى للإنسان .

وإن الإنسان ليشهد فى نفسه صدق هذه القصة فى كل لحظة من لحظات حياته على الأرض .

إنه مخلوق ذو مواهب وذو مقدرة وذو نشاط فعال .

(١) سورة البقرة [٣٠ — ٣٩]

ولـكن فى نفسه نقطة ضعف دائمة : هى حبه للشهوات :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث[١] »

وهو يخضع لهذه الشهوة أحيانا فتركبه ، فلا يملك نفسه منها ، ويُستعبد لها فتستذله وتقوده من خطامه .

وأحيانا يقدر عليها ، فيرتفع على الضرورة ، ويرتفع على نفسه ، ويحقق أرفع ما فى كيانه من طاقات واستعدادات .

وأحيانا تلم به لحظة ضعف ولـكنه يفيق منها فيتوب . . فيتقبل الله توبته :

« والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين[٢] »

وهو فى أرفع حالاته حين يقدر على نفسه ويمتنع على الشهوات ، وعندئذ يكون قريبا من الله . وهو فى أخس حالاته حين يترك نفسه لشهوتها ، فتهبط به ، وتظل تستدرجه فى طريق الهبوط ، وعندئذ يكون فى قبضة الشيطان .

ولـكن الله به رحيم . فهو لم يحرّم عليه النعيم وهو على الأرض : « ولـكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » . وإنما منعه من « الشهوة » . وحدد بين المتاع والشهوة حدوداً بيّنها فى دستوره ، الذى طلب منهم اتباعه ليفوزوا بالنعيم المنشود .

* * *

(١) سورة آل عمران [١٤] (٢) سورة آل عمران [١٢٤ — ١٢٦] .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1] » .

إن الانسان فى التصور الإسلامى مكرم مفضل عند الله. يحمل هذه الكرامة بين جنبيه طالما هو متصل بالله متبع لهداه .

وقد زوده الله بالطاقات اللازمة لعمارة الأرض : « وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات » . . والطيبات من الرزق معنى واسع وشامل يشمل كل الأرزاق . ليس فقط الطعام والشراب والمتاع . . وإنما هو كل مكنونات البر والبحر ، وكل طاقة فى السماوات والأرض :

« وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه[2] » .

فالسماوات والأرض ، بموجوداتها ، بقوانينها ، بنظامها ، بطاقاتها ، بمنتجاتها . . مسخرة من الله للإنسان . يأخذ منها رزقا طيباً ، يستعين به على الحياة والخلافة عن الله . . يدخل فى ذلك شعاع الشمس المنير ودفؤها المحيى ، ومطر السماء المنبت ، وعناصر الهواء المساعدة على الحياة ، والكهربائية والمغنطيسية ، والمد والجزر ، وجاذبية الأجرام السماوية . . . و . . . و . . . وكل ما فى الوجود من كائنات وطاقات . . . ويدخل فيه الموهبة التى رزقها الله للإنسان : موهبة العلم بهذه الكائنات والطاقات ، والقدرة على تسخيرها لعمارة الأرض وترقية الحياة .

وهو مكلف أن يقيم من ذلك كله « عملا » صالحا . .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . . »

---

(١) سورة الإسراء [٧٠]

(٢) سورة الجاثية [١٣]

والعمل الصالح كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله . من عبادة . وزرع . وصناعة وعمارة . واستخراج لكنوز البر والبحر . .

ولا يكون صالحاً حتى يستوفى الشروط التى بينها الله فى دستوره . . شروط شاملة تشمل كل حياة الإنسان بالتفصيل . حياته فرداً وجماعة . حياته الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمادية . . . ومؤداها أن تقوم فى الأرض حياة فاضلة راشدة نظيفة مهتدية ، يتمتع فيها الناس كلهم برزق الله الواسع ، على أخوة ومودة ، فى ظل الحق والعدل الأزليين .

الحياة الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والمادية . . هى فى التصور الإسلامى جزء من « العمل الصالح » الذى ينبغى للإنسان أن يقدمه إلى الله . . ومن ثم فهى دائماً مرتبطة بالله .

إن الإنسان فى نظر الإسلام ليس شقين منفصلين : شقا أرضيا « يعمل » وشقا سماويا « يتعبد » . وإنما العبادة عمل والعمل عبادة . والإنسان بشقيه شىء واحد . لأنه منذ مولده الأول قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ممتزجتين غيرمنفصلتين. ومن ثم فليس شىء من كيانه منفصلا عن بقية الكيان .

الروح والعقل والجسم كيان واحد .

والعمل والعبادة كيان واحد .

والدنيا والآخرة كيان واحد .

وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله[1] . وكل لحظة من حياته هى للدنيا والآخرة فى آن[2] . ومن هنا لاتنقسم الأعمال إلى قسمين : قسم لقيصر

---

(١) انظر فصل « خصائص المنهج الإسلامى » فى كتاب «منهج التربية الإسلامية ».
(٢) انظر فصل « فليغرسها » من كتاب « قبسات من الرسول » .

وقسم لله . وإنما تكون كلها لله . ولا يدخل في تصور شيء في تصور المسلم ... خاضعة لدستور الله . .

ولا تكون هناك نظريات اقتصادية ، ولا نظريات اجتماعية ، ولا تنظيمات أرضية منقطعة عن الله . . .

لايقال فى شيء من الأشياء هذا تنظيم أرضى فلا دخل لله فيه ، ولا يقال لشيء من الأشياء هذا « دين » فلا دخل له بشئون الأرض !

الأرض بكل من فيها وما فيها خاضعة لله ، وينبغى أن يحكمها هدى الله .

أخلاق الناس وتقاليدهم . . علاقات بعضهم ببعض . . شئونهم الفردية والجماعية . . سلوكهم الجنسي وسلوكهم الاقتصادي وسلوكهم الاجتماعي ، سلمهم وحربهم . . سياستهم الداخلية والخارجية . . مشمولة كلها بدستور الله ، منظمة بمقتضى ذلك الدستور . ورقابة الله تشملها كلها ، ولا تترك منها شيئا للأهواء التى تنتاب البشر فتحرجهم عن الصراط .

* * *

وهذه الأمور كلها وحدة مترابطة .

مترابطة فى داخل النفس وفى واقع الحياة .

فليس هناك عمل واحد من أعمال الإنسان مستقل بذاته ، غير مرتبط ببقية الأعمال .

نشاطه الروحي ، ونشاطه العقلي ونشاطه الجسمي كله صادر عن كيانه الموحد ، ومن ثم فكله مترابط ، وكل جانب منه يؤثر على بقية الجوانب .

والأمر كذلك فى حياة المجتمع : لايمكن فصل التنظيم الاقتصادى عن الفكرة الاجتماعية ، عن الفكرة الروحية ، عن الأخلاق . . ولا يمكن أن تتخذ

أىٌّ من هذه طريقها مستقلة عن الأخرى ، أو غير متأثرة بها ومؤثرة فيها فى الوقت ذاته .

لا يقوم الاقتصاد بمعزل عن القيم الروحية والقيم الخلقية .

ولا تقوم الأخلاق بمعزل عن الاقتصاد . . .

ولايقال للناس : أنتم أحرار فى سلوككم « الشخصى » ، فكيّفوا سلوككم الجنسى وقيمكم الروحية كما تشاءون ، ولكن اخضعوا لتنظيمات « الدولة » فى السياسة والاقتصاد !

ولا يقال لهم التزموا الأخلاق « الرسمية » فلا تفسقوا ولا تشربوا الخمر وأدّوا العبادات المفروضة . . ثم تصرفوا فى اقتصادياتكم كما تشاءون ، فاستغلوا الناس واستعبدوهم وكلوا حقوقهم !

فالترابط الموجود فى كيان النفس وكيان المجتمع ، يقتضى أن يكون التنظيم والتهذيب شاملا لكل هؤلاء .

* * *

وملاك الأمر فى هذه الشئون كلها هو التوازن . . وهو صفة تكتسبها النفس من السير على منهج الله [1] .

التوازن سمة بارزة فى هذا الكون .

فأجرام السماء متوازنة . . آية توازنها ذلك النظام الدقيق المضبوط الذى لايختل قيد شعرة ، ولا يفترق عن موعده ثانية ولا ثالثة ولا مترا من سرعة الشعاع !

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

وهو سمة واضحة فى المجموعة الشمسية التى نحن جزء منها ، وفى الأرض التى نعيش عليها بصفة خاصة ، وفى الحياة على الأرض بصفة أخص .

والعلم يقول فى هذا التوازن مقالات شتى . ليس هنا مجال تفصيلها . ولكن البصيرة الملهمة قد أدركت ذلك التوازن حتى قبل أن يصل إليه العلم . أدركته فى ومضات مشرقة من ومضات الروح .

والحياة الإنسانية ينبغى أن تسير على الناموس الأكبر الذى يحكم الكون والحياة كلها . . فتتوازن بكل مافيها من طاقات .

تتوازن الأشواق الطائرة والضرورات القاهرة .

تتوازن النزعة الفردية والنزعة الجماعية .

تتوازن النزعة المادية والنزعة الروحية .

تتوازن طاقة الواقع وطاقة الخيال .

يتوازن الحب والكره .

يتوازن العمل والعبادة .

تتوازن مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة .

تتوازن مصلحة الجيل ومصلحة الأجيال .

يتوازن كل شىء فى هذه الحياة !

* * *

والناس إخوة فى البشرية ، بحكم نشأتهم من نفس واحدة ، واشتراكهم فى المنشإ والمصير .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام[١] »

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٢] » .

وهذه الأخوة ليست قضية نظرية جميلة يُحتفظ بها فى عالم المثل والأحلام . بل هى حقيقة عميقة فى حياة البشرية ، تصاغ على أساسها النظم والتشريعات والتوجيهات .

فالمال يشارك فى الانتفاع به الجميع : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم[٣] » .

والأمن والسلام ملك للجميع : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله[٤] » وليس المسلم فقط ، وإنما هى قضية عامة : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا[٥] »

« والأخلاق » قضية إنسانية ، ناشئة من أخوة الناس جميعاً .

فالذى يفسق فى الأرض ويرتكب الفاحشة يعتدى على عرض أخ من إخوته وعرض أخت .

والذى يلمز الناس أو يغتابهم أو يتجسس عليهم . . أو يغشهم ويكذب عليهم . . أو يسرقهم ويغتصبهم . . إلخ ، يعتدى على قانون الأخوة الذى يقتضى أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويعامله بما يحب أن يعامله به . ومن ثم تقام الحدود التى تلزم الناس برعاية هذه الأخوة ، وتردهم بالحزم والشدة حين

(١) سورة النساء [١]
(٢) سورة الحجرات [١٣]
(٣) سورة الحشر [٧]
(٤) رواه الشيخان
(٥) سورة المائدة [٣٢]

يخرجون عليها ، إلى جانب التوجيهات التى تبث هذه الروح فى كل عمل وكل شعور .

ويصير هذا جزءا من دستور الحياة الإنسانية ، ناشئا من الواقع العميق فى بنية هذه الحياة .

* * *

والإسلام بعد يتصور الإنسان فى واقعه الفعلى لا فى عالم النظريات .

ولكن نظرته إلى « الواقع » ليست ضيقة محصورة الحدود (١) .

إنه يأخذ الكائن البشرى على ماهو عليه . لا يهمل شيئاً من طاقاته ، ولا يفرض عليه ماليس من طبيعته .

الإنسان بدوافعه كلها ، بنوازعه كلها ، بحالاته كلها ، معترف به ، ومقبول على ماهو عليه . كل مافى الأمر أن الإسلام يسعى إلى تنظيفه وتهذيبه . ولكنه لا يكبته ولا يحارب فطرته .

طاقة الجنس نظيفة ، معترف بها فى وضح النور : « وإن فى بضع أحدكم لأجرا ! قالوا : يارسول الله أإن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ ! قال : أرأيت لو وضعها فى حرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذ وضعها فى حلال فله فيها أجر ! » (٢) .

ورغبة الملك نظيفة . وحب الإنسان لنفسه نظيف . وطاقة القتال نظيفة . وطاقة الكره نظيفة . . . وكذلك كل طاقاته واستعداداته . معترَف بها . بل مطلوبة لذاتها ، وفى مكانها الصحيح .

---

(١) انظر الفصل التالى : « الواقعية في التصور الإسلامى » .

(٢) رواه مسلم .

ولكنه لا يريدها أن تتجاوز الحدود . . فعندئذ تنقلب إلى « فاحشة » فالفحش هو تجاوز الحدود . ومن ثم يضع لها « الضوابط » التى تضبط مُنْصَرَفَها ، ويضع لها التوجيهات التى تنظفها . ويربطها بالله لكى تَنْظُفَ وتستقيم(١) .

وهو فى ذلك يعتمد على أداة بشرية ، كامنة فى كيان النفس ، موهوبة للإنسان من عند الله :

« ونفس وماسواها ، فألهمهافجورهاوتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »(٢) .

ومع ذلك كله فهو يعلم أن للطين ثقلته وعتامته . وللواقع ضغطه وقوته . وأن الإنسان خلق ضعيفا فيخفف عنه : « يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا »(٣) .

يخفف عنه فى التكاليف : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٤) . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »(٥) ويطالبه بما يقع فى حدود استطاعته : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فانتهوا »(٦) . وأخيرا يقيل منه عثرته ويقبلها ، ولا يسلط عليه سيف غضبه مادام لا يصر على فعلته : « . . ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم »(٧) . « ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان

---

(١) انظر فصل « نظرة الإسلام » فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .
(٢) سورة الشمس [٧—١٠] .
(٣) سورة النساء [٢٨].
(٤) سورة الحج [٧٨] .
(٥) سورة البقرة [٢٨٦] .
(٦) رواه مسلم .
(٧) سورة آل عمران [١٢٥—١٢٦] .

الله غفورا رحيما »[١] . « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون »[٢] .

* * *

ذلك هو التصور الإسلامى للإنسان .

وهو تصور واسع شامل يشمل حياته كلها بجميع دقائقها وتفصيلاتها .

وهو كذلك تصور متوازن ، لا يشتط فى تقدير قيمة من القيم الإنسانية على حساب قيمة أخرى ، ولا ينسى أحد جوانبه ليذكر جانبا آخر .

ومن هذا الشمول والتوازن يمكن أن ينبثق فن « إنسانى » رفيع . فن يشمل حياة الإنسان كلها ، باطنها وظاهرها ، ويشملها فى عالم الضرورة القاهرة وعالم الأشواق المرفرفة . فى عالم « الواقع » وعالم « المثال » . فى دنيا الفرد وعالم الجماعة . فى لحظة الإنتاج المادى ولحظة الإنتاج العقلى ولحظة الإنتاج الروحى . فى لحظة هبوطه ولحظة رفعته . ويكون أكبر فن شهده الإنسان .

---

(١) سورة الفرقان [٦٨ — ٧٠] .   (٢) رواه الترمذى .

الواقعية فى التصور الإسلامى

هذا التصور الإسلامى للإنسان — وهو أكمل تصور تعرفه البشرية وأشمل تصور — يفترق دون شك فى بعض أجزائه وفى مجموعه النهائى عن كثير من التصورات الأرضية التى سادت من قبل أو تسود اليوم فى أكثر بقاع الأرض ، ويصطدم اصطداما مباشراً مع التصور الغربى الحديث ، الذى تنبثق عنه الفنون السائدة فى العالم اليوم .

فالاتجاهات « الواقعية » الحديثة ، على اختلاف ما بينها فى الجزئيات ، تتفق كلها فى استمداد تصورها من النظرة المادية الحيوانية للإنسان ، القائمة بدورها على الداروينية القديمة [1] .

لقد سيطرت على الغرب فترةً من الوقت موجة من « الرومانتيكية » المحلقة فى الخيال ، كانت فى حقيقتها هروبا من الواقع السيئ الذى تعيش فيه شعوب أوربا . هروبا يشبه فى بعض مظاهره « الحشيش والأفيون » وغيره من « المغيبات » التى تنسى الإنسان الواقع ، وتحلق به فى عالم صناعى خالٍ من المشاكل التى تقلق البال . ثم تفيق — إذا أفاقت — على حسرة مرة من أجل الأحلام الحلوة التى لا تتحقق فى واقع الأرض !

ولكن هذه الموجة انتهت — كما كان لابد أن يحدث — لأنها حركة غير

---

(١) تمييزا لها من «الداروينية الحديثة» التى تباعد بين الإنسان والحيوان مع التسليم بالأسس العلمية التى قامت عليها نظرية دارون ، وتركز اهتمامها على الجوانب التى يتفرد بها الإنسان . ومن علمائها المعاصرين جوليان هكسلى .

طبيعية بالنسبة للإنسان ، الذى لابد أن يجابه الواقع فى النهاية مهما تهرب من مواجهته فترة من الزمان .

وكان رد الفعل هو الحركة « الواقعية » التى ولدت فى القرن التاسع عشر وما تزال سارية فى هذا القرن العشرين .

وكل رد فعل لحركة متطرفة يجنح بدوره إلى التطرف ، ولا يقف عند نقطة التوازن ، لأنه يحاول — فى حركة محمومة — أن يزيل آثار الحركة الأولى ويمحوها من الوجود ! يحاول أن يبعد عنها إلى أقصى مافى طاقته من البعد . . فتكون النتيجة أن يبتعد أيضاً عن نقطة الوسط الموزون .

وقد كانت هذه الواقعية اتجاها شاملا لم يقف عند حدود الأدب والفن ، بل لعلها فى الأدب والفن كانت صدى للاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية و « العلمية » التى بدأت تسيطر على الفكر الأوربى منذ القرن التاسع عشر ، وما زالت مسيطرة حتى اليوم .

كان كل شىء يتجه إلى « الواقع » !

كانت هناك حركة انسلاخ كامل من « المُثل » الجوفاء التى كانت مسيطرة من قبل ، والتى كانت تعيش فى أبراجها العاجية ، فى عالم نظرى بحت ، تاركة الواقع البشرى المنتن ينغل فيه الدود ؛ الواقع الذى يسوده الفقر والظلم والطغيان والحرمان ، والمذلة المهينة لكرامة البشرية . . بينما هى تحلم بالمثل العليا والتكامل فى عالم غير موجود !

وكان المذهب التجريبى فى العلم — وهو المذهب الذى انتقل إلى أوربا عن طريق المسلمين فى الأندلس كما تقرر المراجع الأوربية (جب ـ Modern Trends in Islam وبريفولت Making of Humanity وغيره كثيرون) — كان

هذا المذهب قد تغلغل فى الفكر الأوربى كله ، فنقله من التجريد النظرى المعيب إلى مقاطعة كل ما هو نظرى ، وعدم الإيمان إلا بما تؤيده التجربة وتثبت صحته ! أى أنه لم يقف عند نقطة الوسط الموزونة كما كان عند المسلمين ، وكما ينبغى أن يكون ، بل انتقل من تطرف معيب هنا إلى تطرف معيب هناك !

ونشأ على أنقاض المذاهب والاتجاهات النظرية مذهب مادى بحت ، يقول إنه لا حقيقة إلا حقيقة المادة ، ولا موجود إلا ما تدركه الحواس !

وفى تلك الفترة ، وبسبب من هذا الاتجاه ، ولدت النظرية الداروينية فى مبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مقررة — إلى جانب الاتجاه المادى — حيوانية الإنسان !

ومن ثم صار التصور « الواقعى » الجديد للحياة الإنسانية ، قائماً على مادية الإنسان ، وحيوانيته كذلك فى ذات الوقت !

مادية الإنسان قائمة على إنكار « الروح » .

ففى عرف المذهب المادى — كما أسلفنا — لا توجد حقيقة إلا ما تستطيع الحواس أن تدركه . وما لا تدركه الحواس فهو غير موجود ، أو على الأقل شىء ساقط من الحساب . وإذ كانت الروح شيئا غير ملموس ، لا تستطيع الحواس أن تدركه ، فلا ضرورة لأن يتعب الإنسان نفسه فى الإيمان بها ، وليسقطها من حسابه جملة ، أو فليبقها للتندر بها بين الحين والحين !

وحيوانية الإنسان قائمة — فى النظرية الداروينية — على التشابه بين تركيب جسم الإنسان وجسم الحيوان ، ذلك التشابه الذى أوحى لدارون يومئذ بأن الإنسان حلقة من حلقات التطور الحيوانى ولا زيادة . وأنه حيوان أصيل فى الحيوانية ، لولا « الظروف » و « المصادفات » ما استقام عوده ولا مشى على رجلين اثنتين ، ولا كبر مخه وتعلم الكلام !

والتقت النظرتان على إنكار الجانب الروحى من الإنسان ، الجانب العلوى الذى كان قائماً على تفرد الإنسان فى الخلقة ، ونفخة الله فيه من روحه ، واختصاصه إياه بالعناية ، وتمييزه على غيره من الـكائنات .

والتقت النظرتان كذلك على الهبوط بالإنسان من آفاقه العليا إلى آفاق الضرورة الحيوانية المقيدة المحصورة النطاق . بعد أن أزيل عن الإنسان جانبه العلوى الذى كان يصله بالله ، وكان من ثم « يرفعه » عن الحيوان .

وقامت على مادية الإنسان وحيوانيته جملة مذاهب فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة وعلم النفس .

قام ماركس وإنجلز يطبقان النظرية الداروينية فى الاجتماع والاقتصاد على أساس أن « المادة » هى العنصر المسيطر على الحياة والإنسان . وأن التطور — الاقتصادى والاجتماعى — قوة حتمية لايد للإنسان فيها ولا حرية له إزاءها . وأن موقف الإنسان من التطور الجبرى موقف سلبى . وأن مشاعر الإنسان وأفكاره ومعتقداته لا تساوى شيئا ، ولا تؤثر فى خط سير البشرية لأنها ليست « واقعا » حقيقيا . إنما الواقع هو المادة والاقتصاد .

يقول ماركس : « فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها وهى مستقلة عن إرادتهم . . فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » .

ويقول فردريك إنجلز : « تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام

اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس أو فى بحثهم عن الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » .

هذا التفسير المادى للتاريخ كان امتدادا ولا شك للتفسير المادى الحيوانى للإنسان .

فليس يسعى الإنسان إلى الحق والعدل الأزليين . وإنْ سَعَى إليهما فلا قيمة لذلك ولا عبرة به . وإنما يسعى الإنسان إلى الطعام . وإلى الإنتاج المادى . وأسلوب الإنتاج هو الذى يحدد له وجوده ومشاعره وأفكاره ومُثُله ونظمه وعقائده . . ولا شىء من ذلك كله ثابت ، لأنه لا وجود لقيم ثابتة . وإنما كل شىء « متطور » تبعا لتطور وسائل الإنتاج . .

وقام فرويد يطبق النظرية الداروينية فى علم النفس ، فيقرر حيوانية الإنسان كاملة فى التفسير الجنسى للسلوك البشرى . « جسم » الإنسان هو حقيقته . والطاقة الجنسية — فى نظر فرويد — هى أعظم طاقات الجسم ، ومن ثم فهى المسيطرة على كيان النفس ، وهى المحرك الأول لكيان البشرية .

الجنس هو كل شىء فى حياة الإنسان .

الطفل يرضع ثدى أمه بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية . ويحرك عضلاته بلذة جنسية . ويرتبط بأمه بشعور جنسى . . وحين يصطدم هذا الشعور الجنسى نحو الأم بوجود الأب وسيطرته ، يحدث الكبت . تحدث عقدة أوديب . وينشأ معها « الضمير » أو الذات العليا . كما تنشأ القيم العليا كلها . وهى قيم كلها مزيفة ، لأنها تغطية مصطنعة لشعور الجنس المكبوت نحو الأم ! !

وفى السياسة راح قوم من المفكرين يشجعون الاستعمار والسيطرة والتوسع

على أساس فكرة الصراع الداروينية وبقاء الأصلح Survival of the Fittest قائلين بوجوب سيادة الجنس الأبيض لأنه أصلح للبقاء . كما أخذ اليساريون فكرة الصراع هذه فرسموا على أساسها نظريتهم فى الصراع الطبقى ، الذى يؤدى فى النهاية إلى سيادة طبقة معينة — هى طبقة البروليتاريا — ومحقها لجميع الطبقات .

وهكذا تسمت النظرية الداروينية — القائمة على مادية الإنسان وحيوانيته — حتى شملت فى الواقع كل اتجاهات الفكر الأوربى وكل مناحى الحياة[1] .

* * *

وكان لابد أن تصل هذه العدوى إلى الفن فى أثناء الطريق .

فالفن — كما قلنا من قبل — هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذى يتلقونه فى حسهم من حقائق الوجود ، أو من تصورهم لحقائق الوجود .

وإذ كان هذا هو الإيقاع الذى تلقاه الناس فى حسهم فى القرن التاسع عشر والعشرين — حيوانية الإنسان وماديته ، وانحصار عالمه فى هذه الأرض ، وانقطاع صلته بخالقه ، ونفى النفخة العلوية عنه ، ونفى التفرد والتميز عن عالم الحيوان ، وسلبيته إزاء قوة المادة والاقتصاد الجبريتين ، وعدم جدوى ما يؤمن به من حق وعدل أزليين ، وتبعيته الحتمية للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية « المستقلة عن إرادته » ، وعدم ثبات قيمة من القيم التى يؤمن بها ، وسيطرة الدوافع الحيوانية عامة والجنسية خاصة على سلوكه — إذ كان هذا هو الإيقاع الذى تلقاه الناس فى حسهم ، فقد كان فنهم بالضرورة هو محاولة التعبير عن هذه الإيقاعات ، ومن ثم كانت « الواقعية » الفنية فى القرن التاسع عشر والعشرين !

---

(١) انظر بالتفصيل فصل « جولة مع التاريخ » فى كتاب « معركة التقاليد » .

قامت هذه الواقعية تزعم أنها ستصور الإنسان على « حقيقته » !

لقد سئمت من الصورة المزيفة التى كان يرسمها الفن القديم للإنسان . صورة البطولة الخارقة التى تتمثل فيها الفضائل المثالية التى لا وجود لها فى الواقع !

أما الواقع فهو هذا « الحيوان » !

الحيوان الذى اكتشفه دارون ، وفسره فرويد والتفسير المادى التاريخ !

الحيوان الذى تحكمه غرائزه — أو دوافعه الفطرية بتعبير علم النفس الحديث — والذى يخفى وراء القشرة المزيفة المصنوعة من النفاق والرياء ، حقيقة قذرة دنيئة خسيسة ، هى جوهره الحقيق .

أو الحيوان الذى تحكمه أوضاع اجتماعية واقتصادية لا يد له فيها ولا سيطرة له عليها ، وهى التى ترسم له مثله وأفكاره وأخلاقه وتقاليده وطرائق سلوكه وواقع حياته . وهو لا يملك من أمرها شيئا ، وإنما هو منها كالفرد فى القطيع .

أو هذان الحيوانان معا . . ممتزجين فى كيان !

* * *

وانطلقت هذه الواقعية فى حماسة محمومة تعمل على تشويه صورة الإنسان وتحطيم بطولته .

البطولة خرافة « إقطاعية » أو خرافة بدائية . . كانت تَفْرِزُ شخصا معينا فتبرزه من الصفوف « العادية » وترسم له صورة غير حقيقية من الفضائل الوهمية . لأن ذلك كان عصر « الفرد » الذى لا يحترم كيان « المجموع » ، ويؤمن بأن هذا الفرد كائن قائم بذاته ، غير مستمد كيانه من ذلك المجموع .

والفضيلة المثالية خرافة إقطاعية أو خرافة بدائية . . كانت متأثرة كذلك

بنظرية الفرد الممتاز الذى لا وجود له فى واقع الحياة . . أو كانت متأثرة بخرافة أخرى اسمها الدين .

وينبغى تحطيم هذه وتلك . .

ينبغى تحطيم البطولة الفذة لأنها إهانة للفرد العادى ! وهذا الفرد العادى بنقائصه وفضائله ، هو البطل الحقيقى الذى يجب أن تسلط عليه الأنوار .

وينبغى تحطيم الفضيلة الفذة لأنها اتهام للفرد العادى بأنه غير فاضل ! أو أنه غير فاضل بما فيه الكفاية ! والفرد العادى — بنقائصه وفضائله — هو المقياس . وهو شخص — فى أغلب حالاته — نفعى انتهازى منافق مخادع ضعيف ملتوٍ غير مستقيم . ومن ثم تكون هذه هى فضائل الحياة التى يتصف بها البطل الذى تسلط عليه الأنوار ! (١)

وجن جنون هذه الواقعية المحمومة من صور أبطال التاريخ . . فقامت تحطمها وتشوهها .

الأنبياء والرسل خرافة ! لأنهم يعرضون صوراً نقية بيضاء . والبشرية ينبغى أن تكون ملوثه شائهة !

أو إذا لم يكونوا هم أنفسهم خرافة فلتكن نظافتهم هى الخرافة ! فلنبحث لكل واحد منهم عن سقطة أو سقطات . ولنجعلها هى موضع العناية والإبراز ، ونسلط عليها وحدها الأنوار !

وعظماء الأمم خرافة ، لأنهم صور خارقة للمستوى « العادى » للبشر . أو إذا لم نقل إنهم خرافة ، فلنبحث على الأقل عن حياتهم « الخفية » لنستخرج منها شيئا من القاذورات نثبت به « آدميتهم » . . أى حيوانيتهم !

---

(١) تلك نظرية المذهب « الطبيعى » وهو أحد المذاهب « الواقعية » الحديثة .

و « الإنسان » فى ذاته خرافة !

لا ينبغى أن يخدعنا بما يدعيه لنفسه من مثل ومبادئ ، واستعلاء وترفع . . فلنهبط معه إلى « أصوله » الحقيقية . إلى دوافعه الفطرية التى تحركه سواء رغب أم لم يرغب ، وشعر أو لم يشعر . . فلنترك الثمار الجنية والأزهار الأريجة والفروع الباسقة والأوراق النضرة . . فذلك كله مظهر زائف . ولنبحث عن الأصل . إنه هناك . . فى البذرة الغارقة فى الطين !

* * *

البطل فى القصة الحديثة هو الشخص العادى — لا الشخص المتميز .

وهو الشخص العادى لا فى حالات ارتفاعه ، ولا فى جميع حالاته مع التسوية « النزيهة » فى إبراز مكامن الضعف ومكامن القوة . . وإنما هو الشخص العادى معروضا — فى الغالب — من نقطة الضعف المسيطرة عليه ، ومرسومة لوحاته من هذه الزاوية وحدها أو بصفة غالبة . مع الحرص على إبراز معنى معين : هو أن ساعات الارتفاع قليلة وعديمة الأثر فى واقع الحياة ، وأن الذى يؤثر فى خط الحياة فعلا هو لحظات الضعف الكثيرة المتجمعة فى مجموع الأفراد . وأن الشخص الذى يشذ عن هذا الخط — لخلل فى نفسه يجعله يؤثر الارتفاع ! — سرعان ما يتحطم ويندم على ما كان منه من شذوذ وغفلة . . . ويسير مع القطيع ! أو . . ينتحر !

وهذا كله غير الأدب الجنسى . الذى يصور الحياة كلها شهوة جنس عارمة تبحث عن المتاع المسعور ، والذى تخصص له أدباء كاملون ، من أمثال د . ه . لورنس ، وهبوا كل طاقتهم الإنتاجية لهذا اللون الدنس من المتاع . . زاعمين أنهم كتاب « واقعيون » ، وأن هذا هو الواقع الحقيقى للإنسان !

* * *

تلك صورة « الواقعية » الحديثة فى الفن الغربى والفكر الغربى كله .

وأياً ما كانت الدوافع التى أدت إلى هذا التصور لحقيقة الإنسان والحياة الإنسانية ، فمما لاشك فيه أنه تصور منحرف ، لجيل من البشرية مصاب بشتى أنواع الشذوذ النفسى والفكرى والروحى ، وشتى أنواع الاختلال فى حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والاضطراب العنيف فى القيم والمعايير .

تَصَوّرُ جيل كفّره الواقع السيىء الذى عاش فيه بضعة قرون ، بالقيم والمبادىء العليا كلها ، كما كفره بالله والعقيدة .

جيل علمه هذا الواقع السيىء أن الحياة ضربٌ عشوائى ذات اليمين وذات الشمال ، كل بقدر ما يستطيع أن يضرب ، وكل بقدر ما يستطيع أن ينتهب فى زحمة الصراع .

جيل شارد آبق مذهول مصروع . . يسير مختل الخطى و ينظر زائغ البصر وتختلط فى رأسه الأشياء .

جيل خارج من عبوديات شتى ، فيحس أن « التحرر » من العبودية هو التحطيم الشامل لكل شىء وكل قيمة . . لأن كل شىء وكل قيمة تذكره بقيد العبودية البغيض .. و ينتهى — لأنه لم يتحرر حقيقة بعد — إلى أن يستعبد نفسه من جديد . . يستعبد نفسه على الأقل لشهوة الإباق والتحطيم .

وهو فوق ذلك كله جيل مغرور . . فتنته الكشوف العلمية التى وصل إليها ، فظن أنه قد ملك قياد نفسه ، وأنه — ما دام يخترع ويكشف — فلابد أن يكون كل تفكيره حقيقة ، وكل ما يخطر فى باله فهو صواب .

وقد يكون هذا الجيل معذورا أو غير معذور . . ولكن تصوراته المنحرفة

لا ينبغى أن تكون دستورا للفكر والحياة البشرية ، كما أن هذيان المحموم — مع العطف عليه — لا ينبغى أن يؤخذ على أنه تفكير سليم .

* * *

والتصور الإسلامى للإنسان والحياة البشرية لا يمكن بحال أن يجارى هذا الانحراف .

إن الإسلام لا ينظر فى واقع فرد ، ولا واقع جماعة ، ولا واقع جيل من أجيال البشرية . ولكنه يجعل فى حسابه واقع كل فرد وكل جماعة وكل جيل . . . ومن ثم لا يأخذ واقع جيل منحرف على أنه واقع البشرية .

والإسلام لا يأخذ واقع فرد ولا واقع جماعة ولا واقع جيل من أجيال البشرية على أنه حقيقة « حتمية » الوقوع مادامت قد وقعت بالفعل ، ولا على أنه حقيقة « صحيحة » الوجود لمجرد أنها موجودة بالفعل !

إن « الأمر الواقع » لا يفرض نفسه على الإسلام أبداً . فالأمر الواقع قد يكون خطأ من أوله إلى آخره ، فلا يعطيه وقوعُه « حجّيّةً » ولا أحقيةً فى أن يوجد . ويظل مخطئاً ولو بقى ألف عام ! إن مجرد « الوجود » ليس مزية فى ذاته بالنسبة للإنسان. وإلا فالذباب موجود . والعناكب السامة موجودة ! وإنما المزية هى الوجود على صواب . . الوجود على مستوى « الإنسان » . وكل « واقع » ينحرف عن مستوى الإنسان فهو خاطىء ، ولا يمكن أن يكون صواباً لمجرد أنه هو الموجود !

والذين يؤمنون بأن ما وقع بالفعل هو الشيء الوحيد الذى كان يمكن أن يقع — لا على أساس المفهوم الدينى الذى يقول إنه لا يقع فى الوجود إلا ماقدّره

الله ، و إنما على أساس حتمية التطور ، التى تجعل الأطوار الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والخلقية أموراً حتمية فى طريقة وقوعها وفى أشكالها وقوالبها وترتيبها — أولئك لا يؤمنون فى الحقيقة « بالإنسان » وإن تشدقوا بالإنسان وتقدم الإنسان ومكانة الإنسان و إرادة الإنسان وسيطرة الإنسان !

إنهم — أرادوا أم لم يريدوا ، وفطنوا أم لم يفطنوا — يؤمنون بسلبية الإنسان المطلقة إزاء قوى المادة والاقتصاد ، وما يسمونه حتمية التطور . . سلبية لا تملك إلا أن تتعلق فى « تروس » الآلة الضخمة الدائرة — آلة الحياة — دون أن يكون لها أن تبطىء حركتها أو تسرعها أو تغير اتجاه الدوران

إنهم يتبجحون بدعوى « الإنسان » ريثما يخرجونه فقط من كنف الله — سبحانه ! — ثم يلقون به بعد ذلك فى طين الأرض تدوسه الأقدام . . أقدام الاقتصاد والمادة والإنتاج المادى .. أو أقدام « الدولة » على أحسن الفروض !

والإنسان فى عرف الإسلام خاضع لقدر الله . . نعم . ولا يقع فى الكون إلا ما قدره . . نعم[1] . ولكن الإنسان مع سلبيته الكاملة إزاء الله ، إيجابى إزاء كل قوى الكون ، وكل قوى المادة ، وكل قوى الاقتصاد . بل إنه من هذه السلبية ذاتها يستمد إيجابيته إزاء كل القوى المحيطة به ، لأن الله ، الذى هو سلبى إزاءه ، قد سخّر له كل ما فى السماوات والأرض : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه »[2] وجعله عنصراً إيجابياً فى الحياة يغير الأمور عن طريقة : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم »[3] . وعنصراً فعالا يؤثر فعله فى صورة الحياة على وجه الأرض فى الشر والخير : « ظهر

---

(١) انظر بعد ذلك « القدر فى التصور الإسلامى » .

(٢) سورة الجاثية [١٣] انظر « السلبية والإيجابية » فى كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » .

(٣) سورة الرعد [١١]

الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس »[١] « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولـكن الله ذو فضل على العالمين »[٢] . وذلك كله لون من « التـكريم » الذى عناه الله حين قال : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[٣] .

والمخلوق البشرى الذى يعيش فى الغرب اليوم لا يريد أن يؤمن بالله . أدركته شقوة تصوراته الوثنية الإغريقية التى تصور الحياة صراعاً بين البشر والآلهة ، هدفه خروج البشر من حكم الآلهة واستقلالهم عنهم فى أمور الحياة . وأراد — كالطفل الصغير ، أو كالعبد الآبق — أن يحقق كيانه بأن يبعد عنه اليد التى تسنده ، لأنه يرى هذا السند إهداراً لـكيانه الخاص ! يريد أن يقف وحده ويسير وحده ، دون أن يحس بأن أحداً يمنحه القوة ويسنده . يريد أن يقول إن السماوات والأرض ليست مسخرة له لأن الله هو الذى سخرها ، ولـكن لأنه هو — الإنسان — قد سخرها بعلمه « الذاتى » وقوته الذاتية ...

نعم .. ولـكنه لا يخطو خطوة واحدة حتى يقع !

إنه يخطو منتفشاً متبجحاً حتى يَخْرُجَ — فى وهم نفسه — من سلطان الله ونفوذه ومعونته وسنده ووصايته .. ثم .. إذا هو فريسة « لحتميات » لا أول لها ولا آخر ، تحيط به كالأخطبوط ، وتضرب وجهه ضرباً فى الوحل ، كلما أراد أن يرفع رأسه عادت تمرغه فى الوحل من جديد .

الجبرية الاقتصادية . .

الجبرية المـادية ..

---

(١) سورة الروم [٤١]
(٢) سورة البقرة [٢٥١]
(٣) سورة الإسراء [٧٠]

الجبرية التاريخية ...

الجبرية الاجتماعية أو « الجماعية » . .

الجبرية النفسية . .

الجبرية السلوكية . .

كلها جبريات يخضع « لقدَرِها » صاغراً بينما ينتفش انتفاشاً مضحكا أمام قدر الله !

وتروح « المذاهب » و « العلوم » تعدد ألوان هذا الخضوع المذل للقوى التى تُخْضِعُ الإنسان بحتميتها ، بحيث لا يملك نفسه إزاءها ، حتى يصبح هذا الإنسان هملا لا كيان له ولا وزن فى خط سير الحياة . . ومع ذلك تظل تتبجح هذه المذاهب والعلوم بدعوى الإنسان !!

ألا أنه مسخ مشوه لا يرضى عنه « إنسان » له كيان !

* * *

والواقعية الإسلامية تختلف عن هذه الواقعية البائسة فى نقطتين أساسيتين .

أولا : طبيعة تصورها للإنسان ، وموقفه من الله والكون والحياة وأخيه الإنسان .

وثانياً : طريقة تسجيلها « للّقطات » البشرية التى تختارها للتعبير الفنى .

فأما طبيعة تصورها للإنسان فقد تحدثنا عنها فيما سلف بما فيه الكفاية ، ولكننا نلخصها هنا مرة أخرى :

فالإنسان فى نظر الإسلام إنسان ، لا هو بالحيوان ولا هو بالملاك .

وهو يشتمل على شىء من طبيعة الحيوان ، ولكنه يتصرف فيه بطريقة

الإنسان . كما يشتمل على شيء من طبيعة الملاك ، ولكنه يتصرف فيه كذلك بطريقة الإنسان .

مخلوق ليس شراً خالصاً ولا خيراً خالصاً . وإنما فيه الاستعداد للخير والشر ، وفيه القابلية لأن يسير فى هذا الطريق أو ذاك : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »[1] .

مخلوق هو قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهذه القبضة من طين الأرض تخضعه لضروراتها . ضرورات الطعام والشراب والجنس .. الضرورات الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية ، ولكن النفخة من روح الله ترفعه من الخضوع الكامل لهذه الضرورات ، والسلبية المزرية إزاءها ، فتجعله « يتصرف » فى هذه الضرورات تصرف المالك لأمره ، الفعال ذى القوة الموجِّه المريد .. وكلها من صفات الله سبحانه التى أودع شيئاً منها فى قبضة الطين ، حين نفخ فيها من روحه العلية .

ومن ثم فالتصور الإسلامى — والفن الإسلامى — يصور الإنسان على هذه الصورة المزدوجة التى هى طبيعته الحقيقية . يصوره فى لحظات ضعفه ولحظات قوته ، لحظات هبوطه ولحظات رفعته ، اللحظات التى يلصق فيها بطين الأرض ، واللحظات التى يشرق فيها بنور الله .

ولكن . . .

وهنا النقطة الثانية التى تختلف فيها واقعية الإسلام عن واقعية الغرب . .

ولكن .. إذا كانت العدسة المصورة الإسلامية تلتقط اللقطات من هنا ومن هناك فى أمانة ودقة و « واقعية » ، فهى تختلف بعد ذلك فى طريقة التوجيه ...

(١) سورة الشمس [٧ — ١٠] .

إنها حين تلتقط لحظة الهبوط ، تلتقطها على أنها كذلك .. على أنها لحظة هبوط ! لا على أنها لحظة بطولة تستحق التصفيق والإعجاب !

إن الواقعية الغربية المنحرفة ، الثائرة على المثاليات الفارغة التى كانت سائدة من قبل ، والمحمومة بالرغبة فى الانتقام من تلك الصورة الزائفة ، لَتتجمع وتحتشد لتبحث عن نقطة الضعف البشرى ، وتسلط عليها الأضواء بشدة ، وتسجلها بالتفصيل وكأنها تقول : هانحن أولاء قد انتصرنا على الزيف السابق . هانحن أولاء قد انتقمنا من الصورة النظيفة البيضاء ، التى كان مجرد وجودها اتهاماً لنا بالنقص ، واتهاماً لنا بالهبوط عما يجب أن نكون عليه .. فلنحطم هذه الصورة الزائفة . فلنثبت لأنفسنا أننا — بكل ما نشتمل عليه من هبوط وضعف وخسة — طبيعيون جداً وعاديون جداً وأسوياء جداً .. ها نحن أولاء قد أثبتنا ذلك بالفعل ، بما صورناه من صور الهبوط .. ألا فلنعلن انتصارنا .. فلنعلن انتصار ما نشتمل عليه من سوءات ، بأن نضفى عليه صفة الشرعية . وصفة البطولة !

هذا هو « اللاشعور » الذى يوجه الفن الغربى والواقعية المنحرفة .

إنه يضفى صفة البطولة على لحظة الضعف البشرى — المزرية جداً فى بعض الأحيان — ليضلل نفسه عن حقيقة هبوطه المزرية . فبدلا من أن يتهم نفسه أو يتهمه أحد بالنقص ، ويطالب نفسه أو يطالبه أحد بالارتفاع ، وهو لا يريد الارتفاع أو لا يقـــدر عليه ، لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه .. بدلا من ذلك يقول إن الارتفاع خرافة والهبوط هو الحقيقة الواقعة السوية التى يقال عنها : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! »

أما الواقعية الإسلامية فهى لا تنكر أن حالات الهبوط هذه حقيقة واقعة .. ومع ذلك لا تمجدها ولا تسلط عليها الأضواء ، لأنها فى حقيقتها لحظات هبوط .

إن الواقعية الإسلامية لا تحب أن ترسم صورة مزورة للبشرية . صورة بيضاء من كل سوء ، نقية من كل شائبة ، سليمة من كل انحراف ! كلا ! فما هكذا يقول القرآن ذاته الذى يدعو للرفعة الدائمة والمحاولة الدائبة للتغلب على الضعف ! إنما يقول : « وخلق الإنسان ضعيفاً[1] » ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث[2] » ويقول : « خلق الإنسان من عجل[3] » « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . . إلا المصلين[4] » « إن الإنسان لظلوم كفار[5] » « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً[6] » « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه[7] » « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات[8] » « ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولا[9] » « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا[10] » « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[11] » .

وهى كلها آيات تصور « نقائص » الإنسان تصويرا صادقا بارعا عميقاً ، واقعيا إلى أقصى حدود الواقعية . . . ولكنها تصورها على وضعها الطبيعى

---

(١) سورة النساء [٢٨]
(٢) سورة آل عمران [١٤]
(٣) سورة الأنبياء [٣٧]
(٤) سورة المعارج [١٩ — ٢٢]
(٥) سورة إبراهيم [٣٤]
(٦) سورة الإسراء [٨٣]
(٧) سورة يونس [١٢]
(٨) سورة هود [١٠ — ١١]
(٩) سورة الإسراء [١١]
(١٠) سورة الكهف [٥٤]
(١١) سورة العلق [٦]

الحقيق ، وهى أنها نقائص ينبغى أن يرتفع عليها الإنسان . وهنا مفرق الطريق ..

إن الواقعية الإسلامية لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر . ولا تَزْوَرُّ عن تصوير هذا الشر فى أى تصرف من تصرفات الإنسان . ولكنها تقول عنه إنه شر . وتصوره على أنه خطأ لا ينبغى أن يكون .

ثم مرة أخرى . . . لا تزعم أن الإنسان خير كله ممحض من الشر . وإنما تعرف أنه خليط من هذا الاستعداد وذاك . وترسمه فى هذه اللحظة وتلك . ولكنها لا تسلط الأضواء على لحظة الهبوط ، وإنما على لحظة الإفاقة من ذلك الهبوط ! « والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ونعم أجر العاملين[١] »

* * *

الواقع الإسلامى هو الواقع الكبير . . لا الواقع المحدود الصغير . .

واقع الضرورة القاهرة وواقع الأشواق الطائرة .

كلاهما واقع فى حقيقة الإنسان، فلماذا نجسِّم الواقع الهابط ونغفل الواقع الرفيع ؟

هل نأخذ المسألة بالكم ؟ أن ذلك هو الغالب وهذا هو القليل ؟

« الواقع حقيقة مافى ذلك شك .

« ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك .. إنه حقيقة « الإنسانية » ..

« وندرة اللحظات التى يرتفع فيها البشر عن الواقع لاتعنى أنها غير موجودة ،

---

(١) سورة آل عمران [١٢٤ — ١٢٦]

ولا تبرر إغفالها من « واقع » الحياة . فما دامت تحدث بالفعل فلابد من تسجيلها والإشادة بها ، ووضعها موضعها الحق فى وزن الأمور .

« هل كل يوم يزهر النبات ؟ أليست لحظات معدودة من حياته هى التى تتفتح فيها الزهور ؟ ولكن من يقول إن ندرة تلك اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذى العذب والمنظر البهيج ؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات ، ولا تستمتع بذلك الجمال المتاح ؟ وكم تكسب وهى تترقب الزهور المتفتحة ، وتتطلع إليها فى لهفة ، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات ؟

« ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التى لاتتلبث ، ولايتضوع شذاها غير لحظات ؟

« كذلك « زهرات » المشاعر و « ثمرات » النفوس . قليلة . نعم . ولكنها فى قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل !

« . . . وجاء ماركس وصفيّه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد : «إن حقيقة العالم تنحصر فى ماديته» « إن وجود الناس هو الذى يحدد مشاعرهم ، وليست مشاعرهم هى التى تحدد وجودهم .. إن علاقات الإنتاج ووسائله هى التى تحدد الصفة النهائية للمجتمع ، وهى التى تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم » .

« وذلك واقع . . ولكنه واقع صغير !

« والواقع الأكبر الذى أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر فى الطعام والكساء والجنس — وهى المطالب الأساسية كما سماها — ولا يمكن أن تنحصر فى نطاق المادة . وأن كل ما أنتجته البشرية فى تاريخها الطويل ، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد ، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة ،

وتعبير عن الواقع البشرى الكبير . وأن الاقتصاد قد يكون « أساس » الحياة البشرية ، ولكن الأساس شىء والبنيان شىء آخر . فضلا عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية فى «أساسها » و إنما هى سيكلوجية أو روحية أو فكرية ، لا تقل توجيهاً للناس فى حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد .

« أما فرويد وعلم النفس التحليلى كله فيتتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل . ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة فى الطين . ثم يقول لك : انظر ! أليس هذا هو « الواقع » ؟ألست ترى معى البذرة الغارقة فى الطين ؟

« نعم هذه البذرة حقيقة . ولكن من يقول إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان ؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهج الألوان ؟ هل كل ذلك ليس حقيقة ، والحقيقة الواحدة هى البذرة والطين ؟

« ... وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة ، ولا إن الفن ينبغى أن يصورهم ملائكة . ولكن الواقعية الحقة ينبغى أن تشمل الواقع الكبير ، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة ، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض ؛ و إنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال ، والكمال .

« صراع الجسد حقيقة . غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة . ضعف الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة . ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان فى نفسه حين يحقق كيانه كإنسان . والفن ينبغى أن يشمل الواقع كله بلا تمييز . . الواقع الأكبر والأصدق فى التصوير .

« وما نعنى حين ندعو إلى « تطهير » الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط ، أو نلغى تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب . أو نصور الإنسان ملاكا بلا خطايا ولا أخطاء . كلا ! وإنما نعنى أن يكون الضوء مركزاً على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة .

« قصة همزات الشياطين لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول . إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة . وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج . ولكنها رويداً رويداً تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة ، تصرعها وتكتم أنفاسها . ويظل المؤلف يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب ، حتى يقع فى الخطيئة ويرتكب الفاحشة . . ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة ! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير . إنه يرسم لك لحظة الإفاقة . إنه ينهى القصة بمنظر التوبة . منظر الفتى وهو يتلمس فى ظلمة نفسه أضواء المغفرة . ثم يفتح الباب ليدخل منه النور : « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » . ثم يتركك والنور مسلط هناك ! [1] » .

* * *

ذلك موقف الواقعية الإسلامية من تصوير « الأبيض » و « الأسود » فى النفس الإنسانية . تصوير لحظة القوة ولحظة الضعف . . لحظة الارتفاع على الضرورة ولحظة الوقوع فى الضرورة .

أما موقفها من تصوير الصراع الاجتماعى والاقتصادى و « الطبق » وموقف « الإنسان » من هذه القوى المتصارعة . . فإنه يهتدى بالروح ذاتها التى اهتدى بها فى تصوير الأبيض والأسود فى نفس الإنسان .

(١) من كتاب « فى النفس والمجتمع » فصل « فوق الواقع » .

إن التفسير المادى للتاريخ ، بما يضخم من القوى المادية والاقتصادية ويصغر من قوى الإنسان إزاءها ، وبما يصغر من قيمة العقيدة ، وقيمة الأفكار والمثل ، والقيم الخلقية والروحية . . إنه كله حقيقة ! ولكنه حقيقة على المستوى الصغير المحدود ، وليس حقيقة على المستوى الكبير للإنسان !

إنه حقيقةُ هذا الجيل من البشرية فى الغرب . . وحقيقة كل جيل يقطع نفسه من سند القوة الكبرى ، فينقذف فى التيار ، يسير به إلى مصيره « المحتوم » دون إرادة منه ولا اختيار .

كل جيل من البشرية — وكل فرد — لايؤمن بالله والعقيدة ، ليس له إلامصير واحد . هو التضاؤل أمام كل القوى التى لايعصم منها إلا الإيمان بالله ، ولا يجعلها مسخرة للإنسان بدل أن يكون هو مسخراً لها إلا الإيمان بالله . حين ينقطع الإنسان عن سند القوة الكبرى تأكله الغيلان فى الأرض . غيلان الاقتصاد والمادة والمجتمع والدولة . . والآلة . . والقيم المعكوسة . . وحين يرتبط بهذه القوة الكبرى ويستمد قوته منها ، يقف لهذه الغيلان الطاغية فلا يجعلها تنال منه ، أو على الأقل يكون عنصراً إيجابيا فى الصراع معها ، ولايكون ضعيفا مسلوب الإرادة مقضياً عليه بالخضوع المطلق والتسليم .

وهذا الجيل من البشرية فى الغرب قد قطع صلته بالله والعقيدة . لم تعد العقيدة فى الله تحكم شيئاً من حياته الواقعة . لاتنظيماته الاقتصادية ولا الاجتماعية ولاالسياسية .. ولاسلوكه الفردى ولا الجماعى .. ولا قيمه الخلقية ولا الفكرية . . ومن ثم وقع فريسة للغيلان .

وهو لم يقع فريسة لها لأن هذه هى « حتمية » التطور . . ولكن لأنه وقف يواجهها بلاسلاح . فأخذت ترتطم به وتختبط ، حتى وصلته إلى ماهو فيه اليوم . . من رأسمالية فردية عاتية فى الغرب ، وجماعية طاغية فى الشرق .

وهو فى كلتيهما مستعبد لهذه القوة أو تلك ، لا يملك فى نفسه كيان « الإنسان » .

ولكن البشرية لم تكن هكذا أبد الدهر ! على النحو الذى يريد أن يفرضه هواة التفسير المادى للتاريخ على جميع التاريخ !

وإلا فما شأن الإسلام ؟ !

أية حتمية هى التى أخرجت الإسلام فى الجزيرة العربية فى ذلك الوقت من التاريخ وأخرجت الأمة الإسلامية إلى الوجود ؟

شعور العرب بضرورة تجمعهم فى أمة ، واحتشاد القوى لهذا التجمع المنشود ؟

فليكن ذلك . . .

كم أمة فى التاريخ تجمعت . . ثم لم تخرج للإنسانية مثلا ولا مبادىء ولا عقائد ولا أفكاراً متحققة فى عالم الواقع لا فى عالم المثال ؟

لقد تجمعت أمم كثيرة فى التاريخ من قبل ومن بعد ، واحتشدت طاقاتها لهذا التجمع . فأيها قدم للبشرية من تجمعه ذلك دستور حياة شامل كالذى قدمه الإسلام ؟

وأهم من ذلك . . أين كانت الضرورة « الحتمية » التى أخرجت هذا النظام على صورته تلك ، الفريدة فى تاريخ البشرية كله؟

أين كانت الحتمية فى القرن السابع الميلادى ، التى تؤدى إلى ظهور نظام « عالمى » يتحدث إلى الإنسانية كلها ، ويدعوها لمبادئه ومثله ؟ فى أى مكان على الأرض ، فضلا عن شبه الجزيرة الصحراوية البدوية فى ذلك الحين ؟

أين كانت الحتمية فى القرن السابع الميلادى التى تؤدى إلى توزيع المال بين الناس « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ؟ فى أى مكان فى الأرض فضلا عن الجزيرة العربية ؟

أين كانت الحتمية فى تحرير « الإنسان » من كل عبودية على الأرض ، ليعبد الله وحده ، متحررا ضميره من الخضوع لأى ثقل مادى أو معنوى يعوّق تحقيق كيانه الأسمى ، وينقص من قيمته كإنسان ؟

أين كانت الحتمية فى تحرير المرأة من ظلم الجاهلية وعدوانها وافتئاتها على كيانها ، لتعطيها كيانا إنسانيا يتصل مباشرة بالله ، ويمارس فى واقع الأرض حرية الملك وحرية التصرف المباشر والأهلية الكاملة فى كل نشاط حيوى نظيف ، وحرية الزواج ، وحرية الشعور بعواطف الإنسان ؟

أين كانت الحتمية فى تحرير الرقيق من وضعه السيء ومنحه كرامة الإنسان ؟ وجعل قانونه الذى يتحاكم إليه هو شريعة الله لا إرادة السيد كما كان الحال مع كل رقيق الأرض فى ذلك الزمان . . شأنه شأن الأحرار سواء ؟

أين الحتمية فى كل ذلك ، والإسلام هو الذى أعطى هذه الكرامات كلها متطوعا دون قهر ، ودون أن يطلب أحد من أصحاب هذه الحقوق حقوقهم ، أو يثور لها ، أو يصطدم « بالمالكين » لاستخلاصها من أيديهم ؟

وما التغير الذى حدث فى وسائل الإنتاج فى الجزيرة العربية بل فى العالم كله فى ذلك الوقت ، فأدى بطريقة حتمية — على رأى ماركس وإنجلز — إلى تلك الثورة التحريرية الكبرى التى لا مثيل لها فى التاريخ ؟

كلا ! لا حتميات هناك ، ولا تفسير ماديا للتاريخ !

إنما هو الله — سبحانه — المنعم الوهاب ، وهب للناس هذه الدفعة التحريرية الكبرى ، تفضلا منه ومنة ، لا عن قهر ولا اضطرار .

وحين وهبها لهم ، وأمدهم بدستورهم الذى يسيرون عليه ، قاموا — بموجب إيمانهم بالله ودستوره — ينشئون هم نظمهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ،

لا مقهورين عليها ، وإنما منشئين لها من واقع إيمانهم ؛ فتنتقل الفكرة الإيمانية من وجدان القلب إلى واقع الأرض ، وتصبح حقيقة واقعة فى التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، والسلوك الفردى والجماعى ، والسلوك الخلقى ، طليقة من القهر والحتمية ؛ ويصبح الإنسان قوة فاعلة موجهة مريدة ، تنشىء هى الأوضاع ولا تخضع للأوضاع ؛ تضع تفسيرها هى للتاريخ والحياة ، وتلزم بهما التاريخ والحياة ، ويصبح الإنسان هو قدر الله الذى يفعل فى الأرض ما يشاؤه الله .

تلك حقيقة قد حدثت بالفعل . .

حقيقة لا يستطيع أن يفسرها التفسير المادى للتاريخ ، الذى يفسر التاريخ بمعزل عن الله والعقيدة ، وبمعزل عن عالم الروح .

ومن أجل ذلك لا تنفى الفكرة الإسلامية الله من واقع البشرية ، ولا تنفى واقع الروح .

* * *

ومع ذلك فهى لا تصور واقع البشر بعين الخيال الحالم الغافل عن واقع الأشياء .

لا تتصور الناس أبطالا كلهم يصارعون قوى المادة وقوى الاقتصاد وقوى « التطور » ، فيصرعونها بعصا سحرية اسمها العقيدة .

كلا ! فالإسلام يعرف جيدا واقع الحياة البشرية .

يعرف أن الناس يضعفون عن الصراع لأنه مهمة شاقة ثقيلة عظيمة التكاليف فى النفس والمال والمتاع : « لو كان عرضا قريبا وسفراً قاصدا لاتبعوك . ولكن بعدت عليهم الشقة »(١) « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين»(٢) « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين »(٣) .

---

(١) سورة التوبة [٤٢] . (٢) سورة البقرة [١٥٥] .
(٣) سورة محمد [٣١] .

وليس كل الناس يصبر على هذا البلاء . . . كثير منهم يؤثرون السلامة فيخضعون . يخضعون للقوى المسيطرة فى المجتمع ، فيلغون كيان أنفسهم ، ويتنازلون عن وجودهم ، ويصبحون هملا من القطيع .

وحين ذلك يصدق التفسير المادى للتاريخ !

ولكنه — رغم ذلك — لا يصبح ضرورة حتمية !

فليس من الحتم الضرورى أن يضعف الناس عن الصراع فى كل مرة وفى كل جيل !

والذى يحدث عمليا أنهم يهبّون بين الحين والحين حين يستيقظ فى كيانهم كيان « الإنسان » ، ويرتفعون على واقعهم الصغير بكل حتمياته وجبرياته . . ويحققون إنسانيتهم على درجات متفاوتة من الارتفاع .

ثم هم حين يضعفون تكون الحقيقة أنهم هم قد ضعفوا ! ولا تكون الحقيقة أن حتمية التطور قد أنشأت أوضاعا — على رأى ماركس وإنجلز — مستقلة عن إرادة الناس !

إن « الناس » موجودون دائما فى كل حالة . . موجودون على مستواهم الأعلى فينشئون هم أوضاعهم بموجب مايؤمنون به من عقائد ومثل . أوموجودون على مستواهم الأدنى فتغلبهم الأوضاع وتجرفهم فى الطريق . ولكن لا يحدث فى أية حالة أن يقوم تطور مستقلا عن كيان الناس — أين يقوم إذن ؟ ! — ثم يفرض نفسه فرضا على الناس بحكم حتميته وجبريته المستقلة عن إرادة الناس !!

وهذا هو التصوير « الواقعى » لحياة البشرية . .

التصوير الواقعى لكل ما يحدث فى حياة البشر من تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية . تصوير لا يُغْفِلُ مكان الفرد فى حياة البشرية ولا يغفل

واقع الجماعة . ولا يَغْفَلُ عن نقط الضعف ونقط القوة فى حياة الإنسان ، ولـكنه يصورها من منبعها الحقيقى ، من داخل النفس الإنسانية المتفاعلة مع الـكون والحياة ، لا مما يسمى « الواقع المادى » الذى يفرض نفسه على الإنسان والحياة .

وهذا هو التـكريم الحقيقى للإنسان ، حتى وهو فى لحظات ضعفه وعجزه وهبوطه وانحرافه مع التيار . لأنه يصور الواقع من خلال وجوده الإنسانى ، و يظلل هذا الواقع بما يعتمل فى نفسه من ألوان المشاعر والأفكار .

وهذا هو الخليق بخليفة الله . . التفسير « الإنسانى » لحياة الإنسان !

* * *

كلا ! لا يرسم الفن الإسلامى صورة مزورة للبشرية . بل صورة واقعية عميقة الواقعية . صورة تشمل الإنسان كله فى جميع حالاته وجميع آفاقه .

ولـكنها لا تسلط النور على الشر وتجعل منه فضيلة .

و لا تسلط النور على الضعف وتجعل منه بطولة .

و لا تغفل الجوانب العليا من كيان الإنسان .

ثم هى لا تأخذ واقع جيل معين ، ملىء بالشذوذ والانحراف ، جيل طحنته الصراعات الاقتصادية والاجتماعية فأيأسته من نفسه ، وحولته عن الإيمان بما يشتمل عليه من عناصر الرفعة ، ومرغته فى الوحل ، وأخضعته لـكل ضرورة مذلة . . ثم تقول إن هذا واقع البشرية !

كلا ! إنه واقع جيل معين من أجيال البشرية .

والواقعية الإسلامية على استعداد لأن ترسمه بأمانة كاملة ، بكل ما فيه من نقائص وضعف وخسة وهبوط . . ولـكن على هذا الشرط : على أنها نقائص

وضعف وخسة وهبوط . لا على أنها الأمر الواقع الذى لا مفر منه ولا أمل فى الارتفاع عليه !

إن أمانة الإسلام للبشرية فى مجموعها ، بجميع أجيالها ، لهى التى تفرض عليه هذا الموقف إزاء هذا الجيل المنحرف وكل جيل . .

إنها تصور الواقع الحادث . . ولكنها تصوره مقيسا إلى ما ينبغى أن يكون عليه البشر فى حياتهم السوية .

و « ماينبغى » أن يكون عليه البشر ليس صورة خيالية مزورة . فهى تحمل فى أطوائها عناصر ضعفها بجانب عناصر قوتها . . ولكن المهم أنها تحمل عناصر القوة ، وتسلط النور على هذه العناصر ، لأنها هى الحقيقة بالإشادة والتسجيل .

والإسلام يحمل فى فكرته وقائعه التى حدثت بالفعل فى واقع الأرض . . يحمل صورة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وصورة أبى بكر وعمر وخالد وعلى وعمر بن عبد العزيز . . وصلاح الدين . . وكثيرين غيرهم من « وقائع » التاريخ الإسلامى وبطولاته . يحملهم معه صوراً للواقع الذى يمكن أن يصل إليه البشر بالتوجيه الصحيح . . ويقيس إليهم واقع أى جيل ، ليعطيه وزنه الحق فى ميزان القيم البشرية . وبهذا الوزن ذاته يضع الناس فى لوحته الفنية .. بحسب ما يستحقون . . بحسب ما يحققون من كيانهم الإنسانى ، وما يجاهدون لإثبات رفعة الإنسان وإشراقه ، وإيجابيته الفعالة فى هذه الحياة .

وليس معنى الإيجابية الفعالة فى التصور الإسلامى أن تنتصر الفضيلة فى كل صراع : سواء الفضيلة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الخلقية.. أو ينتصر أصحاب العقيدة المنافحون عنها .. أو ينتصر الخير فى أية صورة من صوره .

كلا ! فما هكذا يصور الإسلام الواقع .

فقد ينهزم الخير مرة ومرة ومرة . . ويكون هناك سبب وحكمة فى كل مرة .

قد تـكون هناك فتنة جائحة تجتاح الحق والباطل : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منـكم خاصة »[(١)] .

وقد يكون الله يريد أن يفتن الطغاة البغاة ، فييسر لهم النصر على الحق : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة »[(٢)] .

وقد يكون الله يريد أن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء على سلامة وتمـكن واستعداد : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منـكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا و يمحق الـكافرين »[(٣)] .

وقد يكون غير ذلك من الأسباب ما يكون . . ولـكن التصور الإسلامى يؤمن بأن سنة الله فى نصر الحق وأصحابه سنة ماضية لاتتبدل . و إنما أعمار الأفراد ليست هى المقياس . والجولة العارضة ليست هى الجولة الأخيرة . . وواجب « الإنسان » أن يؤدى دوره المطلوب منه فى عمره المحدود ، ثم تسير السنة الماضية فى طريقها ، و يتحقق النصر فى موعده الموعود ، وتظل القلوب فى كل جيل معلقة بهذا الوعد لا تيأس من روح الله .

وهكذا يشمل التصور الإسلامى صفحة البشرية كلها ، فى جميع حلقاتها وأجيالها ، مترابطة متشابكة متداخلة فى اللوحة الـكبيرة ، حية متحركة هادفة صحيحة الدلالة فى جميع الحالات .

ومن ثم لا يكون مجاوزاً للواقع وهو يرسم صوره الفنية ، ولا يـكون متخذاً مقاييس خيالية يقيس بها الناس والأوضاع والأشياء .

---

(١) سورة الأنفال [٢٥] . (٢) سورة النحل [٢٥] .
(٣) سورة آل عمران [١٣٩ — ١٤٢] .

العواطف البشرية فى التصور الإسلامى

الجانب الوجدانى من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب فى موضوع الفنون.

فعنصر « التأثير » هو العنصر البارز فى الفن . وأقرب وسائل التأثير هو تصوير الوجدانات البشرية فى صورة جميلة موحية تؤثر فى الوجدان .

ومع أن الفنون — وخاصة فى موجتها « الواقعية » الحاضرة — تتخذ من كل شيء موضوعاً للتعبير الفنى ، إلا أن وجدانات البشر ما تزال رغم ذلك هى الموضوع الغالب على الفن فى كل لغة وفى كل جيل . وهذا أمر طبيعى بالنسبة للفن . وإلا انقلب علماً أو فلسفة أو أى لون آخر من ألوان التعبير الخارجة عن نطاق الفنون .

ليس الموضوع فى ذاته هو الذى يحدد نوع العمل إن كان فنياً أو غير فنى ، وإنما الذى يحدده هو طريقة تناول الموضوع . فحين يتناوله الكاتب ببرود الذهن — مهما يكن الذهن صافياً ومشرقاً ولماحاً — فإنه لا يكون فناً — ولو كان موضوعاً متعلقاً بالعاطفة — لأنه يخاطب الذهن وحده ولا يصل إلى الوجدان . وعلى العكس من ذلك يمكن أن يدخل الموضوع فى دائرة الفن — ولو كان عن مادة جامدة مغرقة فى الجمود — إذا استطاع الكاتب أن ينفعل هو به أولا ، ثم ينقل ذلك الانفعال بصورة مؤثرة تصل إلى وجدان الآخرين .

والذى ينبغى أن ينقله إلينا الفن فى كل موضوع يتناوله هو ذلك الجانب الوجدانى الحىّ المنفعل المؤثر . . لا غيره من جوانب الموضوع . ويدع للعلم والفلسفة والبحث الذهنى كل جانب تجريدى ، وكل جانب تسجيلى أو إخبارى بحت ،

لا تدخل فيه « النفس » التى انفعلت به ثم رغبت فى نقل انفعالها للآخرين .

ومن ثم فإن المذاهب التى تنحو نحواً علمياً خالصاً فى الفن ، فتسجل « الواقع » كما تراه العين الذهنية الباردة ، أو كما تراه « الكاميرا » التى لا يعنيها ماتنقل من الصور ، ولا تنفعل بما تلتقط من الأضواء والظلال ، أو كما يراه المحلل النفسانى فى المعمل .. حالة تُدْرَسُ لا تجربة شعورية تُعاش وتفرز لها النفس إفرازات شتى وهى تهضمها وتمثلها . . هذه المذاهب تنتج فناً رديئاً مهما يكن فيه من دقة وبراعة وجهد مبذول ، لأنها تنقص العنصر الأول من عناصر الفن : وهو حرارة الوجدان .

وقد كانت مثل هذه المذاهب « الواقعية » و « الطبيعية » وغيرها نكسة فى عالم الفن متمشية مع النكسة الروحية والنفسية الشاملة التى أصابت أوربا فى القرنين السابقين ، بسبب نفرتها المحمومة من كل شىء يحلق فى الخيال ويتخذ طابع الانفعال لغير المنظور (فيما وراء الطبيعة) ورغبتها المحمومة كذلك فى أن تلمس « الواقع » كما « هو » بغير تزويق أو إضافة أو أضواء أو ظلال !

وهى نكسة .. لأنها تلغى واقع « النفس » كله لتثبت فقط واقع « المادة » . الواقع الذى لا تدخل النفس البشرية فى تقديره ولا تقويمه ، وإنما تسجله وتقدره « الآلات » العلمية والأدوات ، وتَحَوَّلُ العين البشرية من ثم إلى مجرد آلة علمية للالتقاط والتسجيل ، لا لتبدى رأيها أو تدخل بذاتها فى عملية الالتقاط والتسجيل!

وهى نكسة كذلك لأنها تلغى قيمة « الإنسان » وتصغره إلى جانب المادة .. متأثرة بالنظرة المادية الحيوانية للإنسان ، التى لا تجعل له قيمة أعلى من قيمة المادة ، بل بالعكس قيمة أقل ، لأن المادة تؤثر فى الإنسان تأثيراً « حتمياً » يخضع له أراد أم لم يرد ، فى حين لا يؤثر هو فى المادة إلا برضاها ورغبتها ! وحسب قوانينها الذاتية ذات الطابع الحتمى والجبروت !

والفن « الإنسانى » ينبغى أن يفيق من هذه النكسة . . ينبغى أن يرد للنفس الإنسانية اعتبارها .. اعتبارها الذاتى بوصفها قيمة كونية كبرى . واعتبارها إزاء المادة بوصفها شيئاً مسخَّراً للإنسان لا مسخِّراً له !!

وحين يُرَدُّ للنفس الإنسانية اعتبارها فإن « القيم » تعود فتتخذ وزنها من خلال النفس . ولا يكون لها واقع إلا واقعها فى داخل النفس . .

وهذه حقيقة . . حقيقة ينبغى أن تكون مقررة فى الأذهان كالحقائق « العلمية » التى يتعبدها الناس فى هذا الزمان . فليس شىء موجوداً أصلا — بالنسبة للإنسان — إلا إذا وجد فى النفس وانفعلت به وتحركت مستجيبة له .

خذ هذا المنظر « الجميل » . . إنك تقول عنه إنه جميل حين ينفعل به حسك و يتحرك له وجدانك . حين « تحس » أنت بوجوده فى داخل نفسك . و إلا فهو غير جميل ، أو غير موجود على الإطلاق فى عالمك النفسى .

وفى الجانب الآخر ، خذ هذه الفكرة التى تملأ مشاعرك وتحرك وجدانك . إنها « واقع » نفسى ضخم بالنسبة إليك ، تعيشه وتتفاعل معه وتنفعل به . و يؤثر فى شعورك وسلوكك وعملك . ومن ثم فهو هو « الواقع » بالنسبة إليك ، ولو لم يبصره أحد غيرك ولم يكن له عند غيرك وجود .

والمسألة — بعد — ليست فوضى ! فلن نعود إلى الفلسفة المثالية الجوفاء التى تنكر الوجود الذاتى للعالم المادى المحسوس . . . و إنما هو مجرد رد الاعتبار للنفس الإنسانية ، ورؤية العالم المادى المحسوس — الذى لا شك فى وجوده الذاتى — من خلال هذه النفس ، لأنه — فى الواقع — لا يؤثر فى حياة الناس إلا من خلال تأثرهم النفسى به وتأثرهم الوجدانى . . ورد الاعتبار كذلك

للوجدان البشرى ، لأن الواقع أنه لا يحدث تغيّر فى حياة الناس المادية إلا من خلال الوجود الإنسانى الشامل ، بما فيه من طاقات ، وما فيه من رغبات .

* * *

وإذ قررنا قيمة الوجدان البشرى فى الحياة الإنسانية عامة وفى عالم الفنون خاصة . . نعود إلى الحديث عن الوجدانات البشرية المختلفة ، والمساحة التى تشغلها فى رقعة الفن .

إن التناسق فى لوحة الحياة البشرية يقتضى أن تكون الوجدانات التى يصورها الفن شاملة لكل العواطف البشرية ، فى مختلف حالاتها ومجالاتها ، لا مقصورة على لون معين من ألوان الوجدان . وذلك هو الذى يليق بالواقعية الحقة التى ينبغى أن يمارسها الفن فى تصويره للحياة[1] .

ولكن الذى يطلع على الإنتاج العالمى فى الفن ، وخاصة الحديث منه ، ويطلع على الأدب العربى المزور الذى يعيش فى هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولا قواعد ولا ذاتية مستقلة ولا منهج مرسوم ، يرى أن لونا واحداً من العواطف البشرية هو الغالب على هذه الفنون كلها . . وهو عواطف الجنس .

وما من شك فى أن عواطف الجنس أصيلة عميقة فى الكيان البشرى ، وأنها طاقة من أكبر الطاقات الموجِّهة لمشاعر الناس وسلوكهم . . ولكن . . من يقول إنها الدافع الأوحد المتفرد بالتأثير والتوجيه ؟

* * *

الجنس — بجميع أحواله وجميع مستوياته — حقيقة عميقة فى حياة البشر ،

---

(١) انظر الكلام عن التناسق في الفصل التالى : « الجمال فى التصور الإسلامى »

بل فى كل كيان الحياة : «سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون[1] »

فالأزواج .. الذكر والأنثى . . ليست حقيقة بشرية فقط ، بل هى موجودة أيضاً فى عالم الحيوان وعالم النبات . بل يقول العلم الحديث إنها موجودة كذلك فى عالم « المادة » فى بناء الذرة من بروتون و إلكترون ، متقابلين فى الخلقة ، متجاذبين على الدوام ، ليحفظا بناء الخلية « الجامدة » وتوازنها ، كما يحفظ الجنسان توازن الحياة فى عالم النبات والحيوان والإنسان .

بل يقول العلم أغرب من ذلك وأعجب : إن فى ذرة كل عنصر من العناصر نواة ثابتة فى مركزها وعدداً من الإلكترونات يدور حولها فى حلقات متوالية الأبعاد بالنسبة لمركز النواة ، وإن الحلقة الأخيرة من هذه الحلقات تكون دائماً ناقصة . فإذا كانت كل حلقة مكونة من ثمانية إلكترونات مثلا ، فقد تكون الحلقة الأخيرة إلكترونين اثنين أو ثلاثة ، وإن أى عنصر لا يتحد كيميائيا إلا مع العنصر الذى يكمل له حلقته الأخيرة الناقصة بحلقته هو الناقصة . . تماما كما يفعل الأزواج فى عالم الأحياء ! !

دقة معجزة فى الجامد والحىّ على السواء !

ومع ذلك فالجنس — على كل عمقه فى كيان الحياة — ليس هو الحقيقة الوحيدة ولا الحقيقة الغالبة فى البناء !

فينبغى أولا أن نسأل : هل هو وسيلة فى كيان الحياة أو غاية . وما مساحته الحقيقية فى ذلك الكيان .

كل حقائق الحياة تشير إلى أنه وسيلة لا غاية .

---

(١) سورة يس [٣٦]

فهو فى بناء الذرة وسيلة للتماسك . والتماسك هو الغاية . أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر ، هى تكوين الكون كله بما فيه من طاقات وكائنات .

وهو فى النبات والحيوان وسيلة لحفظ النوع وحفظ النوع هو الغاية ، أو هو بدوره وسيلة لغاية أكبر ، هى تنويع الحياة فى الكون ، وتحقيق القدرة الخلاقة القادرة .

وهو فى الإنسان كذلك وسيلة لحفظ النوع وترقيته ، وليس غاية فى ذاته .

كل مافى الأمر أن الإنسان قد وُهب قوة واعية مدركة ، تجعله يعيش كل أهدافه ووسائله بوعيه ووجدانه جميعاً ، فتتسع مساحتها فى نفسه وتتعمق ، وتصبح أكبر من مثيلاتها فى عالم الجماد والنبات والحيوان .

ومن ثم يأخذ الجنس مساحة واسعة فى النفس الإنسانية لا يأخذها — مثلا — فى عالم الحيوان .

فبينما ينحصر فى عالم الحيوان فى العملية الجنسية ذاتها ، بمقدمات بسيطة ، عنيفة فى غالب الأحيان وفظة ، وينتهى عند الأنثى بالإخصاب والحمل ، وعند الذكر بالصيام الكامل عن كل نشاط جنسى حتى يحل الموسم الجديد . . إذا هو فى عالم الإنسان مشاعر كثيرة وعواطف ، وفنون من الغزل ، وألوان من المشاغل . . يدخل فيه شوق الجنس ، ومودة الإلف ، ورغبة القرب ، والتفكير فى وسائل الجذب ، والإحساس بالجمال . . كما يدخل فيه التفكير فى نتائج اللقاء . . التفكير فى الأسرة والأبناء والأعباء . . وتنظيم المجتمع الناشىء من هذه العلاقة ، تنظيما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، ووضع القواعد النظرية والوسائل العملية لهذا التنظيم .

نعم . . يأخذ مساحة واسعة فى النفس البشرية . ولكنه فى أية حالة

من حالاته لاينقلب — فى النفس السوية — عن وضعه الطبيعى . لاينقلب من كونه وسيلة إلى أن يكون غاية !

ثم إنه — فى النفس السوية — لايأخذ مساحته الواسعة لأنه يطغى على مساحات أخرى مخصصة لغيره من المشاعر ، ولكن لأن النفس الإنسانية هى هكذا واسعة شاملة فسيحة ، ومن ثم تتسع لكل المشاعر على نطاق واسع ، دون أن يطغى شىء منها على شىء ، ودون أن يختل تناسقها الأخير فى صفحة النفس .

ثم إنه — مرة أخرى — حين يأخذ مساحة واسعة فى النفس — السوية — لا يفسد تكوينها الطبيعى المترابط . لاينفصل بذاته عن بقية المشاعر . لايتحدد ولايتحيز بوصفه جنساً خالصاً لاعلاقة له ببقية النفس . فذلك مستحيل فى النفس السوية المترابطة ، التى يلتقى كل جزء فيها بكل جزء وكل هدف ببقية الأهداف. لا تنفصل الروح عن الجسم عن العقل فى باطن النفس ، ولا تنفصل الأهداف الاجتماعية عن الأهداف الاقتصادية عن الأهداف الفكرية والروحية والسيكلوجية فى واقع الحياة . ومن ثم لا يكون هناك جنس خالص فى أية لحظة من لحظات الحياة[1] .

ذلك هو الوضع الحقيقى لمشاعر الجنس .

الوضع الذى لا تفرضه « الأخلاق » ولا يفرضه « الدين » . ولكن تفرضه الحقيقة الواقعة المجردة من كل اعتبار .

و « الواقعية » الصادقة ينبغى أن تعالج الأمر على حقيقته . فهى ليست مأذونة أن تخدع الناس عن الواقع ، أو تتخيله كما يتراءى لها وتصوره على هواها .

---

(١) انظر كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصول « تربية الروح » و « تربية العقل » و « تربية الجسم » .

نعم . توجد حقيقة « واقعة » فى حياة البشر : أنهم كثيراً ما ينحرفون عن طبيعتهم السوية ، فيضخمون جانباً من جوانب وجودهم على حساب بقية العناصر المكونة لهذا الوجود . يضخمون مثلا جانب الجنس ، حتى يبدو كأنه هدف فى ذاته ، وكأنه الشغل الشاغل والهم المقعد المقيم .

نعم . هذه حقيقة . ولكنها حقيقة منحرفة . والواقعية الصادقة ينبغى أن تصورها . ولكن تصورها على حقيقتها . على أنها انحراف !

ومع ذلك ففى داخل إطار الجنس ذاته — بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى كلها — لا يكون الجنس لوناً واحداً ولا درجة واحدة .

« هناك الشهوة العارمة التى تتمثل فى الجسد الهائج والجوارح الظامئة ، والعيون التى تطل منها الرغبة المجنونة .

« وهناك الشهوة الهادئة المتدبرة ، التى تعد العدة فى ترتيب وأناة ، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال .

« وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التى تنبع من الجسد ، ولكنها تمر فى طريقها على القلب ، فيصفيها من بعض ما بها من «العكار» ويعطيها قسطاً من «العاطفة» تمتزج بصيحة الجسد الملهوف .

« وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التى تنبع من القلب ، ولكنها قد تمر فى طريقها على الجسد ، فيعطيها بعض لهيبه المحرق ، وقد يخلط بها بعض العكار ، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء .

« وهناك إشراقة الروح الحالمة ، قد صفّيت من العكار كله ، وصارت صفاء مطلقا لا يعرف الجسد ، وإشعاعة لا تعرف القيود . تعشق الجمال خالصاً حتى من الإطار الذى يُصبّ فيه !

« وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ ، ولا يقدر عليها التعبير !

« وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس ، تشترك فى الأصل ، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف[١] »

فأى مبرر من عالم الواقع ، يبرر تصوير مشاعر الجنس كلها على أنها نهم حيوانى مسعور ، كذلك الذى يطفح به القصص الحديث فى العالم كله ، والقصص العربى الممسوخ المدخول ؟

***

والجنس فى نظر الإسلام حقيقة مهمة عميقة أصيلة .

وقد مرت بنا الإشارة القرآنية إلى « الأزواج » المكونة لبنية الكون « مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » . وفى القرآن إشارات أخرى كثيرة تتعلق بحقيقة الجنس :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة[٢] »

وهذا النص يستحق وقفة عند قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » وقوله : « مودة ورحمة » .

السكن — بكل ما يوحيه من هدوء وسكون وطمأنينة واستقرار وراحة — هو الهدف من خلق « الأزواج » فى عالم الإنسان . إنه ليس مشغلة الفكر والبال . ليس التعب والعذاب والقلق والاضطراب . ليس اللهفة الدائمة التى لا ترتوى والظمأ الذى لا يهدأ . ليس التطلع الدائم الذى يستنفد الطاقة ويورث الخبال . وإنما هو السكن . . هو الهدوء والراحة . . هو الاستقرار

(١) من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .
(٢) سورة الروم [٢١]

الذى يمكّن الإنسان من تحقيق أهداف حياته ، ويقوّى على أداء هذه الأهداف .

والعلاقة بين الجنسين هى المودة والرحمة . . الرحمة الندية والأنس اللطيف الودود . . فى هذا الجو الراضى المشرق الذى يكوّن شِقّى النفس الواحدة المتوادين المتراحمين : « خلق لكم من أنفسكم أزواجا » .

وفى نص آخر لون من العلاقة مكمل لذلك : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[1] »

« ففى هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح فى آن . فاللباس ألصق شىء ببدن الإنسان . وهو الستر الذى يستتر به ، وهو فى الوقت ذاته مفصل على قده لا ينقص ولا يزيد . والرجل والمرأة ألصق شىء بعضهما ببعض : يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفى لحظة يذوب كل منهما فى الآخر فلا تعرف لهما حدود . وهما أبداً يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذى يشبه اتحاد اللباس بلابسه .

« ثم هما ستر ، كل واحد للآخر . فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة . وهما على الدوام ستر روحى ونفسى . فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شىء فتنهبه الأفواه والعيون . وهما كذلك وقاية تغنى كلا منهما عن الفاحشة وأعمال السوء ، كما يقى الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير .

« وهما بعد ذلك كاللباس فى تفصيله مضبوطا على القد . يلبسه صاحبه فيستريح إليه ، ويتحرك نشيطاً فى محيطه ، ويكتسب به زينة وجمالا تعجب صاحبها

---

(١) سورة البقرة [١٨٧] .

وتعجب الناظرين . فليس أبدع من تصوير هذه المعانى كلها فى تشبيه واحد شامل عميق[١] »

وفى نص ثالث جانب آخر من هذه العلاقة : « نساؤكم حرث لكم[٢] »

وهنا يذكر الغاية من التزاوج وهى النسل . ويستعير له من عالم النبات صورة الحرث والإنبات ، فهى كلها حياة ذات وشائج قربى بعضها من بعض !

ومن ذلك تكتمل صورة العلاقة بين الزوجين ، الذكر والأنثى ، فى تصور الإسلام .

* * *

ولا يغفل الإسلام عما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك . ولكنه يقيسها بمقياسه الدائم الذى يقيس به كل شىء : فما سار مع الناموس ، ناموس الحياة والكون ، فهو صالح وهو صواب . وما خالف هذا الناموس فهو خطأ وهو عمل غير صالح .

إنه لا ينكر الجنس ، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار . لأن منهجه الذى يسير عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها ، نظيفة وفى معرض النور ، لا مستقذرة ولا مختلسة فى الظلام .

إن الله هو خالق الفطرة ، بكل ما تشتمل عليه من ميول ودوافع وطاقات ، وقد خلقها لحكمة وغاية ، لتؤدى دورها المرسوم لها فى بنية الكون ونظامه ، لا لتُكبت ويقطع عليها الطريق .

ولكن الله فى الوقت ذاته يطلب من هذه الفطرة أن ترتفع وتتهذب ، لأن هدف الوجود كله — كما يعبّر عنه الإسلام وكما تقرره كل حقائق الوجود —

(١) من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »
(٢) سورة البقرة [٢٢٣]

ليس مجرد استمرار الحياة ، ولكن رفعها وتجميلها ، والوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال .

ذلك ناموس الكون الأكبر. وهو كذلك الناموس الذى يقيس به الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان .

فكل شعور صاعد ، وعمل صاعد ، وفكرة صاعدة . . . فهى سائرة مع الإسلام فى طريقه .

وكل شعور هابط ، وعمل هابط ، وفكرة هابطة . . فهى منحرفة ضالة عن الطريق .

ومشاعر الجنس ككل شىء آخر فى الناموس الكبير .

فكل ما يؤدى منها إلى الصعود والرفعة . كل مايؤدى إلى القوة والتماسك . كل ما يؤدى إلى التوازن . كل ما يؤدى إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس وطلاقة الأرواح . . فهو جميل ، ومباح ، ومطلوب .

وكل ما يؤدى إلى الهبوط والنكسة إلى عالم الحيوان ، والضعف والانحلال والتفكك ، والانحراف الذى يُفقِدُ التوازن ، وغلظ المشاعر وعرامة الشهوة التى تخنق طلاقة الروح . . فهو قبيح ، ومنكر ، وحرام .

وليس ذلك حكما « خلقيا » بالمعنى الضيق المحدود المتعارف عليه فى حدود الأرض وما عليها من الناس . فالأخلاق فى الإسلام لا تنحصر فى هذه الحدود . وإنما هى أوسع من ذلك جدا وأعمق فى بنية الكون . إنها جزء من الناموس الكبير الذى يحكم الكون والحياة ، وليست شيئا منفصلا عنه ، ولا مفصلا على قد الإنسان وحده . فالإنسان ذاته جزء من بنية الكون ، يسير معه على ناموسه الشامل المحيط .

ليست الأخلاق صناعة « محلية » فى الأرض، تحدد الأرض قيمها ومواصفاتها. ولا صناعة « بشرية » تتقلب مقاييسها بتقلب أهواء البشر وأحوالهم وتطور أفكارهم . وإنما هى صناعة كونية فطرها فاطر الكون والحياة والإنسان . وهى تلتقى مع الكون فى فطرته الشاملة : فطرة التناسق والتوازن والجمال[١] .

ومشاعر الجنس — ككل شىء فى حياة الإنسان — تحكمها الأخلاق الإسلامية بهذا المفهوم الشامل ، المستمد من ناموس الوجود .

فالإسلام لا يسير على نهج خاص فى المسائل الجنسية ، وعلى نهج غيره فى بقية الأمور . وإنما يسير فى المسائل كلها على أساس نظرته الموحدة المتمشية مع الناموس الكبير .

« إن الله كتب الإحسان على كل شىء . . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »[٢] !

والإحسان المقصود هنا هو جعل الشىء حسنا . . . أى الجمال . . . جمال الأداء وجمال الإحساس وجمال التفكير . . الجمال فى كل شىء ، حتى فى ذبح الذبيحة وقتل القتيل[٣] .

والإحسان فى أمور الجنس ليس إلا واحدا من نواحى الإحسان الكثيرة التى يطلبها الإسلام فى القول والفعل والشعور .

وهو حين يشترط النظافة فى أمور الجنس ، فكما يشترطها فى التعامل المالى ، والتعامل الاجتماعى ، والتعامل السياسى ، والتعامل الدولى ، وتعامل الإنسان مع ربه وتعامله مع نفسه :

(١) انظر الفصل التالى « الجمال فى التصور الإسلامى » .
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة .
(٣) اقرأ فصل « وليرح ذبيحته » فى كتاب قبسات من الرسول .

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون — إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون — والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون »[١] .

قاعدة واحدة ، تشمل كل شئون الحياة . النظافة فى الفكر والعمل والشعور . نظافة فى الصلاة ، ونظافة فى اللسان . ونظافة فى المال . ونظافة فى الجنس . ونظافة فى التعامل مع الناس فى رعاية الأمانة وحفظ العهد . . ومانظافة الجنس إلا واحدة من صنوف النظافة التى يجب أن يعيش فى جوها المسلم المؤمن الذى يتعامل فى حسه مع الله .

* * *

وليس مؤدى ذلك كله تحريم مشاعر الجنس . فهى ليست قذرة فى ذاتها حتى تستبعد فى مجال النظافات ، وقد مرت بنا الشواهد الكثيرة من الآيات والأحاديث عن نظافة الجنس فى حس الإسلام .

وليس مؤداه كذلك ألا يتحدث الإنسان عن الجنس أو يحس به إلا فى داخل علاقة الزواج . فالناس لايولدون متزوجين . وإنما تسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له الطريق .

وهذه « العواطف » ليست حراما فى نظر الإسلام .

عواطف الإعجاب والحب ، وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك .

وإنما الحكم عليها هو الحكم على كل عمل آخر وكل شعور . . الحكم المستمد من الناموس :

(١) سورة المؤمنون [١ — ١١] .

هل تؤدى الدور الذى يتفق مع فطرة الكون ؟ أم تنحرف عن الطريق ؟

فأما إن كانت هذه العواطف — وهى فطرية فى صميم الخلقة — تهدف إلى تحقيق هدف الحياة ؛ تهدف إلى ارتباط شقى الإنسانية فى علاقة نظيفة مثمرة منتجة ، تهدف إلى تقوية كيان كل من الشقين ودفعه فى طريق الصعود . . . فهى طبيعية ، متمشية مع الناموس . والحديث عنها ووصفها و إبرازها فى صورة فنية جميلة موحية ، جزء من مهمة الفن الإسلامى الأصيل.

وأما إن كانت عبثا . . لا يسعى إلى غايته الطبيعية ، بل يجعل من نفسه غاية مستقلة منفصلة عن كيان الحياة . . فهى ليست جزءا من مهمة الفن ، لأنها ليست جزءا من ناموس الحياة .

وناموس الحياة فى مسائل الجنس أنه ليس « ضرورة بيولوجية » تقضى على أى وضع ، حتى فى عالم النبات والحيوان !

وإلا ففيم كان الجمال ؟

« الجمال فطرة « الطبيعة » . فطرة الحياة التى خلقها الله .

« والحياة لا تكتفى بقضاء الضرورة ، ولكنها تهدف دائما إلى الإحسان فى الأداء .

« أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان ؟

« أتظن أن ذلك « ضرورة » ؟

« قالوا : لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس ! وتساعد كذلك فى تلقيح النبات !

« فهل تظن ذلك ؟ هل من « الضرورة » بالقياس إلى النحل أن يكون فى الزهرة كل هذا الجمال ؟

« كلا والله ! فالنحل خَلْقٌ متواضع ، وإنه ليحط على الزهرة الأريجة الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال .

« فليس جمال الزهرة إذن ضرورة ! وكل الأهداف « البيولوجية » يمكن أن تتم فى أبسط زهرة كما تتم فى أجمل الأزهار .

« ورأيت هذه الطبيعة ؟

« رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد ؟

« رأيت روعة الجمال التى تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟

« والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه فى الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف . . أو الأشباح ؟

« والليلة القمراء . . هل ذقتها ؟ وذقت طعم السحر فى ضوئها ، وظلها ، وأطيافها السارية وحديثها المهموس ؟

« هل تظن ذلك ضرورة ؟

« وأينت هى الضرورة فى ذلك كله ، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال ؟

« ورأيت هذا الوجه ... ؟

« هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار . . تلك التقاطيع المنسقة . . هذا المعنى المعبر . . تلك « الروح » التى تطل من وراء القسمات ؟

« تظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟

« أليست كل العمليات « البيولوچية » من طعام وشراب وتنفس تتم فى أقبح وجه وأجمل وجه على السواء ؟

« بل . . نداء الجنس ذاته . أليس يتحقق فى كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال ؟

« كلا . إنه ليس « ضرورة » وإنما هو « جمال » .

« هو إحسان فى الأداء لا مجرد الأداء » (١)

ومن ثم لا يقبل الإسلام تلك الفكرة المنحرفة التى تقوم عليها « الواقعية » الغربية الحديثة ، فكرة أن الجنس عملية بيولوجية خالصة ، وهدف يتحقق فى ذاته بصرف النظر عن أية علاقة وأى ارتباط .

تلك فكرة قائمة على أساس حيوانية الإنسان وماديته .

أما فكرة الإسلام ، فهى آصل فى فطرة الكون وأعمق فى فطرة الحياة .

* * *

والفن الإسلامى يستطيع أن يتحدث عن المشاعر التى تربط بين الجنسين فى هذه الحدود النظيفة .

وتلك قصة موسى مع ابنة الشيخ الصالح مثل لذلك الحديث :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال . ماخطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير . . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين . . . » (٢) .

---

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » فصل « وليرح ذبيحته » .

(٢) سورة القصص [٢٣ — ٢٧]

فهنا عرض لعواطف أنثى نظيفة تجاه رجل . عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته . . ثم أمانته المتمثلة فى محافظته عليها وعلى عرضها وهى معه ـ وحدها ـ فى الطريق إلى الدار . والفتاة تعبر عن هذه العواطف — على طريقة الأنثى الحيية الخجول — ويفهم أبوها عنها . ويقرها ويزوجها للرجل الذى أعجبت به وعبرت — بطريقتها — عما أحست نحوه من إعجاب . ثم يجىء القرآن فيقر هذه العواطف وهذا السلوك ، فيرويه رواية تقرير وصراحة وإثبات .

وعلى هذا النسق يستطيع الفن الإسلامى أن يتحدث عن كل علاقة حب نظيفة ، لاتنحرف ولا تسف ، وعن أثرها فى نفس صاحبيها ، وما تدفع كل واحد منهما إلى إبراز أجمل ماعنده من مشاعر وأعمال ، وما تقوى من عزيمة كليهما وتعينه على تحديد هدفه فى الحياة . . وما تربطه بالله .

كما يتحدث — فى مجال الفن الواسع — عن تقلبات تلك العاطفة بين الشد والجذب ، والإقبال والفتور ، والهدوء والجيشان . . مادام ذلك كله فى حدوده النظيفة الجميلة المضيئة المشرقة . . الجارية على ناموس الحياة .

* * *

ولكنه يستطيع كذلك أن يتحدث عن مجالات الجنس الهابطة المنحرفة عن السبيل .

« فالواقعية » تقتضى عرض الأبيض والأسود من باطن النفس وواقع الحياة .

وتلك قصة يوسف :

« ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله

إنه ربى أحسن مثواى . إنه لايفلح الظالمون . ولقدهمت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلَصين. واستبقا الباب . وقدت قميصه من دبر . وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءا ، إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟ قال : هي راودتنى عن نفسي . وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً . إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهم سكينا ، وقالت اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه ، وقطّعن أيديهن . وقلن حاش لله ماهذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكوناً من الصاغرين . قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن ، وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » (١) .

قصة كاملة من قصص الهبوط الجنسى . ودفعة من دفعات العرامة الحسية التى تنسى فى ساعة الشهوة الغليظة كل اعتبار .

وصراحة فى الوصف والتعبير : وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه .. وغلّقت الأبواب .. وقالت هيت لك .. ولقد همت به .. قال هى راودتنى عن نفسى ..

(١) سورة يوسف [٢٢ — ٣٤]

وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. قدشغفها حباً .. فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن . . ولقد رَاوَدْتُه عن نفسه . . ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن .. وإلا تصرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن ..

ما بقى شىء من الصورة لم يرتسم فى الخيال من خلال الألفاظ .

ومع ذلك .

فكيف تجد طعم « الجنس » فى هذه القصة التى تتحدث عن هبوط الجنس ؟

هل تجد فيها ذلك العرض الذى يهدف إلى إثارة التلذذ بالجنس والإعجاب بلحظة الهبوط والمتعة بالمشاعر المنحرفة والفطرة الموكوسة ؟

أم تحس — مع جمال العرض ودقته وأمانته وصراحته — بالنفور من تلك الفطرة المنحرفة والتقزز من ذلك الهبوط ؟

ذلك طريق التعبير عن مشاعر الجنس المنحرفة حين يراد التعبير عنها بطريقة الإسلام .

أمانة فى الوصف ، بلا إثارة جنسية ولا تلذيذ ولا إفساد .

* * *

وذلك فى محيط الجنس المتخصص ..

ولكن كم يشمل الجنس من مساحة الوجدان ومساحة الحياة ؟

كم قدره فى حقيقة الواقع ، لنقيس مساحته فى رقعة الفنون ؟

هل يعيش الإنسان حياته فى عالم الجنس وحده ، لا تصطرع فى نفسه الدوافع ، ولا تتداخل الانفعالات ، ولا تتعدد الهموم ؟

حتى الفارغون التافهون الذين فرغت حياتهم من الاهتمامات الجادة والأهداف

الكبيرة .. حتى هؤلاء لايقضون حياتهم فى مشاعر الجنس وحده ، وإنما تشتجر فى نفوسهم رغبات شتى — تافهة نعم ، ولكنها أوسع من عالم الجنس على أى حال !

والإنسان السوى لا يستطيع أن يعيش الحياة بعنصر واحد من نفسه — أياً تكن ضخامته فى حسه — ويغفل عناصر وجوده الأخرى ، التى لا بد أن تحقق وجودها فى مشاعر نفسه وواقع حياته ما دام يعيش .

فطاقة « الحب » وحدها فى النفس — وهى إحدى طاقاتها فحسب — ميدان واسع شامل يفيض بأحاسيس شتى ، كلها معجِب ، وكلها مؤثر ، وكلها جميل .

الحب هو بنية النفس الحية السوية التى تعيش متجاوبة مع حقيقة الوجود .

ولكنه حب شامل .. يشمل كل الوجود .

يشمل علاقة الإنسان بربه . وعلاقته بالكون والحياة . . وعلاقته بكل البشرية . .

والحب الإلهى وحده — وهو أحد ألوان الحب — يمكن أن يستوعب فناً قائماً بذاته ، متكاملا مستوفياً كل عناصر الفن ، باقياً فى صفحة الحياة ماشاء الله له البقاء . .

هذا الحب ، بما يفيض على النفس من أنوار شفافة رائقة ، وبما يوسع من آفاقها حتى تشمل الوجود كله ، وبما يرفع من كيانها حتى تصبح وكأنها نور خالص مشرق متلألئ ، لا تدخله عتامة الجسد ولا ثقلة الطين . . إنه عجيبة من عجائب الأحاسيس البشرية .. وإنه لفى القمة من هذه الأحاسيس .

ومضة واحدة من هذا النور الإلهى تشرق على قلب بشر . . ومضة واحدة

فى لحظة خاطفة . . تفعل فى النفس ما لا تفعله أجيال من التجارب والأحاسيس و « الثقافات » والاطلاعات التى توسع مدارك النفس وتعمق صلاتها بالكون والحياة .

ومضة خاطفة كومضة البرق.. تضىء صفحة الكون كله فى باطن النفس .. وتصل الإنسان بكل عمقه واتساعه وشموله ، الذى لا يعيه فى أحواله العادية ولا يدرك حقيقة مداه .. تصله بالحقيقة الكبرى الخالدة ، صلة تصل إلى أعماقه ، وتنفذ إلى أبعد ذرات وجوده ، وتمتزج بكل وشيجة حية فى النفس ، فإذا هى والنفس شىء واحد ممتزج الكيان ..

هذه الومضة . . هذه الارتعاشة الوجدانية الواصلة . . هذه الصلة العميقة بحقيقة الوجود .. هذه الانتفاضة المشرقة التى تشع من خلال الطين المعتم فيتلألأ وينير . . هذه الإشراقة الرائقة التى تضىء للإنسان طريقه بين الأشواك . أشواك الشر والباطل والظلام .. أو ليست تعبيراً من تعبيرات الحب التى يمارسها الإنسان السوى ، ولو مرة واحدة فى حياته المليئة بشتى المشاعر والانفعالات ؟

أو ليست فناً من أروع الفنون . لأنها لحظة من أروع اللحظات ؟

لقد امتلأت نفوس المتصوفة بهذه المشاعر الجميلة الرائقة الشفافة الواصلة . . وهى فى صميمها ذخيرة للفن وذخيرة للحياة .. و إن كان قد فات كثيراً من المتصوفة قدرة الأداء الفنى عن هذه المشاعر العالية ، لأن الطبائع الفنية لم تتوفر فيهم على المستوى المطلوب للتعبير عن هذا الفن الكبير . ولكنه فن قائم فى انتظار الطبائع الموهوبة ، التى تطيق الصعود إلى هذا المرتقى السامق ، وتجيد التعبير عنه فى عالم الفنون .

وحب الكون . . المتمثل فى « الطبيعة » بجبالها وأنهارها ووديانها ، وأرضها وسماواتها ، ونجومها وكواكبها . أليس لوناً من ألوان الحب يخطر فى نفس الإنسان السوى و يمثل جزءاً من « واقعه » الحى الذى يعيشه فى الحياة ؟

وحب الكائنات الحية . . الحب الذى يجد نشوته فى التطلع إلى النبتة الصغيرة تشق طريقها من الطين ، والورقة النابتة من البرعم ، والزهرة النابتة من الكم ، والثمرة اليانعة . . والتطلع إلى الحيوان الوليد يتبع أمه وأمه تدلله وتحنو عليه ، والحيوان الرشيق يجرى مختالا مزهواً برشاقته ، والحيوان القوى الكاسر الجسور . . والتطلع إلى الطير صافات و يقبضن ، بما لها من ألوان زاهية وحركات رشيقة . . أليس لوناً من ألوان الحب يخطر فى النفس و يشغل شيئاً من فراغها ؟

وحب البشرية . . الحب الذى لا يتجه إلى صديق معين ولا صاحب ولا منفعة . . و إنما يشمل الناس جميعاً بمودة لطيفة ، تحب لهم الخير ، وتحس نحوهم بوشائج القربى والأخوة الودود . . أليس لوناً بل ألواناً من الحب ، تفيض بها النفس السوية أحياناً على الأقل ، ولا نقول كل الأحيان ولا غالب الأحيان ؟

أليس هذا الحب كله جديراً بالتسجيل الفنى ، وهو واقع له وزنه فى الحياة ، بل واقع يستحق التسجيل والإشادة ، لأنه هو الذى يبنى الإنسانية على أصولها الصحيحة ، و يعينها على تحقيق كيانها الأسمى المذخور فى فطرتها ؟

هل الحب الجنسى وحده — وهو واحد فقط من ألوان الحب — هو الحقيقة الوحيدة فى عالم النفس ، والحقيقة الوحيدة الجديرة بالتسجيل ؟ !

من يقول ذلك إلا التافهون الفارغون ، الذين لا تتسع نفوسهم لغير مشاعر الحيوان . . وحتى هؤلاء لا تنحصر حياتهم فى مشاعر الجنس ؟ !

إنه مسخ مشوه هذا الأدب الجنسى الذى تمارسه الفنون الأوربية ، والأدب العربى المزور الذى يعيش فى هذه الأيام بلا هدف ولا غاية ولاطريق مرسوم!

لقد كان الأدب الأغريقى يفسح مجالا واسعاً لمشاعر الجنس . . وذلك جانب من جوانب اختلالاته الكثيرة — رغم روعته الفائقة وعلو مكانه فى المقاييس الفنية — وكانت أوربا وريثة التراث الإغريقى تحافظ على سمة هذا المجال الجنسى فى فنونها . ولكنها مع ذلك كانت « معقولة » ، موزونة إلى حد . . حتى ظهر فرويد ، يطبق فى عالم النفس النظرة المادية الحيوانية للإنسان ، ويفسر السلوك البشرى كله من خلال الجنس . وعندئذ انطلقت الحيوانات المسعورة تلطخ صفحة الفن بحركات السعار الجنسى المنهومة الطائشة ، وتعرى الإنسان من كل « ملابسه » الحسية والمعنوية ، لترسمه فى لحظة الجنس وحدها ، وترسمه عريان .

ثم يجىء الأدباء المزوّرون فى الإنتاج العربى ، فيقلدون هذا السفه الفنى الملوّث ، ويملأون إنتاجهم بالسعار المحموم الذى يستعفف عنه الحيوان !

* * *

وهل الحب وحده — بمجالاته الصاعدة والهابطة — هو الوجدان الوحيد الذى تجيش به النفس الإنسانية ؟

ألا تجيش فيها مشاعر الكره . . ومشاعر الصراع ؟

الكره طاقة بشرية مساوية وموازية للحب فى الفطرة[1]، ولها مجالات واسعة فى النفس والحياة .

والكره — كالحب — يصعد ويهبط . ويكون خيّراً مرة وشريراً مرة ، بحسب ما يتوجه إليه .

فالكره الذى يتوجه به الإنسان نحو الفساد فى الأرض ، نحو الشر المنبث

(١) انظر فصل « خطوط متقابلة فى النفس البشرية » من كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

فى الأحياء ، نحو الظلم والطغيان والانحراف ، هو كره نبيل كالحب النبيل ، وواسع شامل يشمل كل أمور الحياة .

والكره الذى يتحول فى نفس صاحبه إلى كراهية الخير للناس ، والحقد عليهم ، وكراهية كل شىء جميل ، وكراهية لاستقامة والنظافة والصعود والترفع . . هو كره هابط منحرف شائه مريض .

والحياة تعرف فى واقعها ألواناً من هذا الكره ومن ذاك . وأياً تكن نسبة أحدهما الغالبة ، فالكره وجدان له وزنه وثقله فى واقع النفوس وواقع الحياة . والتعبير الواقعى الصادق عن الحياة لا بد أن يفسح مجالا لتصوير مشاعر الكره ، واشتباكاتها فى النفوس ، وتأثيرها فى أعمال الناس وسلوكهم ومشاعرهم . وإلا فهو تعبير ناقص مبتور .

* * *

والصراع . . .

إن الصراع يكاد يشمل كل الحياة البشرية !

يصارع الإنسان فى داخل نفسه نوازعه ودوافعه المتداخلة المتعارضة التى لا يمكن الاستجابة لها كلها فى وقت واحد ، إلا أن تُضبط وتنظم ، وتحدد « أولويتها » فى المرور !

ويصارع غيره فى الحياة . . يصارع الناس والأشياء . . والتنظيمات والنظم . . والقيم والقوى والتيارات !

ولا يمكن أن تخلو حياته لحظة واحدة من الصراع !

والصراع — كالحب والكره — يهبط ويصعد ، ويكون فى سبيل الخير كما يكون فى سبيل الشر .

الصراع الخيّر يقاوم فى داخل النفس رغباتها المنحرفة ، وميلها إلى الشر ، وسعيها إلى الفساد . والنفس لابد لها من توجيه دائم وتقويم ، وإلا فإنها إن تركت وشأنها هبطت بها ثقلة الطين ، وانفصلت عن إشراقه الروح . « إن النفس لأمارة بالسوء[١] » بالجانب الأدنى من فطرتها ، ما لم يتدخل الجانب الأرفع من هذه الفطرة ليردها عن ذلك السوء ويأمرها فى طريق الخير .

ويقاوم فى المجتمع مختلف أنواع الشرور .

يقاوم الظلم بجميع أنواعه وألوانه . الظلم الاقتصادى والظلم الاجتماعى والظلم السياسى يقاوم تفريق الناس إلى سادة وعبيد . . سادة يملكون كل شيء وعبيد لا يملكون إلا الذل والهوان والحرمان .

ويقاوم القيم الفاسدة التى تستعبد الناس وتغلّهم عن تحقيق كيانهم الإنسانى الصحيح . يقاوم العبودية للمال أو الجاه أو السلطان . . أو الشهوات . فكلها عبوديات يرسف الإنسان فى أغلالها فلا ينطلق إلى آفاقه العليا الجديرة بكيان الإنسان .

ويقاوم التصورات الفاسدة التى تقلب نظرة الإنسان لنفسه ونظرته للحياة والكون ونظرته إلى الله . .

تقلب نظرته إلى نفسه فلا يراها فى محيطها الشامل ولا يقدر طاقاتها حق قدرها ، فينحصر بها فى نطاق ضيق ، ويبرز بعض جوانبها ليحجب بها البعض الآخر ، ويغفل عن تكاملها وشمولها وارتباطها بعضها ببعض .

وتقلب نظرته للحياة والكون فلا يتوجه لهما بالحب ، أو لا يحس لهما وجوداً على الإطلاق ، فتنحصر نفسه فى حدود وجوده الضيق المغلق المنقطع عن الأحياء،

---

(١) سورة يوسف [٥٣] .

ويورثه ذلك — فوق ضيق الأفق — أنانية مريضة متعفنة يشمئز منها الكيان السليم .

ويقلب نظرته إلى الله ، فلا يحس نحوه بالحب ، ولا يتوجه له بالعبودية المحبة الخاشعة المتطلعة ، المطمئنة إلى قدره ، المسلمة كيانها له ، المستمدة من هذا التسليم قوة وإيجابية فى واقع الحياة . ولا تدرك « الحق » المتمثل فى الله سبحانه وفى كل ما خلق من الأشياء ، والمتمثل فى وجود الناس فى الحياة الدنيا ووجودهم فى الآخرة فى دار الجزاء ..

والصراع الشرير يتوجه إلى العكس .

يكبت فى داخل النفس نوازع الخير الفطرية ويسكت صيحة الضمير .

ويقاوم فى المجتمع كل نزعة إلى الخير .

يقاوم الحق والعدل الأزليين . ويحارب الله ورسوله ويسعى بالفساد فى الأرض .

ويؤيد الباطل ويمكّن له .

يؤيد الظلم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . يؤيد تفريق الناس إلى سادة وعبيد .

ويؤيد القيم الفاسدة ويفسح لها المجال .

وينشىء التصورات الفاسدة وينشرها بين الناس .

ويشيع الفاحشة ويدعو لها ويحببها للراغبين .

ويفسد علاقة الناس بالله والكون والحياة .

وهذا الصراع فى اتجاهاته هذه وتلك واقع من أكبر الوقائع فى الحياة البشرية .

والحكمة عليا أوجده الله فى الأرض: « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1] .

فلولا الشر الموجود فى الأرض ، ومصارعة الخير له ، لركد الخير وأسن وتعفن ، أو ترهل وضعف ولم تعد له إيجابية حقيقية فى الحياة وهذا الدفع الذى يدفع الله به الناس بعضهم ببعض ، هو الذى يحيى الخير ويقويه وينشطه ويدفعه إلى العمل الإيجابى المنتج ، فلا تفسد الأرض .

وإدراك هذه الحكمة العليا قمين بأن يفتح بصيرة الإنسان على مساحة واسعة من الحياة والكون ، ويجعلها تدرك ارتباطات أكبر وأعمق وأشمل من جزئيات الحياة الصغيرة المتناثرة ، التى قد تسجلها « العين الآلية » التى تستخدمها بعض الفنون الواقعية والطبيعية مكتفية بها عن جمال تلك الارتباطات وتناسقها وتوازنها ، وحكمتها البعيدة العميقة التى تمنح الحياة حركة وجمالا وتكاملاً ، تفقدها ولاشك الصورة الجزئية المفرقة ، مهما كان فيها من جمال العرض أو دقة التصوير أو براعة الأداء .

وهذا الصراع كله بجميع ألوانه ، سواء فى باطن النفس أو واقع المجتمع ، أو واقع الحياة كلها بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد . . مجال واسع للتعبير الفنى ، ذو مساحة واسعة تتضاءل بجانبها الفنون الجنسية كلها وتنزوى فى ركن من الصورة صغير !

وقد اتجهت بعض المذاهب الحديثة فى الفن إلى هذا الصراع فتخصصت فيه وحده . . بل قصرته على جانب واحد منه هو الصراع الطبقى أو الصراع الاقتصادى على أى حال .

وذلك اختلال فى الصورة من جانب آخر .

---

(١) البقرة [٢٥١]

فليس معنى اهتمامنا بتصوير حقيقة الصراع أن نلغى بجانبها ما يعتمل فى النفس من وجدانات أخرى أهمها وجدان الحب الواسع الشامل العميق. وهذا فضلا عن حصر مجال الصراع فى هذا النطاق الضيق الذى يخنق الأنفاس !

كله اختلال !

لماذا لا نصور حقيقة الواقع إن كنا نريد أن نكون واقعيين ؟

لقد كان التفسير المادى للتاريخ محنة الفكر الأوربى فى العصر الحديث !

وقد ظل هذا التفسير يهبط بالحياة الإنسانية ويضيّق مجالاتها حتى حصرها فى نطاق الاقتصاد والمادة، ثم حصرها فى الصراع الطبقى، ثم حصرها فى «الحتمية» الاقتصادية التى تلغى وجود الإنسان !

وكانت النتيجة أن الفنون التى التزمت بهذا التفسير، أصبحت خالية من الوجود الحقيقى للإنسان !

لا عواطفه ولا انفعالاته ولا اهتماماته ولا سبحات روحه ولا تأملات فكره ولا حتى نوازع جسده وأشواقه لها حساب فى ذلك الفن.. فيما عدا الصراع الطبقى الاقتصادى الدائر فى دائرة حتمية «مستقلة عن إرادة الإنسان» !

عالم كريه يتقزز منه الكيان السليم للإنسان.

وما بنا من اعتراض على تصوير الصراع الاقتصادى والصراع الطبقى. فهو حقيقة من حقائق البشرية فى هذا الجيل أو فى أى جيل.. ولكننا نقول فيه شبيها بما قلنا من قبل عن فنون الجنس.

نقول فيه إنه ينبغى أن يأخذ مكانه الحق ولا زيادة.. ولا يطغى على الصورة فيلونها بلونه المحدود.

ونقول فيه إنه ينبغى أن يؤخذ على مستوى «الإنسان» لا على مستوى الحيوان ولا مستوى الآلات !

وحين يلتزم هذه الشروط يصبح فنا « إنسانيا » جديرا خليقا بأن يأخذ مكانه الحق فى لوحة الفنون .

* * *

والفن الإسلامى المنبثق من تصور الإسلام الواسع الشامل للكون والحياة والإنسان ، يفسح المجال للوجدانات البشرية كلها من محبة وكراهية وصراع . ويفسح المجال لمشاعر الجنس ، وصور الصراع الاقتصادى والاجتماعى ، ولكنه يضعهما فى موضعهما من الصورة ، ليرسم فى بقية اللوحة مشاعر الحب الكبرى ومجالات الصراع الأكبر . فيكون أكثر واقعية من تلك الفنون الواقعية الصغيرة المحدودة ، ويكون أصدق تعبيرا عن حقيقة الحياة العميقة الشاملة ، وأجمل تصويراً للحياة من سائر الفنون .

الجمال فى التصور الإسلامى

الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود . . إن لم تـكن أبرز سماته .

والحس البصير المتفتح يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء . .

كيف يدركه ؟ كيف يحس به و يقدره ؟

هل ثمت « جهاز » فى داخل النفس ، يحسب المقاييس والأبعاد ، والأضواء والظلال ، والخطوط والألوان . . . ثم يخرج من حسبته بأن هذا جميل وذاك خاوٍ من الجمال ؟

لاشك أن هناك حاسة فى باطن النفس تفطن للجمال وتحسه وتستجيب له . ولـكنها لا تَحْسِبُ ولا تقدر . وإنما تدركه بداهة بغير تفكير . . على طريقة الروح فى الإدراك لا على طريقة الذهن ذى الأبعاد والمقاييس .

وقد يتدخل الذهن فى « تقويم » الجمال ، ووضع شروط له ومقاييس . ولـكنه ليس هو الذى يقدّر فى الحقيقة . فهو حين يقوم بوضع الشروط والمقاييس يستمدها فى الحقيقة من البداهة الطليقة التى تدرك الجمال لأول وهلة ودون تفكير .

وتلك من عجائب الله المعجزة فى خلقة هذا الـكائن البشرى . . أن يهب له هذه الموهبة الفذة ، التى تتجاوب مع روح الـكون العميقة تجاوبا مباشرا ، كما تخفق العين للضوء ، وتخفق الأذن للأصوات !

لمحة . . مجرد لمحة . . فإذا الجمال منطبع فى الحس ، وإذا النفس تتحرك لاستقباله فى فرح وسرور . وكأن روح الإنسان وروح الـكون شقيقان متعارفان ، حيثما تلاقيا هش كل منهما للآخر ، والتقيا فى عناق طويل !

« فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

وإذ كانت البديهة هى الموكلة بالجمال — لا الذهن — فمن العسير أن توضع له القواعد الحاسمة وترسم له الحدود القاطعة ، كالقضايا الذهنية أو الفلسفية الخالصة . وحين يتعرض الذهن للجمال ، فهو — كما قلنا — يستمد مقاييسه من البداهة ، فلا تجىء هذه المقاييس ذهنية خالصة ، ولا تجىء قاطعة حاسمة كالحقائق الرياضية ؛ ومع ذلك فمن الممكن — فى العموميات على الأقل — أن نصدر أحكاما شاملة ونضع قواعد عامة ، تيسر لنا الحكم فى قضايا الجمال ، وإن كانت لا تكفى — وحدها — للحكم على كل حالة مفردة ، حيث لابد من استخدام البداهة التى تتذوق الجمال !

وعلى أى حال فما دمنا « نتحدث » عن الجمال ، ونَصِفُهُ — وهو أمر غير الإحساس المباشر به — فلا مناص لنا من استخدام لغة الذهن و بعض مقاييسه ، لكى « نتفاهم » على أوصاف هذا الجمال .

* * *

وأول ما يلفت الحس فى الجمال أنه ليس « ضرورة » . . وإنما هو عنصر زائد عن الضرورة .

والكون الواسع الذى لا يدرك الحس البشرى أوله وآخره ، مهما أتيح له من وسائل الرؤية ووسائل النفاذ إلى الأبعاد . . الكون الذى تبعد بعض نجومه عنا بملايين السنين الضوئية . . أى ملايين الملايين من الأميال . . وهو مع ذلك « معنا » فى وجود واحد ! . . الكون الذى يشمل من العجائب والموافقات ما لا يحلم به خيال بشر ولو رصد خياله لتصور العجائب والموافقات . .

(١) سورة المؤمنون [١٤] .

هذا الكون لا يعلم سره سوى خالقه . لم خلق ؟ كيف خلق ؟ متى خلق؟ كم يظل قائما ؟ كيف يصير حاله غدا بعد آماد متطاولة من الزمان ؟

لا يعلم البشر شيئا من ذلك وإن عرفوا — فيما تكشف لهم العلوم عنه — بعض أسرار تركيب الكون وبعض أسرار طاقاته .

ولكن شيئا ما ، فى بنية هذا الكون ، يلفت الحس حين يتوجه إليه مستطلعا متفتحا لما وراء المواد والأشكال : أنه طليق من الضرورة .

فما الضرورة فى خلق هذا الكون الواسع العريض ؟ !

« إن الله لغنى عن العالمين »[1] وليس فى « حاجة » إلى هذا الخلق كله من جوامد وأحياء .

إنما الكون صادر عن إرادة الله الحـــرة الطليقة التى لا تخضع للحاجة ولا الضرورة ولا القيود .

وهو خاضع لناموس ينظم حركته ودورانه ، وينسق عناصره وطاقاته . ولكن ذلك الناموس « نظام » وليس « ضرورة » ! . . وإلا فليس هو النظام الوحيد الذى كان يمكن أن يكون عليه الكون . وثمت موافقات « رياضية » شتى ؛ ملايين الملايين من الموافقات ؛ كان يمكن أن تكون نظاما لهذا الكون لو أرادها الله الخالق المبدع المريد ، الفعال لما يريد .

فهو قد خلقه من غير ضرورة قاهرة .

وأعطاه نظامه عن غير ضرورة مقيِّدة لحريته سبحانه .

وهذا « النظام » الذى ليس « ضرورة » عنصر ولا شك من عناصر الجمال فى الكون ، إن لم يكن هو ذاته الجمال .

---

(١) سورة العنكبوت [٦] .

والإنسان خليفة الله فى الأرض . . الخليفة الذى كرمه الله وفضله ، ووعّاه وعلمه ، وزوده بمختلف الطاقات .

وهو بهذه الخلافة وهذا التكريم ، أجدر مخلوقات الله أن يدرك الجمال فى حقيقته الجوهريّة التى خلقه بها الله .

وقد لايدرك الإنسان بذهنه كل أسرار الكون ، ولا يصل إلى حقيقة جوهره لو أخذ يدرسه من الظاهر ، ويتابع حركته الظاهرة للحس . ولكنه حين تتصل روحه بالله ، قمين بأن يصل .. وهو الذرة الفانية الزائلة .. إلى حقيقة الوجود كله . . حقيقة الأزل والأبد التى ليست لها نهاية ولا بدء ، ولازمان ولامكان .. ذلك حين يرى الله .

والله يدعو خلقه أن يبحثوا عنه فى صفحة الكون الواسع . . وأن يتصلوا به ويجدوه ..

« إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »(١) .

* * *

وأول ما يلفت الحس فى الجمال كما أسلفنا أنه « نظام » ولكنه ليس « ضرورة » ..

ولهذا النظام — كما يبدو فى صفحة الكون — مظاهرة متعددة ، منها الدقة . والتناسق . والتوازن . والترابط . وخفة الحركة رغم ثقلة الأوزان .

---

(١) سورة البقرة [١٦٤] .

الدقة العجيبة المذهلة التى لاتختل قيد شعرة فى هذا الفضاء العريض .. الدقة المضبوطة لا باليوم ولا بالساعة ، ولا بالدقيقة ، ولا بالثانية ، ولا بالثالثة .. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع ! الذى ينطلق بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية !

فهذا الكون الذى يشتمل على بلايين البلايين من النجوم ، كلها متحركة لاتفتر عن الحركة لحظة واحدة منذ الأزل السحيق الذى لايدرك عقل البشرية مداه .. هذا الكون لايصطدم فيه نجم واحد بنجم ، ولا يحدث الخطأ فى مدارٍ واحد من مداراته التى تعد بالبلايين .

وتلك دقة معجزة لايقدر عليها غير مبدع الكون ، الواحد المفرد الذى ليس له شريك .

وهى دقة جميلة بلا شك .. تبده الحس وتهزه من الأعماق .

والتناسق الذى يبدو جانب صغير منه فى مجموعتنا الشمسية بتركيبها الدقيق ، والذى ينشأ عنه فى أرضنا نهار وليل ، وضوء وظل ، وشتاء وصيف ، وخريف وربيع ، وحر وزمهرير ، ومد وجزر . . . ويبدو جانب منه أكبر فى منظر السماوات بما تشتمل عليه من نجوم ذات أبعاد مختلفة وأحجام ، وذات درجات مختلفة من الإشراق واللمعان ، وذات مجموعات متآلفة تتحرك بكامل أفرادها فى الفضاء العريض .

والتوازن .. الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض — إلا بإذنه .. هذه الأجرام المذهلة الجرم والوزن ، التى يعجز العقل عن تصور وزن أبسطها وأصغرها ، إلا أرقاما على الأوراق .. معلقة فى الفضاء بغير عمد ، موزونة الحركة ، تدور فى مدارها المرسوم ، لاتهتز عنه ولا تخرج على نظامه .. ولو خرجت قيد أنملة لاختل توازنها وانساحت فى الفضاء المذهل الرهيب .

والترابط .. الذى يمسك تلك الأجرام بعضها ببعض ، برباط وثيق يقول العلم إنه الجاذبية ، ويقول الحس إنه قدرة الله فى أى ثوب من أثوابها وأى شكل من الأشكال . تترابط فإذا كلها — وهى البلايين التى يعجز عنها الحصر ، فى فضاء يعجز عنه التصور — أسرة واحدة متكافلة ، فيها الصغير والكبير ، والشباب والشيوخ ، والخامد والمشتعل .. يجذب بعضهم البعض ويحمل بعضهم البعض ، فى تناسق وتوافق ، فلا يقع منهم أحـــد ، سواء الطفل الصغير والشيخ الكبير ، وإنما يدورون دورتهم الهائلة متماسكين بأيدٍ خفية لا تبين ، يوصوص بعضهم إلى بعض كما تخفق عيون الأحبة بالمحبة والحنين .

وخفة الحركة . . التى تبدو فى تلك الأجرام الهائلة التى يعجز الخيال نفسه عن تصور كتلتها وثقلها لو قيس بمقاييس الأرض ، تتحرك منطلقة فى الفضاء بسرعات مذهلة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . صنع الله الذى أتقن كل شىء » .. وحين استطاع الإنسان أن يطلق قذيفة وزنها أقل من الهباءة المنثورة بالنسبة لتلك الأجرام ، بسرعة من أبسط السرعات الكونية ، أدركته نشوة أخرجته من كيانه وأصابته بالذهول !

وهى حركة تتيحها لهذه الأجرام الثقيلة الماردة أنها فى حقيقتها عبارة عن طاقة . طاقة متلبسة فى المادة . طاقة متحركة فى صميمها . متحركة حتى أعمق أعماقها . فى أبسط مكوناتها المعروفة حتى اليوم . فى الذرة الضئيلة التى لا يدركها الحس إلا حين يفرغ ما فيها من الطاقة فإذا هو مذهل عظيم .

* * *

تلك سمات الجمال فى الكون .. وهى ذاتها سمات الجمال فى هذه الأرض

وفى حياة الإنسان ! «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ »[1] .

الأرض بما فيها من جبال ووديان ، ومحيطات و بحار ، وجداول وأنهار .. وما فى جوها من أبخرة وسحب وأمطار .. وما عليها من نبات وحيوان وطير و إنسان .. جميلة كلها بديعة الجمال .

هذه النقطة من الطل المتلألئة فى ضوء الشمس ..

هذا البرعم المتفتح تنطلق منه الحياة ..

هذه الورقة النابتة كالطفلة الوديعة تهتز للنسمة الخافقة كما تهتز الطفلة بكل تجربة جديدة فى الحياة ..

هذه الريشة البديعة فى جناح الطائر ، منسقة الألوان دقيقة التركيب ..

هذا الفرخ الناقف من البيضة ، جميلا فى ضعفه ، لطيفاً فى سذاجته ..

هذه الأضواء والظلال تقصر وتمتد فى حركة دءوب ..

هذا الجدول الرقراق . . والنهر المتدفق . . والبحر المتلاطم.. والخضم الموّار .

هذه الهدأة فى الليل الساكن الغافى النعسان . .

والصبح إذا تنفس من هدأته ، وتنفست معه الأحياء ..

كلها . . كلها جميلة بديعة الجمال . .

وكلها جارية على ناموس الجمال فى الكون الكبير . .

الدقة . والتناسق . والتوازن . والترابط . والحركة والانطلاق . .

الدقة التى تبدو فى كل شىء . . فى مطلع الصبح ومغرب الشمس — بالنسبة

---

(١) سورة الملك [٣]

للأرض — فى موعد مضبوط شديد الانضباط ، يحسب بأدق آلات الحساب البشرية فيفوقها فى دقة الميعاد . كما تبدو فى لون الزهرة الصغيرة المتعددة الألوان التى تعجز الريشة الدقيقة عن محاكاتها بهذه الدقة المعجزة ، بينما تنبت هى فى سهولة ويسر ، حاملة ألوانها على « السليقة » بلا كد ولا إرهاق . كما تبدو فى ريشة الطائر البديعة التى تحمل المئات من الريش المفرد بل الألوف ، كل فى مكانه على وجه الدقة ، مرتب كأنما رتبته يد ماهرة ، وكل يحمل نصيبه من اللون الذى يتكامل فى الريشة الكاملة بمنظر بهيج . كما تبدو فى الخلية التى لاتكاد ترى ، وهى جهازحىّ متحرك يحمل كل مقومات وجوده ؛ وفى عدد الكروموسومات التى تحملها — بعدد مضبوط لايخطىء — وعدد الجينات حاملات الصفات الوراثية ، الدقيقة إلى أبعد حدود الوصف . كما تبدو فى عدد كرات الدم وعدد خفقات القلب وعدد مرات التنفس وعدد درجات الحرارة الخاصة بكل مخلوق على هذه الأرض . . الخ . . الخ . . .

والتناسق الذى يبدو فى توزيع الألوان والظلال والأضواء والكائنات فى رقعة البسيطة . . بصورة تلفت الحس وتستريح لها العين وتهش لها النفس وتهدأ لها الأعصاب.

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ؟ » (١).

« ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا » (٢) .

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ،

---

(١) سورة فاطر [٢٧ — ٢٨] . (٢) سورة الفرقان [٤٥] .

وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » [١] .

« أولم يروا إلى ماخلق اللهمن شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون » [٢] .

الخ . . الخ . .

والتوازن الذى يبدو فى اتزان حركة الأرض وثباتها،وفى عدم طغيان ماعليها من الخلائق بعضها على بعض ، كلٌّ له قدره الموزون الذى يكفيه لأداء دوره على الأرض كما أراده خالقه :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » [٣]

والإشارة إلى الوزن — أو التوازن — هنا إشارة عجيبة ، تثير فى الحس اليقظة لهذه الصفة التى يتسم بها خلق الأرض كلها وما عليها ، كما تصل الحس المتفتح بالله مباشرة ، خالق هذا «الكل شىء» الموزون .

« خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » [٤]

« وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها » [٥] .

إلخ . . إلخ . .

والترابط . . الذى يبدو فى اجتماع هذه الخلائق على أصل واحد ، ومصير واحد ، واشتراكها فى نشاط واحد يربط بينها جميعا .

(١) سورة النحل [٨١] .
(٢) سورة النحل [٤٨] .
(٣) سورة الحجر [١٩]
(٤) سورة لقمان [١٠] .
(٥) سورة فصلت [١٠] .

« والله خلق كل دابة من ماء . فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير »[١] .

فهنا ارتباط فى المنشأ ، وارتباط فى صفة الحياة التى تجمعهم فيها كلمة « مَنْ » تربط بين العاقل وغير العاقل ، ومن يمشى على بطنه ومن يمشى على رجلين ومن يمشى على أربع .

« ولله ميراث السماوات والأرض »[٢]

« وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون »[٣] .

وهنا ارتباط فى المصير .

« ولله يسجد من فى السماوات والأرض »[٤] .

« ولله يسجد ما فى السماوات والأرض »[٥] .

فمن فى السماوات ومن فى الأرض وما فى هذه وتلك يشتركون فى نشاط واحد هو العبادة لله خالق الجميع . نشاط يشمل الكائنات كلها من جوامد وأحياء .

وذلك فوق الترابط « المحسوس » بين الكائنات ، الذى يعرفه العلم ، من ارتباط الحياة والأحياء على سطح الأرض بوجود الأكسجين والإيدروجين وبقية العناصر بنسب موزونة محددة لو زادت أو نقصت لاختل كل شيء . وارتباط وجود كل حيّ من الأحياء بوجود الآخر زيادة ونقصا ، وتأثر كل واحد بنشاط الآخر . وما يعرف فى العلم باسم « دورة الكربون » فى الأرض . يخرج من النبات فى صورة غذاء فيتناوله الإنسان والحيوان . ثم يعود هذان

(١) سورة النور [٤٥] .
(٢) سورة آل عمران [١٨٠]
(٣) سورة الحجر [٢٣] .
(٤) سورة الرعد [١٥] .
(٥) سورة النحل [٤٩] .

فيفرزانه فى الهواء فيلتقطه النبات ويعود إلى صياغته غذاء . . وهكذا فى دورة رتيبة مضبوطة تربط جميع هذه الكائنات .

إلخ . . إلخ . .

والحركة الحية . . التى تبدو فى كل شىء على سطح الأرض . حركة الأحياء من نبات وحيوان وطير وإنسان . وحركة النهر والبحر والمحيط . وحركة الحياة والموت ، وما تنقصان من هنا وتزيدان من هناك . وحركة الأضواء والظلال والنهار والليل . الخ . . الخ .

والقرآن يبرز هذه الحركة إبرازا حتى يصل إلى دقة مبدعة فى التصوير فى مثل قوله :

« ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال » ! [1]

فالحركة لا تشمل الأحياء ممن فى السماوات والأرض فحسب ، ولكن تشمل ظلالهم أيضاً ، فتحييها ، وتحركها ، حتى لا يصبح شىء فى الوجود كله غير حىّ وغير متحرك مع الأحياء !

وكذلك :

« والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس » .

حركة مصوّرة تبث الحياة فى كل « معنى » من معانى الوجود .

وهذه الحركة جمال فائق فوق كل جمال . . .

* * *

تلك مجالى الجمال فى الأرض ، فإذا انتقلنا إلى الإنسان وجدنا مقاييس

---

(١) سورة الرعد [١٥] .

الجمال فيه هى ذاتها — أو ينبغى أن تكون — مقاييس الكون كله المتمشية مع ناموس الوجود.

فحياة الإنسان لا تكون جميلة — بادئ ذى بدء — إلا إذا كانت « نظاما » طليقا من « الضرورة ».

نظاما.. فالفوضى المنفلتة من كل قيد ليست جمالا ، ولا كذلك الحياة فى داخل قيود الضرورة.

الفوضى صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون ولا يعترف بها ناموس الوجود. فكل شىء فيه منظم منسق موزون.

والقيد القاهر صورة من صور الوجود لا يعرفها الكون كذلك ولا يعترف بها ناموس الوجود، لأنه خالٍ من عنصر الضرورة فى خلقه وفى نظامه سواء.

وإنما هو النظام.. النظام الدقيق الذى تتوازن فيه القوى وتتناسق الطاقات، ويخرج منها كيان مترابط، حىّ، متحرك، طليق.

حين ينفلت الإنسان من كل قيد.. اجتماعى أو اقتصادى.. أو إنسانى.. وينطلق يستجيب لكل هوى فى نفسه وكل نازعة.. فإنه من ناحية لا يعود إنسانا ، لأن الإنسان ذو قوة ضابطة يستخدمها بوعيه وإرادته لتنسيق الحياة الإنسانية وإشاعة التوازن فيها ، ذلك التوازن الذى يقتضى ألا تصطدم أهواء الناس ، ولا يتفكك المجتمع وينحل نتيجة لشرود كل واحد من أفراده على هواه. ومن ناحية أخرى يكون خارجا على ناموس الكون، الذى لا تشرد أفلاكه على هواها ، ولا تنفلت مما يربطها بغيرها من الأفلاك من رباط جاذب متين.

وحين يعيش الإنسان حياته فى داخل نطاق الضرورة : ضرورة الطعام

أو الشراب أو الجنس .. لا يرتفع عنها إلى مستوى « المشاعر النفسية » والعواطف والإدراك والوعى ، فإنه من ناحية لا يعود إنسانا ، لأن الحيوان وحده هو الذى يعيش ضروراته على هذا النحو ، لا يتصرف فيها ، ولا يختار موقفه منها ، ولا يدرك بوعيه أهدافها ، ولا تصاحبها فى « نفسه » مشاعر ولا عواطف ولا أفكار . ومن ناحية أخرى يكون خارجا على ناموس الكون ، الذى لا تتحرك أفلاكه على هذا النحو المعين لضرورة قاهرة ، وإنما عن اختيار من خالقها ، وعن تجاذب حىّ بينها ، يشبه « عواطف » الأحياء .

ومن ثم يتعين الجمال فى الحياة الإنسانية بصفة عامة : أنه نظام مطلق من الضرورة .

هذا « النظام » يقتضى موازنة الكيان البشرى كله فى داخل النفس وفى واقع الحياة .

يقتضى فى داخل النفس ألا يصبح الإنسان جسدا وحده أو عقلا وحده أو روحا بمفردها . وإنما كيانا واحدا ينتظم كل هؤلاء .

فحين تغلب على الإنسان شهوة الجسد الغليظة . أو تأملات العقل المنقطعة عن واقع الأرض . أو سبحات الروح التى تعزل الإنسان عن الواقع وتحوّله إلى سلبية لا أثر لها فى عالم الحس .. فكل ذلك اختلال يفسد ترابط النفس وتوازنها .. ومن ثم فهو غير جميل .

وحين يتسبب الإنسان فى إفساد توازن المجتمع الاقتصادى أو السياسى أو الخلقى ، فيشيع الفاحشة الاقتصادية بتركيز الثروة هنا وسلبها من هناك ، أو الفاحشة السياسية بإقامة الطغيان فى الأرض وإذلال الضعفاء ، أو الفاحشة الخلقية بنشر الجريمة وتيسيرها والدعوة إليها .. فهو فى كل حالة من هذه الحالات غير جميل .. لأنه مخالف لناموس الحياة .

والنظرة إلى الجمال فى الحياة الإنسانية على هذا المستوى الشامل ، المستمد من حقيقة الكون ، كفيلة بأن توسع مفهومنا الجمالى ولا تحصره فى حدوده الصغيرة المعروفة .

جمال « الطبيعة » جميل ، نعم . والإسلام — كما أسلفنا — يوجه إليه النظار ويدعو إلى التمتع بكل ما فيه من جمال . . على ألا يشغل ذلك النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهداف العليا من الحياة .

وجمال الأجساد وجمال الجنس ، جميل ، نعم ، ما فى ذلك شك . .

ولا يقول أحد إنه غير جميل . . !

ولكن بشروط . . هى نفس الشروط . . !

« نظام » طليق من « الضرورة » .

نظام تراعى فيه حقيقة المجتمع وحقيقة النفس المفردة فلا تختل هذه ولا تلك .

لا تختل حقيقة المجتمع بإطلاق الشهوات الباحثة عن جمال الجسد وجمال الجنس ، تفسد روابط الأسر وتحل قيود الأخلاق ، وتنتهى بالأمة فى النهاية إلى البوار . ولا تختل حقيقة النفس فتصبح مستعبدة للشهوات .

تلك تجربة التاريخ لا ينبغى أن نغفلها انسياقا وراء الأهواء :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »[1] .

كل أمة أطلقت لنفسها شهوة عشق الجمال الجسدى والجمال الجنسى ، كانت نتيجتها واحدة فى النهاية : تحطمت وغلب عليها غيرها من الأمم القوية المتماسكة التى لم تفسد بعد . كذلك فعلت اليونان القديمة . وروما القديمة . والعالم

(١) سورة آل عمران [١٣٧] .

الإسلامى حين طغت عليه الشهوات . وكذلك فعلت فرنسا فى العصر الحديث . وكذلك تصنع بقية الدول الغربية التى تبدو اليوم قوية متماسكة وهى منحلة من الداخل ينخر فى كيانها السوس . نسبة الطلاق فى أمريكا ٤٠٪ ! لأن « عشق الجمال » يفسد الاستقرار فى داخل الأسرة ويجعل الزوج والزوجة هائمين فى البحث عن جمال جديد ! وانجلترا ، بدافع الاستمتاع بالجمال الجسدى والجنسى أطول فترة ممكنة تؤخر سن الزواج وتحدد النسل ، ومن ثم يتناقص تعدادها تناقصا مريعا يهددها بالفناء .. وهكذا .. وهكذا سنة الله فى جميع الأمم الخارجة على الناموس !

والطلاقة من الضرورة من جانب آخر تقتضى أن يكون الإحساس بالجمال الجسدى والجمال الجنسى على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان الخاضع لنزوة الضرورة لا يملك التصرف فيها ولا يملك الاختيار .

وفى عالم الحيوان تكون كل أنثى مشاعة لكل ذكر يستطيع أن يحصل عليها ، وكل ذكر فى شوق لجميع الإناث . . وهذه ضرورة . .

ولكن فى عالم الإنسان توجد الروابط النفسية والروحية بين الذكر والأنثى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[1] .

ويوجد المدى الواسع فى « درجات » الجنس وأنواعه ، التى يملك الإنسان من بينها الاختيار[2] .

فلكى يحقق الإنسان كيانه — وهو خليفة الله فى الأرض — ينبغى أن يكون إحساسه بالجمال الجسدى والجنسى على هذا المستوى الرفيع ، الذى

---

(١) سورة الروم [٢١] .

(٢) انظر الفصل السابق « العواطف البشرية فى التصور الإسلامى » .

لا يجعل الجنس ضرورة ، وإنما سلوكا حرا يتميز فيه إنسان عن إنسان .

وفى هذه الدائرة بحدودها المتمثلة فى النظام والطلاقة ، يبيح الإسلام الإحساس بجمال الجسد وجمال الجنس . . بنفس الشرط الذى اشترطه فى الإحساس بجمال الطبيعة : ألا يشغل النفس عن الحياة المثمرة المنتجة وتحقيق الأهداف العليا من الحياة .

يبيح المتعة الجنسية كلها ، فى حدودها المشروعة . .

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم »(١) .

والرفث الحركات والأقوال المصاحبة للعمل الجنسى . وعلماء البلاغة يقولون إنه كناية عن العمل . ولكن الحقيقة أوسع من الكناية . فالمقصود ألا يكون العمل الجنسى حركة جسدية خالصة ، لا تتمثل فيها غير ضرورة الجنس . وإنما توسع مساحتها ، حتى تصبح أقوالا ومداعبات . . وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وماروته عائشة رضى الله عنها من حاله معها ، يؤكد هذا المعنى ويحض على أقوال وأعمال تعبر عن عاطفة وشوق ورغبة فى الامتزاج ، وهى كلها أمور « إنسانية » ترفع الجنس عن مستوى البهائم المقيد المحدود .

وذلك هو « الإحسان » فى أمور الجنس . . أو هو الجمال .

والإسلام كذلك لا ينهى أن يحب الإنسان وجها جميلا أو جسما جميلا ويقدر ما فيه من الجمال وينجذب إليه . . ولكنه لا يبيح ذلك فوضى . . فالطريق إلى الاستمتاع بهذا الجمال هو الطريق المشروع وحده . . لأنه هكذا يقتضى « النظام » .

---

(١) سورة البقرة [١٨٧]

ولكن هذه الإباحة — وميدانها واسع ماعدا الفاحشة — لا تنسى الإسلام سمات الجمال الأخرى التى يرسمها ناموس الوجود فى نطاقه الكبير .

لا تنسيه التناسق . . وهو شرط من شروط الجمال فى ذلك الناموس .

والتناسق يقتضى تنسيق الأهداف الإنسانية ونواحى النشاط .

وحين تنقضى الحياة فى تذوق جمال الجسد وجمال الجنس . . أو حين يأخذ هذا التذوق مساحة فى رقعة الحياة أكثر مما ينبغى له . . فمتى . . متى تتحقق بقية أهداف الحياة و بقية ألوان الجمال ؟

متى يتحقق الجمال الاجتماعى والسياسى والفكرى والروحى ؟

أليست هذه كلها صنوفا من « الجمال » بالقياس إلى الإنسان ؟ !

متى تتحقق العدالة الاجتماعية والسياسية والدولية ، التى يتمتع فيها كل فرد بنصيبه المشروع من الرزق ، والكرامة ، والاستقرار ، والاطمئنان ؟ ويتمتع كل إنسان بوفرة من الجهد ومن المشاعر تتيح له أن يخرج من قيود الضرورة ، ويسعى إلى تحقيق أشواقه العليا ، ويحس بما فى الحياة من جمال ؟

أو ليس يقتضى كل ذلك كفاحا وكدحا ومشغلة بالليل والنهار ؟

فمتى يتحقق ذلك ، وتحقيقه أمر لازم لتنظيم حياة الإنسان ؟

وحين تستغرقنا متع الجمال الحسى ، فماذا يَفْضُلُ لنا من الطاقة وماذا يفضل لنا من الوقت ومن الاهتمام ، نسعى به إلى تحقيق هذا الجمال الأكبر ، الذى يجمّل حياة البشرية عامة ، ويشرك خلفاء الله كلهم فى طيبات الرزق وطيبات الحياة ؟

إنه ليس تحريم الجمال الجنسى وجمال الأجساد . . ولكنه التنظيم والتنسيق والموازنة بين شتى أهداف الحياة .

* * *

ومن هنا تصبح الفنون « الجسدية » كلها إسرافا فى التعبير ، وخللا يفسد الجمال الأكبر فى حياة الإنسان . الرقص . . والنحت . . والصور العارية . . والشِّعر المكشوف . . والقصة التى تتحدث عن فورات الجسد . . والموسيقى الصاخبة التى تعبر عن هياج الشوق فى الجسد الحيوان.. والسينما العارية التى تعرض خليطا من كل هؤلاء .

كلها إسراف من ناحية تجسيمها للجسد ، وعرضه معرض الفتنة أو معرض العبادة والتقديس .

« فاللحن » الإنسانى لحن متكامل ، يعبر عن الإنسان بمجموعه ، لا عن جسده وحده ، ولا عن طريق الأجساد .

والرقص — مثلا — مهما قيل فيه من تنغيم وتوقيع ، لن تعدو حقيقته أنه إبراز لجانب الجسد ، وتعبير عن الحياة عن طريق الجسد . . أى أنه فن يفصل قبضة الطين عن نفخة الروح ويعرض جانبا واحدا من الإنسان .

وبقية الفنون « العارية » غنية عن الكلام !

والفن ينبغى له وهو يعبر عن الحياة الإنسانية أن يراعى التناسق والتكامل والترابط فى هذه الحياة .

وحين يبرز الجنس وحده أو جمال الجسد وحده ، فهو مخل ولاشك بكل هذه الشروط .

فأين يكون فى لوحة الفن الجنسى تصوير الحب بمعناه الشامل ، الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق : الحب الالهى ، والحب الكونى ، والحب الإنسانى ؟

وأين فى هذه اللوحة يكون صراع الخير والشر وتعاقب جولاتهما وتداخلها فى واقع الحياة : ينبت الخير من الشر وينبت الشر من الخير : « وتلك الأيام نداولها بين الناس» ؟

وأين يكون موقع « القدر » . . تلك القوة المحركة الكبرى التي تنسق لوحة الحياة بما توزعه على الناس والكائنات من أقدار : موت هنا وحياة هناك . وهزيمة ونصر . وآلام وآمال . وسعادة وشقاء . وحلاوة ومرارة . ومغانم ومغارم. وإقبال وإدبار . وإعطاء وحرمان ؟

وأين يكون موقع الأشواق العليا التي تحس بها البشرية حين تنطلق من القيد..ممثلة في العقيدةوالإيمان بالله والإيمان بالغيب والإيمان باليوم الآخر .. وأثر ذلك كله في واقع الأفراد وواقع الحياة ؟

الجمال الجنسي جميل . نعم . ولكنه لا ينبغي أن يجاوز مكانه المقدور في لوحة البشرية ولوحة الفنون .

والجمال الأكبر ، المستمد من ناموس الكون ، هو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الإنسانية الرفيعة ، التي تتجاوب تجاوبا صحيحا مع حقيقة الوجود .

وذلك هو الجمال الذي يتصوره الإسلام . .



القدر في التصور الإسلامي

القدر فى حس الإنسان حقيقة هائلة ، رهيبة مخوفة . . مرتقبة ومتّقاة !

ذلك أنها تتصل بالقوة التى تدبر الكون وتصرف الحياة . . القوة التى تمنح وتمنع ، وتسعد وتشقى وتُفْرِحُ ، وتُحْزِنُ ، وتأخذ وتعطى ، وتعذّب وتُرضِى ، وتَحْرِمُ وتغدق ، وتهب الحياة وتأخذ الحياة !

وتتصل فى الوقت ذاته بالمجهول . . بالغيب المحجوب عن الأبصار . .

وتتلفع بالكتمان ! لاتفصح عن سرها قبل أن تقع ، وقد تقع وهى مع ذلك مغلفة بالأسرار !

شئ هائل رهيب ... لاجرم يشعر الإنسان إزاءه بالضآلة والانحسار !

* * *

إن آمال الإنسان لكثيرة . وإن مخاوفه لمتعددة .

يأمل الإنسان أن يعيش أبد الدهر !

فإذا أعجزه الخلود فى هذه الأرض ، وتوالت على حسه طرقات الموت تنذره بأن هذا الأمل مستحيل ، راح يلتمس الخلود فى وسائل أخرى ، فى الامتداد بالنسل تارة ، ومحاولة الامتداد بالذكر تارة ، وتوسيع أفق الحياة تارة لتتسع عَرْضاً إذا استحال اتساعها بالطول . . وبالهروب تارة من واقع الأرض المحسوس كله ، والالتجاء إلى عالم الروح ، الخالد الذى لايصيبه الفناء . .

ويأمل الانسان أن يعيش القَدْرَ المقسوم له من الحياة سعيدا ، خاليا

من المتاعب والآلام والأحزان ، هادئا رضىّ البال ، لاتنوشه المشاغل ولا تفسد هدوءه المنغصات .

و يأمل أن يعيش مطمئنا . . لا تفزعه الأحداث بالأخطار . أخطار الموت والإصابة والمرض والأذى والحرمان .

و يأمل أن يعيش مستمتعاً بالقوة والجاه والسلطان . . « بالبروز » فى أية صورة ، أو فى جميع الصور على الإطلاق !

و إنه ليخاف ....

يخاف أكبر مايخاف الموت ... فهو الذى يحرمه رغبته الأولى . . رغبة الحياة .

و يخاف العجز والمرض والضعف والشيخوخة .

و يخاف الفقر .

و يخاف الأذى .

و يخاف الحرمان ...

وترتبط آماله ومخاوفه بالغيب . .

فهو لايعلم ، ولا يستطيع مهما أوتى من القدرة أن يعلم ماذا يكسب غدا ولا بأى أرض يموت ! « وما تدرى نفس ماذا تـكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » [1] بل لايستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة الواقفة على الأبواب ، بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب ! اللحظة التى لايكاد يفصلها عنه زمن ، ومع ذلك تفصلها عن علمه الآماد والآباد !

---

(١) سورة الفرقان (٣٤) .

فهو لايملك من أمر نفسه شيئاً فى واقع الأمر . وقد يتظاهر لحظة بالقوة . وقد يتبجح لحظة بالسيطرة . وقد يخيِّل إلى نفسه أحيانا أنه قادر ومدبر ومالك لما يأتى من الأمور .

ولكنه فى حقيقة نفسه ، فى أعمق أعماقه . . يدرك الحقيقة . يدرك أنه لايملك القوة ولا يملك التدبير . وأن ضربة من ضربات القدر يمكن أن تأتيه فى أية لحظة فلا يبقى شئ مما أمّل ، ولا يقدر على شئ مما يريد . .

ضربة تفسد كل تدبيره ، أو ضربة تخرجه هو من كل تدبيره ، وتسلب منه الحياة !

لذلك يتطلع دائماً إلى القدر . . يرتقبه ... و يتقيه !

* * *

وحقيقة القدر شديدة الضخامة فى حس البشرية منذ عهودها السحيقة . . وستظل كذلك إلى آخر العصور !

فالمفاجأة دائماً عنصر مرهوب . .

كل شئ يحدث دون أن يراه الإنسان يتضخم وقعه فى حسه ، ولو كان أبسط الأشياء . قد يحتمل الإنسان قدراً كبيراً من الألم وهو ناظر إليه ، عارف لقدره ، مشاهد لحدوثه ، ثم لايحتمل شكة الإبرة البسيطة حين تشكه على غير انتظار !

ذلك من صميم الفطرة . . جزء من كيانها أصيل .

انظر إلى الطفل حين تفاجئه من ورائه بصيحة ، أو لمسة لم يكن لها عنده حساب . . كيف يفزع و يضطرب و يخاف !

ثم انظر إلى الشخص البالغ فى ذلك الموقف نفسه . . ليس هناك فارق كبير !

وهذا الخوف من الأشياء المفاجئة — المتأصل فى الفطرة — يؤدى لهذه

الفطرة مهمة عظيمة ، هى حفظ الحياة ! فلولا الخوف من الأخطار لم يحافظ الإنسان على حياته ، ولم يحقق من الأهداف مايحتاج إلى وجوده سليما موفّر الحياة .

ولكنه — ككل شئ — حين يجاوز قدره المعقول يصبح عنصراً معطلا عن الحياة !

وأيًا كان القَدْرُ الذى يمارسه الإنسان من الخوف ، فالمفاجأة دائمًا عنصر مرهوب بالنسبة إليه . وهو يخشي القدر لأنه دائمًا يفجؤه بالأحداث .

* * *

والقدر فى حس البشرية دائمًا عنيف !

فالبشر لايحسونه وهو سائر معهم فى التيار . وإنما يحسونه وهو معاكس لهم فى الطريق !

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا »(١)

« ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ! إنه لفرح فخور ! » (٢)

لايحسونه وهو يهب لهم أمانيهم ، ويمتعهم ، ويحقق رغباتهم .. كما لا يحس الإنسان بالتيار وهو سابح فى اتجاهه ، بنفس سرعته !

ولكنهم يحسونه وهو يحرمهم مما يرغبون . يحسونه وهو يأخذ منهم حياةً عزيزة عليهم . أو يصيبهم فى ذات أنفسهم بصنوف مختلفة من الألم والعذاب والحرمان . . سواء مايصيب الأجسام وما يؤلم النفوس .

ويزيد من وقعه فى حسهم أنهم لايفهمونه ولا يدركون أسراره .

---

(١) سورة الإسراء [٨٣] (٢) سورة هود [١٠]

لماذا اختطف الموت تلك الطفلة البريئة التى ليس لها « ذنب » ، والتى كانت وحيدة أبويها ، المتعلقين بها ، تتمثل فيها بالنسبة إليهما كل معانى الحياة ؟

ولماذا اختطف الموت ذلك الرجل وهو العائل الوحيد لأسرته ، لاموئل لهم غيره ، وهم عديد من زوجة وأطفال وأقرباء ؟

لماذا انهزمت الفئة المؤمنة المخلصة التى تقاتل فى سبيل الله ، لاتبتغى سوى مرضاته ، وتركت بهزيمتها الميدان للباطل ، ينتفش فيه وحده ، ويعلو فى الأرض ، ويتمكن له السلطان ؟

لماذا انتصر الشر على الخير ، فيئس الناس من مصير الخير فى الأرض ، وتهاوت نفوسهم ، واندفعوا فى طريق هابط ، لايعملون لنصرة حق ولا يتورعون عن ارتكاب الآثام ؟

لماذا رزق هذا الرجل الصالح بولد مجرم يعيث فساداً فى الأرض ، ويهلك الحرث والنسل ؟

لماذا غرقت هذه السفينة واحترقت هذه الطائرة ووقع ذلك الزلزال المدمر العنيف ؟

لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه فى الحادثة وليس له من يرعاه ؟

لماذا يظل هذا الشيخ حياً وقد هدّه المرض والعجز والشيخوخة ، ويموت ذلك الشاب الصاعد نحو القمة الممتلىء بالحياة ؟

وألوف من الأسئلة وألوف من التعجبات . . لا يدرك البشر كنهها ؛ فتتمثل لهم « قسوة القدر » فى تصريف الأمر ، أو يتمثل لهم كأنه يخبط خبط عشواء .

* * *

والفنون البشرية منذ القدم تعالج أمر القدر فى الشعر والقصة والأقصوصة والمسرحية . . إلخ . وتعالجه — فى معظم الأحوال — فى ثوبه الفاجع المنيف .

والأدب اليونانى بصفة خاصة يفرد للقدر رقعة فسيحة فى لوحته الفنية . لا تخلو مأساة من مآسيه من هذه العقدة التى هى فى الواقع عنصر المأساة فيه : وهى موقف البشر العاجز الضعيف أمام القدر ، مهما حاولوا تحديه والتغلب عليه ، وعنف ضربات القدر للذين يتحدونه خاصة،ويريدون أن يتصرفوا على أساس أنهم هم المالكون والمدبرون.حتى الآلهة الأسطورية ليست معفاة من ضربات القدر الجبار !

وعناية الأدب اليونانى بحقيقة القدر فى حياة الناس وسير الأحداث هى فى ذاتها عناية صائبة . فهى كما قلنا حقيقة ضخمة فى حس البشر . بل هى كذلك فى صميم بنية الكون . ولكن هذا الأدب مع ذلك لم يستقم فى تصويرها . . بل وقع — رغم روعته وضخامته — فى أحد الاختلالات الكثيرة التى تسم هذا الفن .

لقد صور العلاقة بين البشر والآلهة — كما ذكرنا من قبل — علاقة مباغضة ومشاحنة وحرب دائمة لا تفتر من هذا الجانب ولا ذاك . وصور هؤلاء الآلهة طغاة بغاة تغلب عليهم شهوة السلطان والسيطرة ، ومحاولة إخضاع البشر لأحكامهم الجائرة ، التى لا معنى لها ولا هدف من ورائها غير هذه الشهوة المتجبرة المحمومة . ثم صور لهؤلاء الآلهة نزوات من الغضب ونزوات من العشق المنحرف ، يتورع عنها الإنسان العادى فضلا عن « الآلهة » المتصرفين ! ومن ثم جاء « القدر » فى آدابهم بهذه الصورة العنيفة القاسية القاصمة ، المتحكمة فى الناس بلا منطق ولا ضرورة ولا هدف علوى ، والتى لا تريح القلب البشرى فى كل حالة إلى عدالة السماء أو حكمة الأقدار . ثم انحرفوا انحرافا تصوريا آخر ،

فصوروا القدر قوة عمياء لا تعنى هؤلاء الآلهة المتجبرين أنفسهم من ضرباتها كما يضربون هم البشر ، وهى تضرب البشر والآلهة على السواء .

وعن هذا التصور المنحرف — برغم ما فيه من روعة الأداء وقوة الإيحاء — التصور الذى يصور حقيقة القدر من الظاهر الصغير المكشوف لمدارك البشر ، والذى يصيبون فى تصوره مرة ويخطئون مرات ، ولكنه لا يصوره من حقيقته الكونية العميقة الشاملة . . عن هذا التصور أخذت كثير من الفنون الغربية — وريثة الأدب اليونانى — فصورت هذا « الصراع » بين البشر والقدر . . يبدو فيه البشر — فى معظم الأحوال — فى الجانب المعقول المفهوم المفسَّر المبرَّر ، ويبدو القدر فى الجانب الغاشم الذى لا تفسير له ولا تبرير ، سوى شهوة التحكم وإذلال البشرية !

ثم جاء وقت جنحت فيه بعض الآداب الغربية الحديثة عن معالجة القدر المتلفع بالغيب ، المتعلق بإرادة الله — أو الآلهة — واستبدلت به قدراً آخر فى صورة محسوسة ملموسة ، تمشياً مع التحول الذى حدث فى الفكر الأوربى كله فى القرنين السابقين ، فى الانتقال من وراء الطبيعة إلى الطبيعة ، ومن المجهول إلى المعلوم ، ومما لا تدركه الحواس إلى ماتدركه الحواس . . استبدلت بفكرة الله والغيب المجهول قوىً أرضية خالصة ، كقوة « الطبيعة » أو قوة « المجتمع » أو قوة « الدولة » أو قوة « الطبقة » . . محاوَلةً منها أن تفسر « الله » فى صورة معقولة مفهومة مُحسَّة ، وأن تصغر من قَدْرِهِ فى ذات الوقت إلى جانب قوة الإنسان ، انتقاما « لبروميثيوس » القديم الذى غلله زيوس فى الأغلال !! ولكنها مع ذلك ظلت محافظة على طبيعة العلاقة بين البشر وهذه القوى ، على نفس الصورة التى كانت تشكل علاقة البشر بآلهة اليونان . . صورة الصراع والبغضاء .

فصار « البطل » فى الأدب الحديث لا يصارع الآلهة ولا القدر المغيّب

فى المجهول . وإنما يصارع الطبيعة . أو يصارع المجتمع . أو يصارع الطبقة التى تملك وتحكم . . وكلها صراعات تحكمها البغضاء والشحناء ، ورغبة تلك القوى فى سحق البطل وتفتيته . . ثم تكون « المأساة » حين تنجح تلك القوى فى التحطيم ، كما كانت تنجح آلهة اليونان فى سحق المتمردين على سلطانها المهول ، أو كما كانت تنجح الأقدار فى تحطيم الآلهة والناس سواء !

وفى الوقت ذاته أصغرت هذه الآداب — وهذا الاتجاه الفكرى كله — من قيمة الإنسان حين أصغرت من قدر الله . . فقد كان الإنسان — رغم سلبيته المطلقة إزاء الله — يقف على مستوى عالٍ من الإرادة والذاتية والتصرف فى قوى المادة وقوى المجتمع وخط سير الحياة ، فصار — فى المفهوم الحديث — يقف موقف السلبية الخانعة من قوى المادة وقوى الاقتصاد ، وقوة المجتمع ، كلها تفرض عليه سلطانها وإرادتها ، وهو وحده بلا إرادة ولا سلطان !

لقد أرادت هذه المفاهيم أن تلغى الله لترفع الإنسان . . فكانت النتيجة أن ألغت كيان الإنسان حين ألغت إلهه المعبود ! لأنه فى الحقيقة يستمد وجوده من ذلك الإله !

وهذا هو الانحراف الذى يسيطر على هذه المفاهيم كلها ، وما ينشأ عنها من آداب ، رغم ما لها من روعة وقدرة فائقة فى التأثير .

* * *

والتصور الإسلامى للقدر واسع شامل محيط .

القدر هو إرادة الله . . المسيطرة على الكون والحياة والإنسان . المسيطرة على كل دقيقة من الدقائق ، وكل تفصيلة من التفصيلات .

لا شىء فى الوجود يحدث مصادفة . ولا شىء يحدث جزافا بلا حساب .

ولا شيء يحدث بلا غاية . . .

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك . . »[١]

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ؟ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ »[٢]

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين »[٣]

« ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق »[٤]

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم »[٥]

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »[٦]

ويقول « العلم » الحديث كلاما كثيرا فى خلق الكون .. دقته وانضباطه وترابطه وتناسقه . . وأنه لا يمكن أن يحدث كل ما فيه من موافقات دقيقة بغير غاية ولا خالق مدبر مريد .

يقول جيمس جينز ، العالم الفلكى الذى بدأ حياته ملحدا شاكا : « إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله » .

ويقول ا . كريسى موريسون ، رئيس أكاديمية العلوم بنيورك فى كتابه « العلم يدعو للإيمان » : « إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر

(١) سورة آل عمران [١٩٠ — ١٩١]
(٢) سورة المؤمنون [١١٥]
(٣) سورة الأنبياء [١٦]
(٤) سورة الحجر [٨٥]
(٥) سورة التغابن [٣] .
(٦) سورة الجاثية [٢٢] .

الضخمة لذكائه ، إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .

« إن الإنسان ليكسب مزيداً لاحد له من التقدم فى كل وحدة من وحدات العلم . غير أن تحطيم ذرة دالتون — التى كانت تعتبر أصغر قالب فى بناء الكون — إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب و إلكترونات طائرة ، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحياة تبديلا جوهريا . ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى . و إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتفتح مجالا للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة » .

ويعدد هذا العالم وغيره مئات من الموافقات الدقيقة فى خلقة الكون ، لو اختل أى واحد منها لما انتظم الكون فى دورته المنتظمة الدائمة . . ولما ظهرت الحياة على سطح الأرض ولا ارتقت . . لو زادت نسبة الأكسيجين فى الهواء فاحترق كل حى أو قلت فماتت الأحياء أو خمدت . . لو زاد الماء على سطح الأرض أو قل . . لو زادت اليابسة أو قلت . . لو اقترب القمر من الأرض فزادت قوة جذبه وارتفع مد المياه على الأرض أو لو بعد . . لو اقتربت الأرض من الشمس فالتهب كل ما على سطحها من الحياة أو بعدت فمات كل حى . . إلخ . . إلخ . . .

وكلها تشهد بهذه الحقيقة التى تدركها الروح بداهة — من قبل ذلك العلم — أن للكون خالقا مدبرا يخلق بقدر ما يشاء و يدبر الأمر . .

تلك أول بديهية من بديهيات « القَدَر » فى خلقة الكون .

ثم الله هو الذى يدبر كل أمر فى هذا الوجود كله ، وفى حياة الإنسان : « بيده ملكوت كل شىء »[1] .

---

(١) سورة يس [٨٣] .

« بيده الملك وهو على كل شيء قدير »[١] .

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »[٢] .

ثم إنه يدبر الأمور كلها بالحق :

خَلقُ السماوات والأرض بالحق .

وخلق الإنسان بالحق .

وتصويره فى أحسن صورة هو بالحق .

ورجعته إلى الله فى اليوم الآخر بالحق ، ومن أجل الحق . .

وهنا مفرق الطريق بين الوثنيات القديمة والحديثة وبين الإسلام . .

كل وثنية تؤمن بأن الكون قد خلق مصادفة بلا خالق ، أو بلا خالق مدبر . .

وكل وثنية تؤمن بأن الإنسان وجد فى الأرض مصادفة — بتطور أو بغير تطور . . .

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان فى الأرض لا يحكمها ضابط ، أو لا يحكمها ضابط عاقل ، أو لا يحكمها ضابط عادل يقدر تصرفاته ويصدرها بالحق . .

وكل وثنية تؤمن بأن حياة الإنسان محصورة فى نطاق الأرض الضيق ، محصورة فى الحياة الدنيا ، منقطعة عن حقيقة الأزل والأبد ، منتهية بلا رجعة ولا جزاء . .

كل هذه الوثنيات ضالة منحرفة ، منقطعة الصلة بناموس الوجود الأكبر ، الذى يحكم الكون والحياة والإنسان . .

---

(١) سورة الملك [١] .
(٢) سورة آل عمران [٢٦] .

إن النظر فى هذا الناموس الأكبر يفتح البصيرة على « الحق » الشامل الكامل الذى يصرف لأمور .

وقد سبق من قول « العلم » ما يبين ما فى خلق الكون من حق . . وأنه ليس مصادفة بلا مدبر عاقل حكيم .

وليس من طبائع الأشياء أن تكون هذه الدقة العجيبة المتناهية موجودة فى خلق السماوات والأرض ، وغائبة بعد ذلك عن حياة الإنسان !

فالحق الذى شمل هذا الكون لواسع الذى يُذْهِلُ الإنسانَ مجردُ تخيله ، لن يتوقف عن السريان بالنسبة لتلك النقطة الصغيرة الضئيلة فى هذا الكون ، ولا بالنسبة لكائن واحد من كائنات هذه النقطة السابحة فى الفضاء .

حقا . . إن الله كرم الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض . ولكن هذا ليس معناه أنه أخرج حياته من الناموس الأكبر الذى شاء سبحانه أن يحكم الوجود كله . . ناموس الحق .

بل كان من التكريم له أن يصله بالناموس الأكبر ، فلا يتركه ضائعا منقطعا ، متفردا وحده بالتيه والضلال فى الكون المهتدى كله بهداية الله . .

كان من التكريم له أن يجعل لحياته غاية ، ويجعل حاكمها هو الحق ، ويجعل كل خطوة من خطواتها وكل تفصيل من تفصيلاتها ، مرتبطا بتلك الغاية ومحكوما بذلك الحق .

وكان من التكريم له — إذ جعل حياته محكومة بالحق — ألا تنتهى حياته فى هذه الأرض ، التى لا تكتمل فيها الصورة ، ولا يتبدى فيها الحق — حين تقتطع عن بقيتها المكملة لها — ولا تنتهى الأمور فيها نهايتها العادلة المستفادة من « الحق » . . وإنما جعل هذه الحياة الدنيا اختبارا وبلاء للناس ،

وفرصة للعمل من كل لون وصنف ، ليتم الجزاء العادل عن هذا الاختبار فى يوم الجزاء . . يوم تستكمل الصورة و يحق الحق :

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(١)

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون »(٢)

و بذلك تستقر الأمور على ركيزتها الحقة فى حياة الناس . .

إن « القدر » الذى يصرف حياة الناس هو إرادة الله . وهو الحق ، لأنه قدر الله و إرادته .

وهو لا يجرى بلا غاية . فكل ما فى الوجود يجرى لغاية .

وهو لا يجرى بالظلم . . فالظلم محال على الله .

وهو لا ينهى الأمور فى هذه الأرض ، لأن الأرض ليست نهاية الحياة ؛ واقتطاعها وحدها من الصورة يفسد ما فيها من الحق ، و يخلّ بالنسب والموازين .

وتنفسح الحياة بهذا التصور الشامل فلا تنقطع عند نهاية الحياة الدنيا ، ولا نهاية حياة فرد ولا حياة جيل .. و إنما تمتد من الدنيا للآخرة .. ومن الأرض للسماء . . فسحة للنفس البشرية تعيش فيها على نطاق أوسع ، وفسحة للفنون . . !

* * *

والبشر لا يدركون حقيقة الصورة لأنهم يقطعون رباطاتها ، وينظرون إليها أجزاء وتفاريق . .

ينظرون إلى حياة فرد بعينه أو حياة جيل . . و يقفون عند الحادث المفرد

---

(١) سورة الملك [٢]　　(٢) سورة الجاثية [٢٢]

كأنه « المقطع » الأخير فى الصورة . . أو يقفون عند هذه الأرض . . فلا تتبين لهم الملامح ، و يظنونه خبط عشواء . .

لماذا ماتت الطفلة . . ولماذا عاش الشيخ . . ولماذا وقع الزلزال . . ولماذا هزم الحق وانتصر الطغيان ؟ !

والإسلام يرد الناس عن الوقوف عند تلك الحوادث المجزأة المنقطعة ، ويدعوهم إلى لوحة أوسع ، يشاهدون فيها سير الحياة :

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؟ فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال : ذلك ما كنا نبغ . فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشدا ؟ قال إنك لن تستطيع معىَ صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ! قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا . حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ! قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا ! قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا . حتى إذا لقيا غلاما فقتله . قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا ! قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا . حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا ! قال :

هذا فراق بيني و بينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رُحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، و يستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك . وما فعلته عن أمرى . ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبرا »[١] .

قصة موسى مع عبد الله الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلمه العلم اللدنى الذى يتجاوز الحادثة المفردة واللحظة الحاضرة إلى ما وراءها من الحوادث وما وراءها من الأجيال . . و يربط ذلك كله بعلم الله الشامل وأمره النافذ بالحق .

إنها تفتح للقلب البشرى مجال التأمل فى اللوحة الواسعة ، فلا يحصر انتباهه فى اللحظة الحاضرة يحاول تفسيرها وحدها منقطعة عن ارتباطاتها اللانهائية بالأشياء والأشخاص والأحداث .

وهى لا تقول له — مع ذلك — إن البشر سيدركون فى كل حالة حكمة الأحداث ! فعمر الفرد القصير وعلمه القاصر لن يتيحا له الاطلاع على اللوحة بأكملها ، وفيها جانب محجوب عنه فى عالم الغيب ، هو الجانب الذى لم يتحقق بعد فى واقع الحياة ، والذى يحمل تكملة أحداث اليوم ، وما يترتب عليها من نتائج لاتدخل فى الحسبان !

و إنما تقول له فقط إن هناك حكمة وراء الأحداث ! إنها ليست اعتباطاً ، بلا غاية ولاضابط . إنها ليست منفصلة كل منها قائم بذاته لايترتب عليه شئ . إنها ليست مقطوعة عن علم الله وتدبير الله !

(١) سورة الكهف [٦٠ — ٨٢]

وتقول له : إن هذه الحكمة حق وعدل لا باطل فيها ولا ظلم ! فمن وراء علم البشر القاصر علم الله المحيط ، ومن وراء الحادث الذى يبدو ظالما اليوم — لأنه مقتطع من صورته المتكاملة — يتحقق عدل وخير كثير .

وتقول له : إن الله هو الملجأ لأنه هو العالم بما وراء اللحظة الحاضرة ، وبما يمكن أن يترتب على الشر الظاهر من خير حقيقى ، أو يترتب على الخير الظاهر من شر حقيقى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » (١)

ومن ثم يطمئن القلب البشرى إلى قدر الله ، ويستسلم له ويرضاه !

* * *

ذلك فارق ما بين الإسلام والوثنية فى تصور القدر .

وهو فارق عظيم . .

ليس أقل مايترتب عليه تصحيح التصور وتصحيح المقاييس .

فالإنسان — خليفة الله فى الأرض — لاينبغى له أن يعيش فى تصور خاطئ وهو يملك أن يرى الصواب . لاينبغى أن يكون تفكيره وتصوره محصوراً فى دائرة ضيقة منقطعة عن ناموس الحياة الأكبر ، وهو يملك طلاقة الفكر وطلاقة التصور والاتصال بالناموس الكبير .

وليس أقل مايترتب عليه تصحيح المشاعر بعد تصحيح المقاييس .

فحين يستقيم للإنسان تفكيره ، حين يجعل تصوره مساوقا لناموس الحياة لامنقطعاً عنه ولا مصادما له ، حين تنفسح أمامه الصورة فلا يشوهها النظر

(١) سورة البقرة [٢١٦]

إلى جزئياتها المتفرقة بلا رابط ، حين يرى رقعة الحياة الكبيرة ووجود القصد من ورائها واستقامة الغاية .. حينئذ تستقر نفسه وتنطلق مشاعره سليمة من القلق والاضطراب .

إن القلق العنيف الذى يستولى على النفس حين لا ترى حكمة القدر وغايته ، حين تؤمن بأن الوجود بلا غاية والحياة بلا أهداف ، حين تؤمن أن الحادث المفرد واللحظة الحاضرة هى القول الأخير فى أى أمر ؛ حين تؤمن أن الحياة تنتهى هنا ، بانتهاء هذا الفرد أو بانتهاء هذه الأرض .. هذا القلق مدمر محطم مميت ..

إنه هو الذى يجعل الحياة نهبة تنتهب ، وصراعا وحشيا على لذائذ الحياة ..

وهو الذى يشيع فى العالم اليوم مايشيعه من انحلال وتفكك ، وحيرة وتخبط ، وصراع يوشك أن يصيب العالم بالدمار .

فأما حين تطمئن النفس إلى قدر الله .. والحق الذى خلقت به السماوات والأرض .. والعدل فى البلاء والعدل فى الجزاء .. فعند ذلك تنطلق من القلق المدمر المشتت ، تنطلق تعمل نشيطة فى سبيل الخير ، لأنها طليقة طلاقة الناموس الذى يحكم الوجود ، ويربطه بعضه إلى بعض برباط الجاذبية الرخية الودود ، لا برباط التوتر الصارم العنيف !

وذلك موقف المسلم من القدر : التسليم للمغيّب المجهول ، والعمل فى نطاق الظاهر المعلوم .

* * *

إن المسلم الذى يؤمن بالتصور الإسلامى على بصيرة ، لا يجزع ولا يقلق ولا يضطرب لما يترقبه من قدر الله ، لأنه قد سلم أمره إلى الله ، واطمأن إلى إرادته فيه ، واطمأن إلى أنه لا يريد له فى النهاية إلا الخير . تهديه فى ذلك علاقة المودة

لله والحب ، والرضى المتبادل من الجانبين « رضى الله عنهم ورضوا عنه »(١) ولا تحكمه قط علاقة البغضاء والشحناء والصراع ، التى لوثت أساطير الإغريق وأفسدت شعورهم بالله .

وهو فى الوقت ذاته لا يتوا كل عليه بحجة أن القدر مكتوب ، ولا ينفذ إلا ما أراده الله ! . .

حقا . لا ينفذ إلا ما أراده الله . ولكن قدر الله مغيب عن الأبصار . وليس يدرى أحد مقدما ما سيكون . ومن ثم ينبغى العمل . . العمل الدائب الذى لا يفتر : « خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(٢) . « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم »(٣) « وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(٤) .

العمل الدائم فى كل لحظة . . ولكن بلا قلق ولا جزع ولا اضطراب .

***

والصراع يحدث فى الأرض . ولكنه ليس صراعا مع القدر !

ليس هناك مايوجب الصراع مع القدر ، فقد اطمأنت النفس إليه ، ورضيت بحكم الله مطمئنة أنه الخير . . ولو لم يتكشف لصاحبه فى حينه ، بل لو لم يتكشف لعدة أجيال !

وإنما يكون الصراع مع الشر الكائن فى الأرض . . ويكون من أجل الخير وفى سبيل الخير :

(١) سورة المائدة [١١٩]
(٢) سورة هود [٧]
(٣) سورة آل عمران [١٩٥]
(٤) سورة التوبة [١٠٥] .

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1] .

يصارع الإنسان قوى « المجتمع » ، وقوى « الطبقة » . . إذا طغت عن حدها ومالت إلى الظلم . ولكنه لا يصارعها وفى حسه أنها « القدر » ! ولا أنها البديل من الله !

وإنما يصارعها وهو مرتبط بالله ، مترقب لقدر الله ، مطمئن إلى حماه .

ولا يستعجل نتيجة الصراع . .

إن الصورة لا تكتمل فى حياة فرد ولا فى حياة جيل . . ولا من الحادث المفرد واللحظة الحاضرة .

وقد يستغرق اكتمال الصورة حوادث متعددة وحيوات أفراد متعددة وحيوات أجيال . .

أو قد يستغرق الحياة الدنيا كلها .. ولا يكتمل إلا فى الآخرة يوم الجزاء ..

ولكنه يكتمل فى كل حالة . . فذلك هو ناموس الكون المتكامل الشامل المحيط ، القائم بالحق فى جميع الأحوال .

* * *

وانفساح الحياة على هذا النحو ، وانفساح التصور ، فوق أنه حقيقة واقعة يشهد بها ناموس الوجود كله ، فهو حقيقة « فنية » رائعة حين يراد تصويرها فى الفنون .

والأدب اليونانى مثل من الروعة الفنية فى تصوير القدر . . ولكنه تصوير

---

(١) سورة البقرة [٢٥١] .

ناشىء عن تصور ناقص ومنحرف . تصور يأخذ الصورة من جانب واحد ، غير متكاملة الترابط مع بقية الأجزاء . . ويأخذها من جانب انحراف وثنى فى تصور العلاقة بين البشر والله .

والتصور الإسلامى المستقيم المتكامل حرى بأن ينشىء فنا آخر . . فنا يعرض حياة الأفراد والجماعات ، والحوادث والأحداث ، خلواً من اختلالات الفن اليونانى ، ويعرض الصورة على حقيقتها المتمثلة فى كل كيان الوجود .



حقيقة العقيدة فى التصور الإسلامى

ما العقيدة ؟

لماذا يؤمن الإنسان بوجود إله . . ثم يتجه له بالعبادة . . ويحبه ويخشاه ؟

لم تقف البشرية لتسأل نفسها هذا السؤال . . سواء وهى تؤمن بالله الإيمان الحق ، أو وهى تعبده على ضلالة . . فى صورة وثن أو طوطم[1] . . أو تعبده وتشرك به آلهة أخرى ليقربوهم إلى الله زلفى .

لم تقف لتسأل نفسها هذا السؤال ، لأنه كان فى حسها بديهية لا تحتاج إلى سؤال . .

حتى أصابت أوربا النكسة فى الحقبة الأخيرة ، فراحت تسأل نفسها منكرة وجود الله ، بل منكرة وجود إله على الإطلاق . . زاعمة أن ذلك كله كان أساطير الأولين !

هذه الحقبة ذاتها هى التى اضطربت فيها الموازين فى أوربا ، واهتزت القيم ، واختلت الأفكار .

الحقبة التى آمنت فيها بحيوانية الإنسان وماديته . وأبت أن تؤمن إلا بما تدركه الحواس .

الحقبة التى أرادت فيها أن « تحرر » الإنسان من عبادة الله . . فأخضعته

---

(١) الطوطم (Totem) معبود تعبده القبيلة يكون فى الغالب حيوانا معينا تعتقد القبيلة أن دماءه تجرى فى كل فرد من أفرادها ، وهم يقدسونه فلا يذبحونه إلا فى مناسبات دينية خاصة ، وعندئذ يشربون دماءه لتجرى فى عروقهم من جديد . ولكل قبيلة طوطمها الخاص .

لجبرية المادة وجبرية الاقتصاد وجبرية التاريخ .. وألغت كيانه الذاتى من الوجود .

* * *

فى فترة من الفترات كانت أوربا مسيحية . .

وأيا كانت درجة إيمانها بالمسيحية ، ودرجة تغلغل العقيدة الإلهية فى النفوس التى درجت على الوثنية ردحا طويلا من الزمن يمتد إلى عشرات القرون . . فقد كانت المسيحية هى الطابع العام للتفكير الأوربى ، وكانت العقيدة فى الله هى القاعدة لهذا التفكير .

ثم حدث تطور كان فى ظاهره فى صالح الدين ، بينما كان عَدُوًّا للعقيدة فى حقيقة الأمر . ذلك هو ازدياد نفوذ الكنيسة ، وامتداد سلطانها ، حتى أصبح هو المسيطر على كل شئون الحياة .

لقد صار للكنيسة سلطة لا فى داخل نطاقها الروحى وحده — المستفاد من تصور الكنيسة ذاتها للدين — بل صارت الكنيسة سلطة زمنية إلى جانب السلطة الروحية ، صارت تعزل الملوك وتوليهم ، وتجيّش الجيوش ، وتملك الإقطاعيات كأمراء الإقطاع ، وفوق ذلك كله تتحكم فى الناس بالإتاوات الجشعة ، والتهديد بالطرد من ملكوت الله ، والإخضاع المذل لرجال الدين .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل قامت الكنيسة تؤلف نظريات « علمية » عن الكون والأفلاك ، وشكل الأرض وعمرها ، وعمر الإنسان . . إلخ . وتلزم الناس بالإيمان بها على أنها جزء من العقيدة من لم يؤمن به فهو كافر وخارج على الله .

فلما قام العلم النظرى والتجريبى ، القائم على أساس البحث والاستقراء والتجربة ، والذى ترجع جذوره إلى طرائق العلم الإسلامى ومناهجه فى الأندلس

كما قال « بريفولت» . . لما قام هذا العلم يثبت خطل هذه النظريات « المقدسة » ، قامت قيامة الكنيسة ، اعتزازا منها بسلطانها ، وخوفا على القطيع البشرى الذى تحكمه أن يفلت من بين يديها ، فيذهب عنها نفوذها وهيبتها ، وذَهَبُها وفضتها ، وما تتمتع به من استعباد للناس . وراحت فى فظاظة ووحشية تقتّل العلماء وتحرّقهم لأنهم قالوا بكروية الأرض ، وأنها ليست مركز الكون . ونال كوبرنيكوس وجاليليو على يديها ما يكفى لتكفير الناس من ذلك السلطان .

وظلت الهوة تتسع بين الكنيسة والعلماء من ناحية ، و بين الدين والعلم من ناحية أخرى ، والنفور يزداد ، حتى كان دارون ، الذى يوسم فى الفكر الأوربى بالبطولة ، لأنه وجه الضربة القاضية للكنيسة ، فلم يعد وجودها بعد ذلك إلا لوناً من القصور الذاتى ، لا وزن له فى حقيقة الأمور(١) .

فى هذه الفترة ، وعلى هَدْى ذلك الصراع بين الكنيسة والعلم ، وترنح الكنيسة تحت معاول الهدم التى تتخذ « الحقائق » العلمية سلاحا لها ضد « أساطير » الكنيسة . . انفلت الناس من السلطان الجائر الذى كان يخضعهم من قبل ويذلهم . وشعروا أنهم « يتحررون » . ولكنهم فى ثورتهم الجامحة المنفلتة من القيد ، لم يقفوا ليسألوا أنفسهم : هل الكنيسة هى الخاطئة أم الدين هو المخطىء . . بل أخذوها حسبة واحدة مختلطة الأجزاء ، ورموا الكنيسة والعقيدة فى الله معاً من قلوبهم وأفكارهم ، وعادوا إلى وثنيتهم اليونانية الرومانية الأولى . . ولكن مع فارق خطير . .

ففى تلك الوثنية الأولى كانوا يؤمنون « بالدين » ثم تنحرف أفكارهم فى تصور طبيعة القوة الخالقة المدبرة ، فيتصورونها آلهة متفرقة ، ثم يتصورون العلاقة بينها و بين البشر علاقة مشاحنة دائمة و بغضاء . .

---

(١) انظر كتاب « معركة التقاليد » فصل « جولة مع التاريخ » .

أما اليوم فهم يقتلعون الدين ذاته من أساسه . .

لقد « تقدموا » ! لم تعد تنطلى عليهم الأساطير !

لا حقيقة إلا ما تدركه الحواس !

« والدين » و « الله » و « العقيدة » أمور لا تدركها الحواس !

* * *

لقد كانت « أزمة ثقة » . .

أزمة أفسدت العلاقة بين الناس وبين كل ما كان يصل إليهم عن طريق الكنيسة ورجالها ، سواء أكان حقيقة منزلة أم كان خرافة ابتدعها رجال الدين .

ولكن هذه الأزمة لم تقف عند حدها المعقول ، ولم يُفِق منها الأوربيون من قريب .

فبدلا من أن ينظفوا الطريق من الأوحال والقاذورات ، ويسيروا فيه على نظافة لأن السير فيه جزء من طبيعة الحياة ذاتها ، وضرورة لازمة لكيان الإنسان . . بدلا من ذلك فإنهم أهملوا الطريق كله وجعلوه من وراء ظهورهم ، وراحوا يَزْوُون وجوههم عنه فى ضيق وعناد ونفور .

لقد آثروا أن يقطعوا الجناح الذى يرفرفون به فى عالم العقيدة ، وعالم الطلاقة ، وعالم الروح . . لأن أثقالا قد علقت بهذا الجناح ، أو وخزاتٍ قد أدمته . . ثم . . جثموا على الأرض لا يستطيعون التحليق بأرواحهم فى عالم النور .

آثروا أن يقطعوا كل صلتهم بالسماء ، لأن بعض المدلسين قد استغفلوهم ردحا من الزمن باسم السماء . . فلم تعد وجوههم تتطلع إلى أعلى ، وإنما صارت

تنظر إلى تحت . . إلى الطين . . إلى الأوحال . ويقولون هذا هو الواقع . . لأنه هو الذى تدركه الحواس !

وانطلق « العلماء[1] » يشرَعُون أسلحتهم لمهاجمة العقيدة وتشويه صورتها وتسخيفها ورميها بكل منكر من القول غليظ .

فرويد — فى حمأة الجنس التى عاش فيها بتصوراته وأفكاره — قال إن العقيدة إفراز جنسى ، ينشأ من عقدة أوديب . من كبت الطفل لرغبته الجنسية نحو أمه ، بسبب وجود الأب الذى يزاحمه ويطرده من الطريق ! (وبهذه المناسبة لم يقل لنا فرويد كيف تنشأ عقدة أوديب فى نفوس الأطفال الذين يموت آباؤهم قبل أن يروا النور ؟ . . وكيف ينشأ الضمير فى نفوس هؤلاء الأطفال وكيف ينشأ الدين ، وهما الإفراز المباشر لتلك العقدة اللعينة التى عذبت ذلك « العالم » العظيم !) .

وماركس — فى حمأة الاقتصاد التى عاش فيها بتصوراته وأفكاره — قال إنها إفراز اقتصادى ! تنشئه طبيعة المجتمع « الطبقى » ، وتستغله الطبقة التى تملك وتحكم ، لإخضاع الطبقة المحكومة ، والتغرير بها لتنسى حقوقها المسلوبة ، تحت تأثير المخدر الذى يمنيها بالتعويض عن حرمان الأرض بحياة أخروية مزعومة (وبهذه المناسبة لم يقل لنا ماركس لماذا وجد الدين فى المجتمع « الشيوعى » الأول الذى لم يكن يمارس الملكية الفردية — فى ظنه — ولم ينقسم إلى طبقات ؟ وما المهمة التى كان يومئذ يستغل فيها الدين ؟ !) .

وقال غيرهما من « العلماء » أشباها من هذه الانحرافات . .

وأخذت الفنون الأوربية — والماركسية خاصة — تجند طاقاتها للتشنيع

---

(١) وخاصة اليهود — مثل فرويد وماركس — الذين وجدوا فى ثورة الناس على الكنيسة فرصة مناسبة لتحطيم المسيحية عدوهم القديم .

على العقيدة والزراية بها . . أو فى القليل تهملها كأنما ليس لها وجود فى واقع الحياة ولا خط سير البشرية . . ثم تجئ الفنون المزوّرة التى تعيش فى الشرق العربى اليوم بلا غاية ولا هدف ولا أصالة ولا وعى ، فتقلد هذا الأدب المنحرف ، بل تزيد إسفافا عنه ، فتمثل الحقيقة الإلهية الكبرى فى حقيقة بشرية محدودة فانية . وتمثل الملأ الأعلى وساحة الوجود الكبرى فى حديقة أرضية . وتمثل حقيقة الحياة البشرية الواسعة المديدة فى حياة حارَة . وتمثل حقيقة النبوة والرسالة فى شخصية حشاشين ! !

نكسة مخزية فى عالم الإنسان وفى عالم الفنون !

* * *

العقيدة حقيقة عميقة فى كيان هذا الوجود . .

كل مافى الوجود مهتدٍ إلى الله ، سائر على هداه :

« ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه . ثم هدى » (١)

وليست هذه « حقيقة روحية » فحسب ، تدركها الروح الواصلة ، المتصلة بضمير الوجود ، الشاعرة بوحدة الاتجاه ووحدة العبادة ، وأن كل شئ يسبح بحمده : « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » (٢) « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » (٣) وكل شئ يتجه لعبادته : « سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٤)

ليست حقيقة روحية فحسب ، تدركها الروح الواصلة ، وإنما هى كذلك « حقيقة علمية » .

---

(١) سورة طه [٥٠]
(٢) سورة الإسراء [٤٤]
(٣) سورة الرعد [١٣]
(٤) سورة الحديد [٥٧]

فأى شئ فى هذا الوجود لايسير على القانون الذى أراده له الله ؟ أى فلك من الأفلاك يجرى على مزاجه الخاص ، غير مُرَاع لناموس الخلق ؟ أى كائن من الكائنات لايسير على الفطرة التى فطره عليها الله ؟ أى كائن ينشئ له قانونا خاصاً يضاد قوانين الله ؟

ذلك معنى العبادة . . الطاعة للخالق ، والعمل بمقتضى إرادته . .

إلا الإنسان : المخلوق الذى كرّمه الله وفضله ، ومنحه الإدراك والوعى ، فجعل طاعته لله واعية مُدْرَكَة ، لا كبقية الطاعات التى يتقدم بها الكون لمولاه . . ومنحه حرية الاختيار بعد أن علمه ووعّاه . .

عندئذ اختار فريق من بنى الإنسان أن يخرجوا على طاعة الله ، جزاء التكريم الذى كرمهم به الله !

* * *

الكون كله يتوجه إلى الله بالطاعة والعبادة . .

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » (١)

وما كانت تملك السماء والأرض إلاّ الطاعة حين يأمرها الله . فهو الخالق ، وهو الذى أودع فيهما الناموس الذى تتحركان به وتأتيان به إلى الله . . ولكن التعبير الجميل الكريم ، لايريد أن يشعر الخلق بالقهر . لايريد أن يقول : إنهم لايملكون إلا الطاعة . وإنما يجعل الطاعة منبعثة من كيانهم هم ، فكأنما حين يطيعون يستجيبون لفطرتهم الذاتية لالقهر ينصب عليهم من خارج الفطرة . وهذه حقيقة وتلك . فإنما عند الله تلتقى الحقائق كلها ، من كل زوايا الوجود !

---

(١) سورة فصلت [١١]

وكل شئ يسبح بحمده : « وإن من شئ إلا يسبح بحمده . ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

لاتفقهون تسبيحهم إذا حكمتم بظاهر الأشياء . بما تدركه الحواس . . فعندئذ سيبدو لكم الكون صامتا لايسبح ، جامدا لايحس ، ميتا لاحياة فيه .

ولكن الروح الواصلة تفقه تسبيح كل شئ ، لأنها — ككل شئ — تتصل بالله ، وتتطلع إلى حماه ، فتلتقى بشقيقاتها من أرواح الكون ، على نهج واحد ، واصل إلى هناك .

والروح مزية الإنسان العظمى . . إنها المنحة الكبرى فى خلقته . المنحة التى نقلته نقلة بعيدة عن سائر الخلائق فى الأرض . فرفعت عالمه أن ينحصر فى نطاق المادة ، أو يتقيد بقيود الحس . وأعطته القدرة على أن ينطلق من كل قيد ، فيتصل بالمجهول . يتصل بضمير الكون . و يتصل بالله .

* * *

والعقيدة غذاء الروح . .

ومن ثم فهى حقيقة بديهية فى كيان الإنسان ، بقدر ما هى حقيقة بديهية فى كيان الكون والحياة . . مع ذلك الفارق الذى يتميز به الإنسان . وهو « الوعى » بكل مايجيش بخاطره من فكر أو وجدان .

ولا مناص للإنسان ، حين يواجه الكون من حوله ، وتنفعل به نفسه انفعال الأحياء .. أن يدرك بوعيه كما يدرك بما وراء الوعى أنه لا بد لهذا الوجود من موجد .

ولا مناص له أن يدرك أن هذه الدقة المعجزة التى يتسم بها الكون ، وهذا التناسق ، وهذا الترابط ، وهذا الإبداع ، لايمكن أن يكون اعتباطا

بغير قصد ، ومصادفة بغير تدبير . وأن الموجد الذى أوجده لابد أن يكون عاقلا مدبرا حكيما ، له غاية من الخلق والإبداع .

ولا مناص له حينئذ أن يدرك أن الموجد هو الله . الواحد الأحد الذى لاخالق غيره ولا شريك .

ذلك حين تستقيم الفطرة .

ولكن فطرة الإنسان تنحرف أحيانا فينحجب عنها النور .

تنحرف فلا ترى هذه البديهيات التى تنطق بها فطرة الوجود .

وتروح تخبط فى التيه . . وتتصور تصورات شتى ماأنزل الله بها من سلطان .

وقد كان أشد هذه التصورات انحرافا تلك النكسة الحيوانية التى أصابت أوربا فى جاهليتها الحديثة ، حين أرادت أن تحصر الإنسان فى النطاق الحيوانى الضيق ، نطاق ماتدركه الحواس ، وتحجب عنه آفاق الكون الطليقة الفسيحة التى لاتدركها الحواس وحدها وإنما تدركها الروح .

ومع ذلك « فالعلم » الحديث ذاته ، الذى فتن أوربا حقبة من الزمن عن حقيقة الله ، يأبى اليوم أن يساير الفطرة الأوربية المنحرفة التى تريد أن تنكر الله ، وتنكر من الحقائق مالاتدركه الحواس !

العلم لم يعد يعرف « المادة » فقد أطلقها التفجير الذرى فأصبحت «طاقة » !

وصار العلماء يعرفون اليوم أن الكون ليس مجموعة مواد ، وإنما هو مجموعة طاقات . طاقات متحركة يتجاذب بعضها مع بعض برباط متين . ومن ثم ارتفع ذلك الحاجز البغيض الذى وضعته أوربا بين « الطبيعة » و « ما وراء الطبيعة » فى فترة الانحراف والجمود .

وبقى أن تتفتح بصيرة القوم كما تفتحت أبصارهم ، فيعرفوا أن هذه الطاقات

حية فى حقيقتها ، وأن الرباط الذى يربط بينها هو الحب ، وأنها كلها مهتدية إلى الله ، لأنها تسير وفق الناموس الذى أراده الله .

أما العقيدة فقد أدركت ذلك منذ القدم . . فى عهود سحيقة من التاريخ . . قبل أن يصل العلم إلى شئ فى هذا السبيل . . لأن الروح المهتدية إلى الله هى أكبر منابع « المعرفة » فى هذا الوجود .

* * *

والعقيدة فى الله هى أضخم الحقائق فى حياة الإنسان ، كما هى أضخم الحقائق فى كيان الوجود .

إنها هى التى تكشف له حقيقته الجوهرية الفذة .

هى التى تكشف له عمق نفسه واقتدار طاقاته .

هى التى تكشف له عن مهمته الخطيرة فى كيان الوجود كله . . مهمة الخلافة عن الله .

وعندئذ تكشف له عن حقيقة صلاته بالله ، وصلاته بالكون والحياة . . وأخيه الإنسان .

* * *

حين تتأصل العقيدة فى النفس فإنها تصل بين الإنسان وبين الحقيقة الكبرى — حقيقة الألوهية — بشتى المشاعر ، من الحب والرهبة والخوف والطمع والأمل والرجاء .

وتصل بين الإنسان والكون والحياة بصلات من التعاطف والمودة والقربى .

وتصل بينه وبين أخيه الإنسان برباط من الحب الحىّ المتدفق الفياض .

وتربط كيان النفس ، فتستقيم على المنهج الواصل ، توحد بين طاقاته المتفرقة وأوجه نشاطه المتباينة ، فتجعلها طريقاً واحدا ذا غاية واحدة . وتوحد بين الدنيا والآخرة ، والعمل والعبادة ، والأرض والسماء .

وكل واحد من هذه المشاعر يصلح ميدانا لألوان لانهاية لها من الفن . هى من الضخامة والشمول والعمق ، بحيث تخاطب « الإنسان » فى جميع حالاته وأجياله وبيئاته . لأنها تخاطبه فى أعمق أعماقه . تخاطبه من حيث هو «إنسان» لامن حيث هو قطعة من هذا الجيل أو هذه البيئة أو ذلك المكان.

ومن ثم فهى فنون « إنسانية » باقية مابقيت الحياة .

* * *

وليس من الضرورى أن تكون تعبيرا مباشرا عن مشاعر العقيدة وسبحاتها ووجداناتها . وإن كانت هذه بطبيعة الحال فنا أصيلا رائعاً رفيعا يصل إلى القمة من عالم الفن ، حين يؤدى بأداء صحيح .

ولكن المهم هو تصوير الحياة من خلال العقيدة ، وإبراز حقيقة العقيدة العميقة فى كيان الحياة .

إن العقيدة هى التى قادت خطى البشرية فى ظلام القرون ، وأخرجتها من الحس الحيوانى الذى لايؤمن إلا بالمحسوس ، إلى الحس الإنسانى الذى يؤمن بالغيب والمجهول ، ويدرك من التناسق والقصد فى هذا الوجود ما يبحث له عن مبدع . وهى التى تربط الكيان البشرى بهذا الوجود ، كما تربط بين الإنسانية وبين خالقها الذى انبثقت من إرادته برباط وثيق من الحب والتطلع والرجاء .

هى التى أطلقت الإنسان من إسار جسده الجاثم على الأرض فاستطاع أن يحلق بروحه فى السماء .

هى التى وسعت له مجال حياته ومجال مشاعره وأفكاره ، فحررته من حدود هذه الأرض ، وهذه الحياة الدنيا ، ومنحته الاتصال بالكون الأكبر ، والاتصال بالآخرة وهو بعد فى دنياه .

والفن الصحيح لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة .

ينبغى أن يصورها من خلال النفوس الحية التى تعيش فيها وتتأثر بإيحاءاتها . يصور كيف تتأثر هذه النفوس بالعقيدة وكيف يصبح سلوكها وكيف تكون تصرفاتها . وكيف يتحدد موقفها من كل حدث وكل إنسان وكل شئ فى هذه الحياة .

كما يصورها من خلال النفوس التى تفرغ من العقيدة ، فتنحرف وتضل ، وينحصر تفكيرها وتصورها وشعورها فى نطاق صغير محصور ، آسنٍ لأنه محجوب عن الاتصال بالكون المتحرك الكبير .

ويصور البشرية كلها فى تاريخها كله على أساس هذه القاعدة الإيمانية وأثرها فى واقع الحياة ، فى حدود الواقع الصادق الذى لاتكتمل صورته فى حياة فرد أو حياة جيل ، وإنما تكتمل على اللوحة العريضة التى تسع الأفراد والأجيال .

المهم أن تحس دائماً بحقيقة العقيدة ، سواء كانت موجودة فى النفس ومؤثرة فى توجيهها إلى طريق معين وسلوك معين ، أم غائبة عنها ، مؤثرٌ غيابها فى توجيه هذه النفس فى طريق الضلال والحيرة والاضطراب .

وهنا يفترق الفن الإسلامى عن الفن الغربى الحديث ، والفن العربى المزوّر الذى ينقل عنه نقل القرود ونقل العبيد .

ففى هذا الفن الأخير لا تحس بوجود العقيدة وأثرها فى الحياة . لا تحس أن الحياة مرسومة من خلال العقيدة ، سواء من خلال وجودها أو تغيبها .

بل تجد تعمّدا فى إغفال العقيدة وعدم ذكرها فى مجال الفن ، ولا التعرض لها . . إلا أن يكون التعرض سخرية بالدين والمتدينين !

وقد يكون هذا « واقعاً » بالنسبة لأوربا ، لأنها تعيش اليوم بمعزل عن العقيدة .

ولكنه واقع صغير منحرف ضال . . واقع جيل من الأجيال شردته الأحداث وأخرجته عن صوابه .

والفن الأصيل ليس مأذونا أن يصور هذا الواقع الصغير المنحرف على أنه الأمر الواقع فحسب ! و إنما يصوره على حقيقته : على أنه ضلال وانحراف . فالأشياء — كما قلنا من قبل [1] — لاتستمد كيانها من مجرد وجودها ، و إنما تستمده من وجودها الصحيح و إلا فهى خطأ ، ولو بقيت ألف عام .

والفن الأصيل لايستمد كيانه ولا مقاييسه من الواقع المنحرف لجيل من الأجيال . إنما يستمد كيانه ومقاييسه من حقائق الكون الكبير . ذلك أنه تعبير جميل عن حقيقة الكون وحقيقة الوجود .

من ثم ينبغى أن يبرز الفن حقيقة العقيدة بمقدار ماهى حقيقة كونية عميقة شاملة ، و ينبغى أن يرسم من خلالها كل حقائق الحياة . سواء كانت موجودة وحية ومستولية على النفوس ، أو غائبة عنها ، تاركة إياها للانحراف والضلال .

وحين يعبر الفن — بوسائله التعبيرية الجمالية الخاصة — عن حقيقة العقيدة فى ذلك الإطار الواسع ، فإنه لايعمل على رفعة البشرية و إطلاقها من إسار الضرورة والقيد والانحسار فى النطاق المحدود فحسب ، بل إنه — من الوجهة الفنية البحتة — يكون فنا « كونيا » واسعا ، لأنه يعبر عن حقيقة الوجود .

---

(١) فصل « الواقعية فى التصور الإسلامى » .

الفنّ الإسلامى

حقيقته ومجالاته

فى الفصول السابقة استعرضنا الخطوط العريضة للفن الإسلامى ومجالاته المختلفة ، وصارت لدينا — فيما أحسب — فكرة عن حقيقة هذا الفن ، والمجالات التى يعمل فيها ، والرقعة التى يطل عليها من صفحة الوجود .

رقعة فسيحة تشمل كل حقائق الوجود .

ولقد تبين لنا من خلال استعراض هذه الخطوط العريضة أن الفن الإسلامى ليس هو الفن الذى يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة فى صورة فلسفية ، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والإرشادات . وإنما هو شىء أشمل من ذلك وأوسع . . إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود ، من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود .

ونريد فى هذا الفصل أن نجمّع هذه الخطوط العريضة فنخرج منها بصورة شاملة للفن الإسلامى ، حتى إذا عرضنا نماذج من هذا الفن فى الفصل القادم ، عرضناها على ضوء ما ندركه من خصائص هذا الفن ومفاهيمه .

* * *

ليس من الضرورى أن يتحدث الفن الإسلامى عن الإسلام : حقائقه ، وعقائده ، وشخصياته ، وأحداثه ، وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات .. ولكنه يتناولها ، كما يتناول الوجود كله ، وكل مايجرى فيه ، من زاوية إسلامية ، ويستشعرها بحس إسلامى .

قد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذى ينبثق من ضمير الحياة .

قد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم .

قد يتحدث عن نبتة وحيدة فى الصحراء .

قد يتحدث عن الليلة المقمرة .

قد يتحدث عن طفلة شريدة .

قد يتحدث عن مواجع البشرية .

قد يتحدث عن ضربة من ضربات القدر .

قد يتحدث عن صراع الناس فى الأرض .

قد يتحدث عن بطل أسطورى . .

قد يتحدث عن ذلك كله فيكون فنه إسلاميا ، إذا تلقاه فى حسه بتصور الإسلام الصحيح وعبر عنه بروح ذلك التصور .

وقد يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو عن غزوة من غزواته ، أو عن حقيقة من حقائق العقيدة ، فلا يكون فنه إسلاميا إذا تحدث عنه بغير هذه الروح ، ودون إدراك لحقيقة التصور الإسلامى .

لو حدثنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم — مثلا — على أنه « بطل » من أبطال البشرية . على أنه جماع الخير وممثل الفضائل . على أنه شخصية عبقرية متعددة الجوانب عميقة الغور . . فإلى هنا لا يكون فنا إسلاميا مع أنه يتحدث عن رسول الإسلام ذاته ، ويتحدث عنه بروح الإعجاب والتقدير !

إنه يتصور الحياة البشرية — فضلا عن قمة هذه الحياة المتمثلة فى النبوة — على أنها حقيقة أرضية منقطعة عن حقائق الكون . ويتصور النبوة على أنها ضخامة بشرية منقطعة عن الحقيقة الكبرى — حقيقة الألوهية .

وليس هذا تصور الإسلام . . !

ولـكنه حين يصورها على أنها حدث كونى ، يلتقى بناموس الوجود الأكبر المهتدى إلى الله بجميع طاقاته وجميع كائناته . . حين يصورها على أنها نور كونى مشع لأنه قبسة من نور الله . . حين يصورها على أنها إشراقة كونية أشعلت الحياة على وجه الأرض وأنارت لها الطريق لـكى تسير على النهج ، وتتوحد فى اتجاهها مع اتجاه الـكون الـكبير . . حين يصورها على أنها حقيقة واصلة بين السماء والأرض ، تسير بقدميها على الأرض وترفرف بروحها فى السماء . حين يصورها على أنها الصورة المشرقة للخلافة عن الله فى الأرض .. فحين ذلك يـكون فنا إسلاميا صادق التصوير لحقائق الإسلام .

وحين يصور غزوة بدر — مثلا — على أنها معركة حدثت فى الأرض بين جنود الخير وجنود الشر ، وأن جنود الخير على قلتهم قد انتصروا على ضِعْفِ عددهم من الناس لأنهم أصحاب عقيدة ، أولأنهم على الحق وأعداؤهم على الباطل.. فربما يـكون قد دخل مجرد دخول فى عالم الإسلام والفن الإسلامى . . ولـكنه لم يَرْقَ فيه صعدا ، ولم يصوره فى الرقعة الفسيحة التى يحققها الفن الواصل المنير .

أما حين يوسع رقعتها فيصورها على أنها سنة من سنن الـكون : أن النور يطرد الظلمة ، والهدى يطرد الضلال . حين يصورها فى ساحة القدر العليا . . كيف تدخل قدر الله فقاد الجماعة المسلمة من حيث أراد المسلمون لأنفسهم ، من معركة صغيرة فى سبيل الغلبة المادية على متاع من متاع الأرض ، إلى المعركة الحقيقية الـكبرى العميقة فى كيان الوجود ، معركة العقيدة ، معركة الفرقان بين الحق والباطل إلى آخر الزمان(١) فانتصروا من حيث لا يشعرون على معنى

---

(١) يعنى التعبير القرآنى بتقرير هذه الحقيقة الـكبيرة فى قوله تعالى : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ويبلغ الفن الإسلامى قمته حين يتناولها من هذه الزاوية التى يشير إليها التعبير القرآنى .

الشرك كله ومعنى الضـــلال كله . وتقررت حقيقة العقيدة فى هذه الأرض ناصعة جلية خالدة . وارتفع الإنسان على نفسه . على عالمه المباشر الذى يعيشه بحواسه ، إلى العالم الأكبر الذى يعيشه بروحه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »(١) . . حين ذلك يكون فنا إسلاميا عاليا ، لأنه ينقل الحادث المفرد واللحظة العابرة إلى دلالتهما الكونية فى الساحة الخالدة . . فيكون صادق التعبير عن حقائق الوجود وحقائق الإسلام .

وعلى هذا النسق نستطيع أن نتصور حقيقة الفن الإسلامى ومكانه فى الفنون .

* * *

ومجالات الفن الإسلامى هى كل مجالات الوجود مرسومة من خلال النفس المؤمنة المتفتحة بالإيمان .

فحين يتحدث عن الكون . . عن « الطبيعة » . . فهو يراها خليقة حية متعاطفة ، ذات روح تسبّح وتخشع ، وتغضب وترضى ، وتصادق وتعادى . . تصادق الحق وتغضب على الباطل .. ويرى فى كل كائن نوعاً من الحياة والروح ، من وراء الأشكال التى قد تبدو جامدة أو ميتة . كما يقول القرآن عن السماء والأرض : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » . وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه» .

وحين يتحدث عن الخلائق « الحية » من حيوان وطير ونبات ، فهو يحس

(١) سورة الأنفال [٧ — ٨] .

نحوها بالتعاطف والمودة ووشائج القربى التى تصل كل الكائنات بعضها ببعض ؛ وتصل بين الأحياء خاصة فى هذه الأرض .

وحين يتحدث عن الإنسان فهو يرى فيه خليفة الله فى الأرض . فهو ليس إلها ولا راغباً فى أن يكون إلها أو شبه إله . فذلك كله ليس حقيقة . والحقيقة الواحدة أن للكون إلها واحداً هو الله . ولا ينبغى أن يكون فيه أكثر من إله ، ولا أشباه إله . والإنسان من جهة أخرى ليس كمية سالبة تتحكم فيها قوى الاقتصاد والمادة ومختلف الجبريات الأرضية . فذلك كله ليس حقيقة . والحقيقة أن الإنسان عنصر إيجابى فى هذا الوجود . محسوب حسابه فى تصميم الكون ، ومسخّر له السماوات والأرض من عند الله . والحياة متأثرة بأفعاله سواء فى الخير أو الشر . و إرادة الله ماضية عن طريقه ومن خلال وجوده وتصرفاته .

وهو كذلك مخلوق ليس بالملاك ولا بالشيطان . . و إنما هو إنسان !

وهو مشتمل على قدرات وطاقات ترفعه إلى أعلى حين يعرفها ويحسن استخدامها . ولكنه مشتمل كذلك على منافذ للضعف ومنافذ للغزو ، ينفذ منها عدوه الأصيل وهو الشيطان . والمعركة دائرة على أشدها لا تفتر بين الإنسان والشيطان منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . والإنسان الأعلى يقضى حياته — رغم ضعفه البشرى — يحاول أن يسد فى نفسه منافذ الشيطان . وهو إنسان بقدر هذه المحاولة ، و بقدر ما يصطبر عليها أمام شتى المغريات .

وفى ميدان الصراع بين الإنسان والشيطان يجد الفن الإسلامى آفاقا واسعة وجوانب رائعة ، وحقولا خصبة للإبداع الفنى الأصيل .

والإنسان يصوَّر فى لحظة القوة ولحظة الضعف . ولكن يُهتف له دائما من جانب الصعود . فجانب الهبوط موجود من نفسه لا يحتاج إلى هتاف ! ولحظة الضعف لا تحتاج إلى تسجيل !

لحظة الجنس الطاغية التى تُفْقِدُ الإنسان ضوابطه ، فلا يملك نفسه و ينجرف فى التيار . . هذه اللحظة بكل ما فيها من انفعالات عنيفة ودفعات دافقة ، لا تستحق أن يقف عندها الفن يصورها تصوير المعجب بها ، المهتز لها ، المتفنن فى تسجيل دقائقها ، الحريص على إبراز كل جزئية من جزئياتها ، المستمتع بها ، الذى يريد أن ينقل هذه المتعة للآخرين (١)

لا تستحق . . لأنها لحظة هبوط وليست لحظة ارتفاع .

لا تستحق أن يقال فيها الشعر وتصفها القصة وتصورها اللوحة المرسومة أو الصور المتحركة . لأنها ليست فى سبيل توكيد حقيقة الإنسان . و إنما هى تؤكد الجانب الأرضى المحدود من الإنسان . وهذا ليس فى حاجة إلى توكيد ! فهو حقيقة غليظة جاثمة بكل غلظها على الأرض . حقيقة واضحة مقررة يشترك فيها الحيوان والإنسان . ومن ثم لا يختص بها الفن الإنسانى . و إنما الفن الإنسانى موكل بتسجيل « الإنسان » . تسجيل الخصائص التى تفرد بها هذا الإنسان وتميز بها عن سائر الكائنات فى الأرض . فإذا سجل لحظة الوجود « الحيوانى » فعلى أنها وجود حيوانى ، لا على أنها قمة يرتفع إليها الإنسان !

لقد يخيل للإنسان فى ساعة الشهوة الجارفة التى يسميها « الحب » خطأ منه ، أنه يحقق كيانه الأسمى ، و يرتفع على الواقع الصغير واللحظة العابرة فيتصل بآفاق الوجود العليا وحقائق الكون الكبير . وذلك ليس حقيقة . . إلا أن يكون هذا الحب خالياً من الدنس : دنس المخالفة عن نواميس الحياة . وكل ما يحدثه الحب الشهوانى — أحيانا — من « تهيؤات » الرفعة والطلاقة ، فهى

(١) لا يدخل فى حسابنا بطبيعة الحال أولئك الذين يريدون أن يفسدوا المجتمع عن عمد و يشيعوا الفاحشة فيه لغرض ملتو خبيث ، وإنما نتحدث عن الذين يظنون — مخلصين — أن ذلك فن من الفنون .

كتهيؤات المخمورين . . لا تعبر عن الحقيقة . ومن ثم لا تستحق حفاوة الفن ، ولا تستحق حفاوة الإسلام !

ولا يحتاج الأمر إلى جدل بشأن ما تشتمل عليه تلك اللحظات الهابطة من لذة و إمتاع ! فتلك بديهية من بديهيات التجربة البشرية الحسية الأولية : أن الشهوات كلها مغرية ومحببة للإنسان : « زين للناس حب الشهوات . . » ولكن للإنسان طاقات أعلى وآفاقا أرحب ، يستطيع أن يحس فيها « بجمالٍ » أرفع وأعلى ، هو ضبط هذه الشهوات — رغم ما لها فى نفسه من إغراء وتزيين — والاكتفاء منها « بالطيب » النظيف . . ثم هناك درجات أعلى ، قد لا يصل إليها كل إنسان — ولكنها موجودة رغم هذا فى عالم الواقع — وذلك حين لا يقف الإنسان عند « ضبط » هذه الشهوة وهو منجذب إليها فى داخل نفسه — وتلك فى ذاتها مرتبة رفيعة وعالية — بل يستطيع كذلك أن يحس إحساساً حقيقيا بالنفور من كل متعة هابطة ، والتقزز من كل عمل فاحش . . ولا يشعر أنه محـروم مع ذلك من المتاع ، بل كاسبٌ متعة الشعور بالنظافة والاستعلاء !

وتلك قمة الإنسانية . . القمة التى تحاول التربية الإسلامية أن تصل إليها بهدْيٍ من الله ورسوله ، والتى يرسم الفن الإسلامى لمحات منها ، حين يستطيع الفنان المسلم أن يصل إلى هذا المستوى الرفيع فى تجاربه الشعورية الذاتية .

و إنما يعالج الفن الإسلامى موضوع العلاقة بين الجنسين من خلال تصوره لهذه العلاقة . . من خلال تحقيقها لأهداف الحياة العليا . . من خلال رفعها للرجل والمرأة كليهما إلى مستوى الإنسانية . . من خلال حثها كلا من الرجل والمرأة على إبراز أجمل ما عنده وأرفع ما عنده . . من خلال توسيع دائرة الشوق الجنسى حتى يشمل الأشواق العليا المتصلة بصميم الكون وفطرة الحياة ،

والتى لاتقف عند اللحظة العابرة واللقاء العارض بل تمتد حتى تشمل الحياة كلها ، ونظام الحياة المستمد من الحقيقة الـكبرى المسيطرة على كل شيء فى هذه الحياة .

وقد يعالجها كذلك من زاوية الهبوط والضعف . . حين تصبح هى شاغل الحياة ، ومزلقا يؤدى إلى الهبوط عن آفاق الحياة العليا . حين تصرف الإنسان عن الاشتغال بالمشكلة الـكبرى فى حياة الأرض : مشكلة إحقاق الحق والعدل الأزليين ، فى السياسة والاجتماع والاقتصاد وعالم الفكر وعالم الروح . . مشكلة الصراع مع الشر فى جميع صوره وأشكاله . . مشكلة تحقيق الغاية العليا من وجود الإنسان وخلافته عن الله فى الأرض . ولـكنه يعالجها حينئذ على أنهـا هبوط لا على أنها ارتفاع .

فإذا أراد شخص أن يقول : إما لحظة الجنس و إما لا فن على الإطلاق . . فليقل ذلك . ولـكن فليعرف أنه — بالمقاييس الـكونية والمقاييس « الإنسانية » — شخص منحرف . وأنه لا يستطيع — مهما بدا فى نظر نفسه جميلا ورشيقا وممتعا — أن يفرض انحرافه ذلك على سنن الـكون والحياة .

والفن — لاشك — أوسع من عالم الجنس لأن الحياة أوسع وأرحب من أن تنحصر فى هذا النطاق . وحين « يُحْرَمُ » الناس من متعة الشهوة فى عالم الفن — ولا حرمان فى الحقيقة للإنسان المترفع ، الذى يتعود حسه على النظافة فى كل شأن من شئون الحياة — فعليهم أن يتعودوا تذوق مستويات أعلى من الجمال : المستويات الفسيحة الرحيبة ، التى تشمل الحياة فى نطاقها الأوسع ، والتى تعوض عن الجمال الأصغر الذى تفوته بالجمال الأكبر الذى تسعى إلى تحقيقه . . جمال « الخير » وجمال « الحق » وجمال « العدل » . . وجمال إقامة الحياة البشرية على هذه المعانى الجميلة كلها ، والنضال المستمر فى سبيل هذا الهدف ، الذى يتصل — حين يتحقق — بسنن الـكون كله والحياة .

* * *

ومراعاة « التناسق » ذاته — وهو عنصر من عناصر الجمال الكونى — تقتضى أن تكون رقعة الجنس فى مكانها الصحيح من لوحة الفن ، التى هى فى الواقع تصوير جميلٌ موحٍ للوحة الحياة .

وقد يقال إن الفنان شخص « مختل النسب » بطبعه ! وإن الجمال هو هذا الاختلال !

وتلك نظرة سطحية منقطعة عن الحقيقة الكبرى .. حقيقة الكون المتناسق فى كل حركة من حركاته وكل جزئية من جزئياته ، تناسقاً لا يختل — مع حركته الدائمة منذ الأزل ، حقبا لا يعرف مداها إلا الله .

نعم إن الفنان كائن ذو حساسية خاصة . فهو لا يحس الأشياء كما يحسها البشر العاديون ، ولا بالنسب التى تراها بها العين الآلية المجردة ، التى لا «تنفعل» بما تراه .

ولكن ذلك ليس معناه اختلال النسب فى حس الفنان !

إنه — بتأثير هذه الحساسية المنفعلة بالأشياء — يحس كل شيء أضخم من « حقيقته » الظاهرية التى تراه بها العين الآلية المجردة . ولكن مع احتفاظها بنسبها بعضها إلى بعض ، لأن تكبير اللوحة كلها لا يقتضى الإخلال بجزئياتها ، وإنما هو يبرز هذه الجزئيات كلها ، ويجعلها — فى مجموعها — واضحة قريبة يتملاها الحس بلا عناء .

وتلك هى موهبة الفنان وعبقريته . فالفنان هو العدسة المكبرة التى تكبر حقائق الحياة وتوضحها للرؤية . أو العدسة المقربة التى تقرب المنظر للحس حتى تبدو جزئياته البعيدة المختلطة المبهمة واضحة مفصلة محددة — مع ترابطها وتناسقها . أو هو العدسة « الكاشفة » التى تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التى لا تراها العين الظاهرة .

ولكن هذه العدسة — أيا كان وصفها — حين تقوم بعملها فى التكبير أو التقريب أو الكشف — لاتخل بنسب الأشياء بعضها إلى بعض ، ولا تفسد ما بينها من تناسق وارتباط .

و إنما أقرب إلى الحق أن يقال إن « بعض » الفنانين قد اختلت النسب فى نفوسهم ، فهم يرون الحياة كلها من خلال جزئية واحدة من جزئياتها : من خلال الجنس ، أو من خلال الصراع الطبقى ، أو من خلال التفسير المادى للتاريخ . . وهؤلاء مختلون بوصفهم بشراً ، وكذلك بوصفهم فنانين . فليس للفن مقياس وحده ينعزل به عن مقاييس البشرية الحقيقية ، التى هى فى مجموعها إحدى الجزئيات المتناسقة فى مقياس الكون الكبير .

وعلى الرغم من كل الحقائق الجميلة التى قد يعثر عليها فنان له هذه الاختلالات ، فمن المسلم به من بديهيات هذا الكون — وبديهيات الحس البشرى — أن الحقيقة الأشمل هى الحقيقة الأجمل ، وأنه كلما اتسعت رقعة اللوحة وتناسقت جزئياتها كان ذلك أقرب لحقائق الوجود ، وأقرب للتصور البشرى السليم ، الذى كان من نعم الخالق الباهرة أن يجعله متجاوبا مع روح الكون الكبير .

ومن ثم يصبح هذ الفنان المختل فنانا صغيراً مهما أوتى من براعة التصوير فى الجزئية المفردة التى يتلقى الحياة من خلالها ويصورها من خلالها كذلك . ويكون الفنان الذى يتلقى الحياة ويصورها من خلال مساحة أوسع وجزئيات أكثر عدداً وأكثر ترابطا . . أعظم من الفنان المختل ، بجميع المقاييس . . المقاييس البشرية والمقاييس الكونية على سواء .

ونجىء الآن إلى لبس قد يتبادر إلى الذهن من هذا التصور : إن العمل

الفنى — وخاصة إذا كان قصيدة غنائية أو خاطرة أو أقصوصة ، لا قصة ، أو كان لحناً موسيقياً أو لوحة مرسومة — لن يتسع لـكل حقائق الوجود دفعة واحدة . لن يتسع لها فى حس الفنان ، ولن يتسع لها فى الرقعة المتاحة للتعبير .

ومهما يكن فى حس الفنان من شمول وفسحة فلا بد من لحظات «متخصصة» يحس فيها بخاطر مفرد ، أو لمحة عابرة تلتقط جزئية واحدة من جزئيات الـكون أو الحياة . .

وهذا كله صحيح . ولا بد من « التخصص » فى الالتقاط والتعبير ساعة بعد ساعة ، فى نفس الفنان ونفس كل بشر فى هذا لوجود . فالحس البشرى لم يهيأ بفطرته للنظرة الشاملة المتكاملة فى كل لحظة من لحظات الحياة . .

ولـكن هذه الحقيقة لا تصرفنا عن أمرين مهمين .

الأمر الأول أن الفنان الـكبير — وهو الإنسان الـكبير — لا « تنفصل » فى حسه الجزئيات بعضها عن بعض ، حتى وهو يلم فى حسه أو فى تعبيره بجزئية واحدة من الجزئيات .

ولنتصور مثلا أنه يلم بجزئية الجنس . أو جزئية الصراع الطبقى .

إن شيئاً من ذلك لا يقوم فى حسه منفصلا عن بقية الوجود . إنه فى «هذه» اللحظة يحس بخاطرة من خواطر الجنس . . ولـكنها لا تستغرقه بوصفها جنساً منقطعاً عن حقائق الحياة ، إلا حين تهبط إلى مستوى الحيوان الذى يعيش حياته جزئيات منفصلة لا يرتبط بعضها ببعض . أما إذا أحسها « عواطف » حب نظيف فيه استعلاء وترفع . . فهو هنا مرتبط بناموس الوجود الأكبر وجماله الشامل ، ولو لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الناموس . وهو ليس فى حاجة إلى هذا الذكر الصريح فى كل مرة ولا فى أية مرة ، فإنما يكفى أن ينقلنا — بالإيحاء

والتأثير — إلى هـذا العالم الفسيح ، لندرك أنه غير مقطوع الصلة بجمال الـكون الـكبير .

وكذلك حين يلم فى « هذه » اللحظة بالصراع الطبقى . إن هذا الصراع لا يستغرقه بوصفه ظاهرة علمية ، ولا بوصفه الحقيقة المفردة التى يتلقى من خلالها كل حقائق الحياة .

ولـكنه ليس فى حاجة إلى خطبة وعظية ليثبت لنـا أنه مدرك لنواميس الـكون العليا ، وأن الحق والعدل الأزليين يستنـكران الظلم الاقتصادى والظلم الاجتماعى . . وإنمـا يكفى أن يعطينا هذا الإيحاء — بصورة من الصور — لندرك اتساع الرقعة فى حسه ، وعدم انحصارها فى « مذهب » فـكرى معين ، أو نافذة واحدة من نوافذ الحياة .

وبهذه الطريقة يلم الفنان الـكبير بجزئيات الحياة ، المتخصصة فى كل مرة ، دون أن تـكون فى تخصصها منقطعة عن حقائق الوجود .

وبطبيعة الحال لا يفتعل الفنان هذه المشاعر افتعالا لنقول عنه إنه فنان كبير واسع الآفاق ! فـكل افتعال هو تزوير فى الحقيقة البشرية وتزوير فى الحقيقة الفنية ، سرعان ما ينكشف لحس القارىء البصير ، الذى يدرك بفطرته تزوير الافتعال وحقيقة الانفعال .

والأمر الثانى أن الـكيان البشرى المشتمل على جسم وعقل وروح ، ومئات من المشاعر المتباينة والأحاسيس المتشعبة ، يحوى قدرا من المرونة يسمح ببروز جانب من الجوانب فى لحظة معينة وانحسار جانب آخر ، كما يسمح ببروز شعور معين فى إحدى اللحظات يطفو على بقية المشاعر ويغطيها . . ولـكن فى هذا الـكيان فى حقيقة الأمر من الترابط والتماسك ما لا يسمح بانفصال جانب عن بقية

الجوانب فى أثناء بروزه فى لحظة معينة ، ولا بانفصال شعور واحد عن بقية المشاعر ، و إن بدا للنظرة القريبة أن ذلك يحدث فى بعض الأحيان !

الذى يحدث بالفعل أن جانبا أو شعورا يغلب فى لحظة على بقية الجوانب أو المشاعر . ولـكنه لا ينفصل عنها . إلا إذا أصيب الإنسان باختلال مرضى كانفصام الشخصية أو ازدواجها . أما الـكيان النفسى السليم فلا يحدث فيه قط ذلك الانفصال .

والنفس السليمة المتـكاملة تتداول هذا البروز والانحسار بجوانبها المتعددة ومشاعرها المتباينة ، بحيث تصبح — فى مجموعها — شاملة لـكيانها كله . لأنها فى الحقيقةلا تثبت على بروز معين أو انحسار معين إلا إذا أصيبت بالاختلال .

والفنان الـكبير — فى مجموعه — يعبر عن مداولات النفس كلها فى مختلف حالاتها . . أى يعبر عن وقع الوجود كله فى حسه ، من مختلف منافذه وبجميع أبعاده . . لا عن جانب واحد من جوانب هذا الوجود .

ويخلص لنا من هذين الأمرين حقيقة متـكاملة : هى أن الفنان الـكبير لا يعطينا فى أية لحظة من لحظاته لمسة « متخصصة » بمعنى الانقطاع عن حقائق الوجود العليا ، و إنما يمنحنا فى كل جزئية متخصصة قبسة من الوجود الأكبر ، تعمّق هذه الجزئية ذاتها فى إحساسنا ، وتعطيها نـكهة جميلة ، لأن فيها من شذى الوجود كله بالإضافة إلى شذاها الخاص . وأنه — فى مجموعه — لا يعطينا الوجود من خلال جزئية واحدة ثابتة — كجزئية الجنس أو جزئية الصراع الطبقى — إلا أن يصلها فى حسه وفى حس القارئ بالوجود الـكبير ونواميسه ، فيعوضها بذلك عن ضيق المساحة وضآلة القدر . ومع ذلك فهو أضخم فى عالم الفن

وعالم الإنسانية كلما استطاع أن يعرض لنا الوجود من خلال نوافذه المتعددة ومجاليه المتباينة . . فذلك أقرب إلى إعطاء « حقيقة » الوجود .

***

وبمقتضى هذا الشمول والتكامل يعرض لنا الفن الإسلامى حياة البشرية من جميع جوانبها وفى جميع لحظاتها ، فلا يقف – مثلا – عند لحظة الجنس يفصصها ويحللها ، ويعيدها ويكررها ، ويضخم كل جزئية فيها . . بينما يترك بقية اللوحة البشرية خاوية من التعبير .

إنه يعبر عن العلاقة بين الجنسين — بقدرها ، وبمواصفاتها التى سبق ذكرها — ثم ينطلق يصور بقية جوانب النفس وجوانب الحياة .

يعبر عن « الحب » فى مجاله الأكبر ، الذى يشمل الحب الإلهى ، والحب الإنسانى . وكل لون من ألوان هذا الحب يمكن أن يستغرق فنا بأكمله ، ولا يكون ضيق المساحة كالحب الجنسى ، لأنه حقيقة كونية كبيرة تتصل بالناموس الشامل كله ، ولا تختص بجزئية بسيطة من ذلك الناموس .

ويعبر عن « الكره » فى مجاله الأكبر ، كره الشر كله والانحراف كله ، والجهاد ضد هذا الشر بجميع صوره وأشكاله .

ويعبر عن « الصراع » فى مجاله الأكبر . . صراع الشيطان وصراع البشر وصراع القوى وصراع القيم وصراع الأشياء . وكل لون من ألوان هذا الصراع يمكن أن يستغرق فنا بأكمله . . على شرط ألا « يتبلور » فى صورة مذهب ، ولا ينقلب إلى وعظ مذهبى كذلك الذى يمارسه كتّاب الصراع الطبقى أحيانا وكتّاب التفسير المادى للتاريخ .

إن التعبير عن هذا الصراع هو فى الحقيقة تعبير عن واقع البشرية ، بكل

خيوطه المتشابكة ونسيجه المتباين الألوان . ومن ثم ينبغى أن يعرض من خلال نفوس بشرية لا من خلال « أفكار » ولا « مذاهب » ولا « فلسفات » .

وليس هذا تحريجا على اعتناق الأفكار والمذاهب . . بل الأمر على العكس من ذلك . فالفن الإسلامى « يلتزم » تصورا معينا للحياة ، وللحياة البشرية بصفة خاصة ، ويعبر من خلال هـذا التصور وحده . ولـكن طريقة الفن فى التعبير تختلف عن طريقة العلم وطريقة البحث الذهنى المجرد . فإذا تحدثنـا عن الصراع الطبقى أو التطور الاقتصادى فى صورة مذهبية خالصة ، أو صورة تجريدية ، فذلك لا يختلف من الوجهة الفنية عن نظم المواعظ الخلقية فى شعر ، أو تضمينها بصورتها المباشرة فى حوار قصة أو مسرحية . . وهو ليس عملا فنيا على أية حال . إنما ينبغى أن تبرز هذه المعانى كلها على حقيقتها « البشرية » أي من خلال تأثيرها فى نفوس الناس . من خلال المشاعر والانفعالات والتصرفات التلقائية للناس .

والفن الإسلامى يعنى عناية خاصة بحقيقة الشمول والتكامل فى النفس البشرية . فلا يحب — مثلا — أن يُعرض الجانب المادى من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحى . ولا يحب أن تعرض الصراعات الاقتصادية والطبقية كأنها الحقيقة الـكاملة للحياة البشرية ، وتغفل بجانبها القيم المعنوية والروحية والأشواق الإنسانية العليا ، لأن ذلك بتر للحقيقة البشرية وتشويه لصورتها . .

إنه يحب — وخاصة فى الفنون التى تعرض بطبيعتها رقعة واسعة من الحياة كالقصة والمسرحية — أن تعرض الصورة كاملة ، بمادياتها ومعنوياتها ، وقيمها الاقتصادية والاجتماعية والفـكرية والروحية ، مترابطة متداخلة ممتزجة كما هى فى حقيقة الواقع ، مؤثرة كلها بعضها فى بعض ، ومتأثرة كلها بعضها ببعض ، مع إبراز القيم الروحية والمعنوية ، لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بصميم

فطرة الـكون ، المتجه بروحه إلى الله ، السائر على هداه . وحقيقة بشرية متصلة بصميم فطرة الإنسان ، الذى لم يصبح « إنسانا » مكرما إلا بنفخة الروح العلوية فى قبضة الطين .

أما الفنون التي تعرض بطبيعتها لمحة من الحياة البشرية فى لحظة معينة ، كالقصيدة واللوحة واللحن الموسيقى ، فالإسلام يرحب فيها باللمحة الروحية والأشواق العليا ، أكثر مما يرحب بالحقيقة المادية وأشواق الجسد الغليظة . . تمشيا مع نظرته العامة التى ترى الروح أبرز فى كيان الوجود وأحق بالإشادة والتسجيل .

وليس معنى ذلك أن الحديث عن الصراع الطبقى فى قصيدة أو لوحة أو لحن أمر غير مباح . . كلا ! ولـكن معناه فقط أن يعرض الموضوع من خلال عذابات الروح ، والقيود الجائرة التى تغلّ النفس عن تحقيق كيانها الإنسانى الـكامل، الخليق بخليفة الله فى الأرض الذى كرّمه الله واجتباه ، ورسم له آفاقا عليا من الحق والعدل ينبغى أن تحكم الحياة . ومعناه ألا نتحدث عن المصانع والإنتاج المادى على أنها — فى ذاتها — تحقيق لـكيان الإنسان . وإنما نتحدث عنها — إذا لم يكن من ذلك بد — على أنها وسيلة يصعد بها الإنسان فوق عالم الضرورة ليستقبل الـكيان الأعلى للحياة .

أما شوق الجسد الفائر فقد سبق الحديث عنه . إنه لحظة هبوط لا تستحق التصوير والتسجيل .

أما حين تعبر القصيدة أو اللوحة أو اللحن الموسيقى عن أشواق الروح العليا ورفرفاتها الطائرة وسبحاتها الطليقة . . فذلك فى نظر الإسلام فن صادق أصيل ، لأن هذه هى « اللمحة » المناسبة للتسجيل . اللمحة التى تحقق للإنسان كيانه الأعلى وتكمل له وجوده الأرضى المحدود .

وليس معنى ذلك أن تقتصر هذه الفنون على الرفرفات والسبحات . . وإلا فأين يذهب الألم والمواجع والأحزان . . وثقلة الضرورة القاهرة والضغط والصراع ومختلف الوجدانات التى تلم بالإنسان ؟

إنما نريد فقط أن نرد لهذه الرفرفات والسبحات قيمتها الفنية وقيمتها الإنسانية فى وسط الصراع الطبقى والتفسير المادى للفنون !

* * *

ويرسم الإسلام صورة الحياة البشرية من خلال « الواقع » كما يرسمها من خلال التكامل والشمول .

ولكن نظرته للواقع تختلف عن نظرة المذاهب الواقعية المتفشية الآن فى الفنون .

الواقع الإنسانى فى نظر الإسلام هو الواقع الأكبر الذى لاينحصر فى واقع المادة وواقع الحيوان . ولا ينحصر فى واقع فرد ولا واقع جيل . ولا ينحصر فى لحظة الضعف ولحظة الهبوط .

فإن كان هذا كله حقيقة واقعة ، فأين بقية الحقائق الواقعة فى حياة الإنسان ؟ ولماذا ينفرد هذا الواقع الصغير وحده بالتعبير الفنى دون سائر الوقائع الجديرة بالتسجيل ؟

إن كان الواقع حاضر هذا الجيل فأين تاريخ البشرية الماضى كله ، وأين مستقبل البشرية المنظور ؟ ولماذا يستولى الحاضر وحده على لوحة الفنون ؟

وإن كان الواقع هو النزوع الحيوانى وحده فى نفس الفرد المعاصر ، فأين سائر النوازع وسائر الأشواق ، وسائر الطاقات الكامنة فى الكيان الإنسانى الضخم العجيب الأسرار والتكوين ؟

وإن كان الواقع هو الأنانية والخسة والنذالة وحدها ، فأين المشاعر النبيلة والأشواق الطليقة للكيان الإنسانى ، وهى تتمثل فى مساحات ضخمة من حياة البشرية فى تاريخها الغابر وأشواقها فى المستقبل ؟

وكذلك قصة « الضعف البشرى » . . فالضعف البشرى سمة من سمات الكائن الإنسانى ، ولكنها ليست كل سماته . فإلى جانب لحظات الضعف البشرى توجد جوانب القوة . وإلى جانب القيد الكابح والثقلة المقعدة يوجد الجناح الرفاف والشوق الطليق . وحياة البشرية ليست كلها « لحظة ضعف » . بل ليست كذلك حياةُ أى حيوان من الحيوانات الراقية ولا أى طير من الطيور!

فإذا جعلنا لحظة الضعف تشغل مساحة اللوحة الفنية كلها وتحجب بقية اللحظات ، فذلك مجافاة « للواقع » وإفساد « للتناسق » الذى ينبغى أن يحكم الفنون .

والإسلام « يعطف » على لحظة الضعف البشرى ، ولكنه لا يجعل منها بطولة تستحق الإشادة والإعجاب . . والفن الإسلامى يلم بلحظات الضعف ، ولكنه لا يملأ بها اللوحة . ولا يقف يمجد للإنسان ضعفه ، ويمثله له أمراً « واجب » الحدوث ، أو أمنية المتمنى ! ذلك أن التصور الإسلامى يقوم ابتداء على أساس تكريم الإنسان وضخامة دوره فى الأرض وعظمة مركزه فى الكون . ومن ثم فهو لا يمجد الضعف البشرى — وإن كان لا يحتقر الإنسان من أجله — ثم يهتف له دائماً لينهض من الكبوة وتستقر قدماه على الأرض الصلبة ، ويمضى صعدا إلى الأفق السامق الوضئ .

وكذلك موقف الإسلام من « الواقع » فى بيئة خاصة أو فى جيل من الأجيال . . إنه لا يعتبره الواقع الأبدى ، إنما هو مرحلة من مراحل البشرية فى طريقها الصاعد . . مرحلة مهتدية إلى النهج صاعدة نحو القمة ، أو مرحلة

متنكبة منتكسة . . ولـكن الطريق صاعد أبداً . . والإسلام حداء إلى الصعود . والفن الإسلامى أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود . لا بالوعظ المباشر . ولـكن بالإيحاء بما فى طاقة الإنسان من مكنونات ، وما فى الـكون من موافقات لاستعدادات الإنسان وطاقاته ، وما هو مكلف إياه من مهمة ضخمة فى الوجود ، محسوب حسابها فى تصميم هذا الوجود .

بذلك لاينحصر عالم الإنسان فى لحظة الضعف ولحظة الهبوط . ولا يقف عندها يتطلع إليها تطلع المعجب المشوق فيسترسل فيها ولا يفيق !

* * *

والفن الإسلامى يوسع رقعة الحياة بوصل مابين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ؛ ومابين الإنسان والـكائنات الأخرى ؛ ومابين الإنسان الفرد والجماعة ، وما بين الإنسان الفرد والإنسانية التى تعمر هذا الـكوكب منذ حقب موغلة فى التاريخ ، وما تزال تتطلع إلى مستقبل بعيد .

وبهذا الشمول والتعدد والامتلاء تصبح اللوحة الفنية أجمل وأكمل وأمتع . وتصبح أزخر بالحياة والحركة من كل لوحة تعرض جانبا واحداً من الجوانب ، وتهمل بقية عناصر الحركة والحياة .

والفنون التى تصر على أن تـكون رقعتها هى الأرض وحدها — بمعزل عن السماء — لأنها تستنكف أن يكون للقوى « الغيبية » دخل فى حياة الناس ، هى فنون ترتـكب حماقتين فى آن واحد !

الحماقة الأولى أنها تنكر حقيقة واقعة لاسبيل إلى إنكارها مهما بلغ البشر من التبجح والغرور !

حقيقة أن الإنسان لايقوم وحده ! ولا يدبر حياته وحده ، ولا يحدد مصيره وحده !

أين — فى هذه الأرض كلها — ذلك الإنسان الذى يحدد لنفسه أين يولد ومتى يولد ؟ أو يحدد لنفسه أين يموت ومتى يموت ؟

وأين ذلك الإنسان الذى يحدد لنفسه الصفات التى يكتسبها والصفات التى يرثها من أبويه ، فضلا عن تحديد البيئة التى يولد فيها والظروف التى تتفاعل مع هذه الصفات وتلك البيئة ، ليكون من تفاعلها خط سيره فى الحياة ؟

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » (١)

إنها لجاجة مضحكة أن ينكر الإنسان تدخل القوى « الغيبية » فى حياته ، وأن يزعم أنه يقرر مصير نفسه بمعزل عن الله !

وليست دعوى الإشادة بإيجابية الإنسان وفاعليته — كما بينا من قبل (٢) — إلا ستارا يخفى به هذا الجيل الشقى من البشرية رغبته فى التمرد على الله . وإلا فقد وقع هذا الإنسان — حين انعزل بإيجابيته المزعومة عن الله — فى حتميات لاأول لها ولا آخر ، كلها مهين ، وكلها مذل لكرامة الإنسان !

والحماقة الثانية التى ترتكبها هذه الفنون هى تضييق رقعتها وحرمان نفسها من فرص عديدة لإبراز ألوان من الجمال الفنى كانت حرية أن تهتدى إليها وتبرزها لولا هذا الإصرار الأحمق على فصل مابين السماء والأرض من صلات .

فهى أولا تعرض « الإنسان » فى صورة مشوهة مبتورة ، إذ تعرضه فى جانبه الأرضى وحده ، جانب الضرورات القاهرة ، والواقع المادى القريب المحسوس ، ولا تعرضه — إلى جانب ذلك — فى جانبه الروحى العلوى ، جانب الأشواق المرفرفة ، والواقع البعيد الذى تدركه الروح من وراء الماديات

---

(١) سورة لقمان [٣٤]   (٢) راجع فصل « الواقعية فى التصور الإسلامى » .

والمحسوسات . و بذلك تقص منه جناحيه المرفرفين ، وتتركه جثة جاثمة على الأرض لا تقدر على التحليق .

وهى ثانيا تخلى الصورة من جمال الحركة الخفية التى تدير الأحداث والأشياء والأشخاص ، وترتب لها موافقاتها ومفاجآتها ، حين تجعل « الأقدار » المسيطرة على هذه الأحداث والأشياء والأشخاص هى الأقدار المكشوفة المعلومة الملموسة المقدّرة ، من صراع طبقى ، أو مشاعر جسدية ، أو قيم اجتماعية أو اقتصادية تُعطى لها قوة الحتمية والإجبار !

وذلك بدعوى الواقعية . . . !

فى حين يصرخ الواقع الحقيقى الذى تدركه الفطرة الحقة ، فى وجه تلك الواقعية الزائفة : أن قوى الأرض كلها لا تملك أن « تلد » إنسانا بعينه فى بيئة معينة وظروف معينة ، أو تحدد له عمره فى تلك البيئة ، أو تضمن له ألا يقع له كذا أو كذا من الأحداث !

إن الوجود فى « واقع » معين لا يجوز أن ينسينا أن ذلك الواقع كله — بكل ما يشتمل عليه من سنن « حتمية » — هو جزء من إرادة الله الحرة الطليقة ، التى تملك تغيير هذا الواقع ، وتملك ألا تنشئه ابتداء ، ولا تركب فيه تلك « الحتميات » !

ومن ثم لا تغنى « الأقدار » المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة ، عن قدر الله الملفع بالغيب ، المحجوب عن الأنظار !

والفن الإسلامى حريص على إبراز هذه الحقيقة . .

حريص على إبراز قدر الله من وراء الأحداث والأشياء والأشخاص .

وذلك لجملة أسباب :

السبب الأول : أن هذه حقيقة ! حقيقة واقعة لاتتم « واقعية » الفن دون إثباتها وإبرازها ووضعها فى مكانها الصحيح من اللوحة الفنية المعبرة عن حقيقة الحياة .

والسبب الثانى : أن تتبع هذه الحقيقة وآثارها فى الحياة التى تعرضها الفنون المختلفة ، عملية ممتعة فى ذاتها ، لأنها تستجيب لحقيقة فطرية فى داخل النفس : هى حقيقة التطلع الدائم إلى قدر الله المجهول ، الذى لاتملك كل قوى الأرض أن تكشف عنه ، مهما تلهفت إلى كشف الحجب واجتلاء الأسرار . والفن — ومهمته ، أو جزء من مهمته الإمتاع — قمين بأن يستجيب لهذه النزعة الفطرية ويقدم لها غذاءها الذى تشتهيه .

والسبب الثالث : أن رسم هذه الحركة الخفية التى تحرك الأحداث والأشياء والأشخاص دون أن تظهر بذاتها للعيان ، يعطى اللوحة جمالا أخاذا ، لأنه يستجيب لنزعة فطرية أخرى فى بنية النفس ، هى نزعة الإيمان بما لا تدركه الحواس . وهى نزعة عميقة لاتقل أصالة ولا عمقا عن نزعة الإيمان بما تدركه الحواس ! كلاهما خطان متقابلان فى النفس البشرية ، يعملان معاً ، كلٌ فى اتجاه [1] . ومن شأن هذه النزعة أن تحب إبراز القوى الخفية ، التى تملك السلطان ولكنها لاتبين .

والسبب الأخير : أن هذا يمنح اللوحة سعة هائلة ، حين يجعل وراء الأقدار المكشوفة المعلومة المقدرة ، التى تسيّر الناس فى ظاهر الأمر ، قدراً آخر خفيا هو الذى يحرك تلك الأقدار المكشوفة . وبذلك لاينتهى « المنظر » عند هذه « المقاطع » الحادة البارزة الملموسة ، وإنما يأخذ امتدادا آخر . . هو فى حقيقته

---

(١) راجع فصل «خطوط متقابلة فى النفس البشرية» من كتاب «منهج التربية الإسلامية»

امتداد لا نهائى ، لأنه يتصل بالقوة الأزلية الأبدية التى لا بدء لها ولا انتهاء .

ثم إن إبراز القدر على هذه الصورة يحدث من توه تغيراً حاسما فى « جو » اللوحة المرسومة . فليس يبرز سماتها و يوضح معالمها فحسب ، بل كذلك يمنح الأشياء والأشخاص والأحداث معنى آخر ، و « قوة » أخرى . إنها لاتصبح أشياء وأشخاصا وأحداثا مفردة ، مقطعة الأوصال ، منقطعة عن حقائق الكون الكبرى وناموس الوجود الشامل ، و إنما تصبح لتوها — بلمسة واحدة سحرية — أشياء وأشخاصا وأحداثا ذات دلالة كونية ، وذات وجود عميق لا يزول ، لأنها اتصلت بالقوة الكبرى الكائنة وراء ظواهر الأشياء . . قوة الخالق المدبر المريد .

ومن ثم يطمع هذا الفن فى « الخلود » !

* * *

والفن الإسلامى حريص على أن يلفت الحس إلى الناموس الأكبر الذى يحكم الكون والحياة والإنسان . إنه يأخذ من الإسلام شموله وسعته وتعبيره عن فطرة الكون . ولذلك لا يحب أن يعرض الحياة مقطعة الأوصال مفرقة الأجزاء ، فتفقد معناها الشامل ومغزاها العميق . و إنما يعرضها كما هى فى الحقيقة متصلة متناسقة مترابطة ، محكومة كلها بقانون واحد كبير .

وقد وصل العلم إلى شئ من أسرار هذا القانون الشامل الذى يجمع فى طياته الوجود ، على هدى الطاقة الذرية وما تحويه من ممكنات . ولكن الفن الغربى المعاصر مايزال متأثرا فى أغلبه بروح العلم فى النصف الأول من هذا القرن ، حين كانت سمته الغالبة هى العزل والإفراد والتخصيص ، لا التجميع والتنسيق والكشف عن القوانين العامة من وراء القوانين الجزئية المشتتة الاتجاهات !

لذلك مايزال هذا الفن يعرض الحياة البشرية فى عزلة عن ناموس الكون الشامل . ثم يعرضها هى ذاتها أجزاء وتفاريق . فهى أحيانا لحظة جنس منقطعة عن اشتباكات الحياة الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية . وتارة هى صراع طبقى ، أو « حتمية » من الحتميات التى تحكم — فى نظر أصحابها — الحياة ، دون النظر إلى كيان النفس الشامل ، الذى يتسع لكثير من المشاعر وكثير من أوجه النشاط كلها فى آن .

ولكن الفن الإسلامى المعبر عن روح الإسلام الشاملة لايحب هذا التمزيق المشوه لكيان البشر وكيان الحياة . بل يحب أن يعرض الحياة البشرية فى شمولها المتكامل الذى يشمل كل جوانب النفس الإنسانية الفاعلة فى هذا الوجود ، المنفعلة به ، المتصلة دائماً بما وراء حواجز الحس القريبة ، الواصلة بفطرتها إلى فطرة الوجود الكبير .

وتصوير الحياة البشرية على هذا النطاق الواسع الذى لايقف عند حدود الأرض القريبة ، وإنما يتعداها إلى ناموس الوجود الأكبر ، ويصلها بالله خالق الحياة والأحياء ، يضفى عليها ولاشك جمالا لاتعرفه معظم الفنون الحديثة التى تقطع صلة الأرض بالسماء ، وصلة الإنسان بالله ، فى الوقت الذى لن يفقدها هذا الشمول وسعة الأفق شيئاً من دقة تفصيلاتها وروعة تحليلاتها وعمق نفاذها إلى الجزئيات الصغيرة . وإنما هو يمنح هذه التفصيلات والتحليلات نفاذا أعمق حين يصلها بالمعنى الكبير الشامل الذى يشمل جميع الوجود .

* * *

وفى سبيل هذه الصورة الشاملة الواسعة للحياة البشرية يهتم الفن الإسلامى بإبراز دور العقيدة فى حياة الإنسان ، مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية أو بلورة فلسفية تبعد بالفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص .

وليس من الضرورى أن تُذكر العقيدة صراحة أو يذكر الدين . وإنما ترسم الحياة — كما أسلفنا — من خلال العقيدة وأثرها فى النفوس .

فالإحساس بجمال الكون وروعته عبادة .

والإحساس بالارتباط الحىّ مع الكائنات عبادة .

والتوجه للناس بالحب والعطف والرعاية عبادة .

والجهاد فى سبيل الحق والخير عبادة .

والتسليم لقدر الله عبادة .

والتطلع إلى الله فى المحن والأزمات عبادة .

وتحمل الألم والاصطبار عليه عبادة .

وشكر المنعم على نعمه عبادة . . .

وغلظ الإحساس والعزلة عن الكون وتقطع الروابط الحية مع الأحياء ، والحقد على الناس ، والقعود عن الكفاح فى سبيل الحق والخير ، والتحدى الأحمق لقدر الله ، والهلع فى المحن والأزمات والبطر بالنعم . . . كلها دلالات على انقطاع الصلة بالله وجفاف القلب من نداوة العقيدة . والفنان يملك أن يبرز دور العقيدة فى هذه الملامح المختلفة إيجابا وسلبا ، كما يستطيع أن يرسم تقلب النفس البشرية بين مختلف المشاعر والأوضاع ، دون أن يحتاج إلى كلمة وعظ واحدة أو بلورة فلسفية للعقيدة والدين .

ولكنه — حين يرسم هذه الملامح النفسية كلها من خلال العقيدة ، وبطريقة الفن لا بطريقة الوعظ — يكسب الحياة البشرية سعة مؤكدة ، فضلا عن إعطاء هذه الحياة معنى وهدفا وأصالة وعمقا ، حين يكلها إلى قيم ومعايير أكبر من حياة الأفراد ، بل أكبر من حياة الإنسان كله ، لأنها معايير الكون كله المتجه إلى الله بالعبادة ، والذى يمارس — فى هذه العبادة — التناسق

والتعاطف والطلاقة والحركة الموزونة التى لا تصادم فيها ولا انحراف .

* * *

والفن الإسلامى موكل « بالجمال » . . يتتبعه فى كل شئ وكل معنى فى هذا الوجود .

الجمال بمعناه الواسع الذى لايقف عند حدود الحس ، ولا ينحصر فى قالب محدود .

جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينها من تجاذب وارتباط .

وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وأضواء وظلال ، وجوامد وأحياء .

وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير وطلاقة وارتفاع .

وجمال القيم والأوضاع والنظم والأفكار والمبادئ والتنظيمات .

كل ذلك ألوان من الجمال يحتفى بها الفن الإسلامى ويجعلها مادة أصيلة للتعبير .

بل هو يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية ، سواء بالسلب أو الإيجاب .

فهو حين يعرض للاختلالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو النفسية أو الخلقية . . يعرضها على أنها « قبح » ينافى حقيقة الجمال التى ينبغى أن تكون راسخة فى حياة البشر ، لأنها راسخة فى بنية الكون كله والحياة .

الظلم الاجتماعى قبح لأنه ينافى جمال العدل .

والحقد النفسى قبح لأنه ينافى جمال الحب .

والانحلال الخلقى قبح لأنه ينافى جمال التسامى والارتفاع .

وهكذا كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال . هو قبح لأنه خروج عن الجمال الواجب الذى يتسق مع إرادة الله فى خلقة الكون .

وتصوير الجمال فى هذا المعنى الواسع والنطاق الشامل ، قمين بأن يرفع النفس البشرية من حدود الحس القريبة ومن قيمها المحدودة الضيقة ، إلى عالم أوسع وأفسح ، ومجالات شعورية أرفع وأعلى . . تحقق للإنسان معنى التكريم الذى أراده له الله حين قال : « ولقد كرمنا بنى آدم . . . » وتجعل للفن هدفا . . هدفا أعلى من دغدغة الغرائز واستثارة الميول الحسية الهابطة . هدفا توجيهيا يؤدى فعله فى النفس دون أن تحس ، ودون أن ينفرّها الوعظ المكشوف فى غير مجال الوعظ . . هدفا تتقبله النفس راضية مستجيبة ، لأنه يدخل إليها من طريق « الجمال » ، وهو طريق قريب إلى الفطرة حبيب إلى الشعور .

* * *

و بعد فتلك أبرز سمات الفن الإسلامى . . .

وعلى ضوء هذه السمات نستطيع أن نستعرض « نماذج من الفن الإسلامى » ، فى القرآن والشعر والقصة ، وغيرها من الفنون « الكلامية » التى نملك الحديث عنها فى هذا الكتاب . وقد استبعدنا الحديث عن الموسيقى — وهى فن إسلامى أصيل — لأن مجالها فى غير هذا الكتاب ، وعند غير هذا الكاتب ! والرسم كذلك والعمارة . . الخ . فنون متخصصة يتولاها المتخصصون !

وقد استبعدنا كذلك النحت والرقص بوصفهما فنين يعبران عن طريق الجسد وحده ، فيخلان بشرط من شروط الفن الإسلامى .

أما السينما . . ففى اعتقادى أنها آخر فن يمكن أن يدخل فى نطاق الفن الإسلامى ، لا لأن السينما فى ذاتها محرمة ، ولكن لأنها بصورتها الحالية ، الهابطة العارية المنحلة ، بعيدة جداً عن الجو الإسلامى . ولكنها — ككل فن آخر — تستطيع أن تكون إسلامية حين تتبع مفاهيم الفن الإسلامى التى وضحناها من قبل فى فصول الكتاب .

القرآن والفن الإسلامى

الفن الإسلامى فى حاجة شديدة لأن يراجع القرآن !

فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن ، كما هو الذخيرة الموحية للحياة !

وقد قلت فى مقدمة الكتاب إن القرآن ـ بتأثيره الساحر فى نفوس العرب ـ كان واحداً من أسباب انصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفنى فترة من الوقت ، لأنه أغناهم — مؤقتا — عن جمال الأداء بجمال التلقى والانفعال !

ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة لم يلجئوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم ، وأغراض تعبيرهم وطرائقه ، وإنما عادوا إلى الجاهلية كاملة فى مجال التعبير : أغراضه وطرائقه على السواء .

وتلك حقيقة تاريخية مؤسفة ، ضيعت على الفن العربى فرصة الإفادة من أكبر رصيد فنى يملكه المسلمون . بل أكبر رصيد تملكه البشرية كلها حين تتفتح له بصيرتها ، وتتلقى وحيه بحس مرهف مفتوح .

وأيا ما كانت أسباب هذا الانصراف فى الماضى ، فما تزال الفرصة قائمة للإفادة من هذا الرصيد الضخم ، وإقامة فن إنسانى سامق رفيع ، على أساس من التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان .

وقد كانت الفصول السابقة من الكتاب كلها دراسة لهذا التصور مأخوذة من القرآن .

وهذا التصور هو الذخيرة التى يستمد منها الفن موضوعاته ومجالاته ،

ثم تعمل البراعة الفنية عملها ، فتخرج من تلك المفاهيم فى شتى مجالاتها فنونا جميلة رائعة ، بمقــــدار ماتطيق التلقى ، وبمقدار ما تتفتح بصيرتها لارتباطات الـكون والوجود .

* * *

والقرآن — أولا — يعرض تصوراً شاملا للـكون والحياة والإنسان ، لايعرضه كتاب آخر فى الأرض بمثل هذا الشمول والإحاطة ، وبمثل هذه السهولة والوضوح . وهذا التصور كما قلنا هو الذخيرة الموضوعية للفن .

وهو — ثانيا — يضم نماذج من الأغراض الفنية والأداء الفنى ، لاتتمثل بمثل هذه الوفرة المعجزة فى كتاب !

ومن ثم فهو — من ناحيتيه هاتين — دستور كامل لأى منهج فنى يريد أن يعبر عن الحياة ، بتصور إسلامى أولا ، وكذلك على مستوى كونىّ .

* * *

والقرآن كتاب دين . .

ولـكن « الدين » فى المفهوم الإسلامى أمر شامل محيط .

إنه ليس عبادات معينة ينقطع لها الناس فترة من الزمن عن تيار الحياة .

وإنما الدين هو المنهج الشامل للحياة . . حياة المشاعر وحياة الأفكار وحياة السلوك وحياة الوجدان .

والفن — من ناحية أخرى — هو التعبير الجميل الموحى عن هذه الحياة .

ومن ثم يلتقى الدين والفن التقاء كاملا فى الحس المسلم ، حين يكون الفن قائماً على التصور الإيمانى للوجود وللمشاعر والأفـكار والسلوك والوجدان .

وقد بيّنا فى فصول الـكتاب السابقة أن « التزام » الفن بالمفاهيم الإسلامية

لا يضيق رقعته ولا يضيق حدوده . بل هو على العكس من ذلك يوسع الرقعة ويوسع الحدود ، حتى تشمل الكون كله والحياة كلها والإنسان . . فى أشمل نطاق يمكن أن يخطر فى حس إنسان .

كل مافى الأمر أنه « ينظّفه » . .

وإذا كانت النظافة قيداً من جانب ، فهى فسحة من جانب آخر ، لأنها تطلق النفس من قيود الضرورة القاهرة ، إلى عالم الطلاقة والحرية والجمال والإشراق (١) .

ومع ذلك فالإسلام — كما مربنا فى فصول الكتاب — يعمل حساب الضرورة القاهرة كما يعمل حساب الحرية والانطلاق . ويوازن بين الضرورات والأشواق .

والفن الإسلامى كذلك ، لايجانب الفطرة ، ولا يتجاهل الواقع ، ولكنه يعرض الحياة من خلال الواقع الكبير الذى يشمل الضرورة ويشمل الأشواق .

* * *

والقرآن هو المرجع الذى ينبغى أن ترجع إليه الفنون الإسلامية ، التى هى — بالمعنى الذى شرحناه فى الكتاب — فنون إنسانية رفيعة سامقة ، تصل إلى آخر حدود مايستطيع أن يصل إليه الإنسان من عمق ورفعة واتساع ؛ وفنون كونية يتسق مدارها مع مدار الكون ، ويتسق جمالها مع جمال الكون ، وتقوم موازينها على قواعد التناسق الكونى الدقيق الجميل .

وقد كان أول تفتحى للقرآن — فى مجال الفن — على كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » وكتاب « مشاهد القيامة فى القرآن » .

---

(١) انظر فصل « القيد والحرية » من كتاب « فى النفس والمجتمع » .

وظللت أقرأ القرآن بعد ذلك وفى حسى الجانب الجمالى منه واضحاً بارزاً ملموساً لاأملك ألا ألتفت إليه ، حتى وأنا أدرس القرآن — فى اتجاهى الخاص — من الجانب النفسى والتربوى بصفة خاصة .

ولكنى أذكر أن كلمة واحدة معينة فى إحدى آيات القرآن هزت نفسى أكثر من أى شئ آخر فى مجال التوجيه الفنى والجمالى فى هذا الكتاب المعجز العجيب :

« ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون »[1] .

الحديث هنا عن الأنعام . ولكن السياق لايكتفى بذكر « فوائد » الأنعام : « والأنعامَ خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » . وإنما يشير كذلك إلى الجمال الذى تنطوى عليه تلك الأنعام « حين تريحون وحين تسرحون » .

لقد فتحت لى هذه اللفظة المفردة آفاقا مشرقة ومنافذ عدة ، ظللت أعرج فيها فترة من الزمن ليست بالقصيرة ، حتى انتهت بى إلى كتابة هذا الكتاب !

إن الكتاب الذى يوجه الحس البشرى إلى الجمال ، لافى « المصابيح » التى تزين السماء فحسب ، ولا فى « الحدائق » ذات البهجة ، ولا فى « الجبال » و « الأنهار » ، ولا فى « الضحى » الرائق و « الليل » الساجى . . وإنما فى « الأنعام » كذلك . .

والكتاب الذى يعبر عن توجيهه لجمال الأنعام فى هذه الصورة . . الصورة المطلقة الطليقة : « ولكم فيها جمال . . » لا الصـــورة الحسية القريبة المحدودة ، من مثل : وإن هذه الأنعام لجميلة ، أو : وإنكم لترون جمال الأنعام . . ثم يضيف هذا الجمال « لكم » . . « ولكم فيها جمال . . » .

---

(١) سورة النحل [٦]

هذا الكتاب لايمكن بحال أن يكون معاديا للفن ! وقصة العداء بين الإسلام والفن قصة لايمكن أن يكون لها أساس من الصحة على الإطلاق !

إن الآيات التى وجهت للشعراء العرب فى الجاهلية لم توجّه ضد الشعر فى ذاته . ولا وجهت ضد الشعراء على إطلاقهم . وإنما ضد نوع معين من الشعراء :

« والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا . . »[١]

صحيح أن سياق الآيات يوحى بأن الشعراء الملعونين هم الأصل ، والمستثنون هم القلة . ولكن ذلك من ناحية كان يصدق على الشعراء الموجودين فى الجزيرة العربية يومئذ — وقد يصدق على كثير من الشعراء فى كل وقت — ولكنه من ناحية أخرى لايلعن الشعر كشعر ، ولا يطلق اللعنة على الشعراء عامة ، وإنما يصم سلوكا نفسيا معينا يتبعه أولئك الشعراء ، فمن خلص منه فلا تثريب عليه ، ولا على فنه الذى يعبر فيه عن مفاهيمه الإيمانية .

الملعون إذن هو الكفر . والمطلوب هو الإيمان .

ولا على المؤمنين — حين يكونون شعراء — أن يقولوا الشعر فى حدود تصورهم الإيمانى ومفاهيمهم الإيمانية ، وهم آمنون من اللعنة ، بل مثابون على قولهم بما ينال المؤمنون من الثواب .

* * *

وهذا الكتاب الذى يوجه الحس البشرى إلى « الجمال » بلفظه الصريح لايترك فرصة دون توجيه هذا الحس إلى الجمال بكل الوسائل « الفنية » التى تطيقها الألفاظ .

---

(١) سورة الشعراء [٢٢٤ — ٢٢٧]

وهو يوجه الحس لا إلى جمال واحد ، ولكن إلى كل لون من ألوان الجمال .

الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الأحياء ، والجمال فى النفوس والمشاعر والتصرفات والسلوك .

وسوف نستعرض فيما يلى نماذج من القرآن تتمثل فيها بعض أغراض التعبير الفنية و بعض طرائقه . ولكنا نريد قبل استعراض النماذج أن نشير إلى معنى الإفادة من القرآن فى عالم الفنون .

ليس المقصود هو « تقليد » القرآن فى طريقة معالجته لموضوعاته .

فالغرض الدينى الواضح والأصيل فى القرآن ، هو الذى يحكم كل موضوعاته وتوجيهاته وتعبيراته .

ولكنه — مع وفائه بالغرض الدينى كاملا — يحمل خصائص فنية تصل إلى حد الإبداع والإعجاز .(١)

وذلك إلى جانب المفاهيم التى يعرضها عن الكون والحياة والإنسان .

وحين نحاول الإفادة من القرآن فى مجال الفن ، فسنلجأ إلى الناحيتين معاً : المفاهيم وطرائق الأداء . ولكن لا لتقليدها كما ذكرنا ، وإنما لالتقاط «التوجيه» الذى تحمله ، والنسج على منواله فيما ننشئ من الفنون .

فحين نجد — كما يظهر لنا من النماذج التى سنستعرضها — أن القرآن يحتفى بمشاهد الطبيعة إلى حد يلفت النظر . . فإننا نكون إسلاميين فى فننا وقرآنيين حين يتشبع حسنا بهذه الحفاوة ، ونحس بالتجاوب الحىّ مع الطبيعة ، بوصفها مشاهد جميلة متناسقة خارجة من يد المبدع العظيم ، ثم نحاول التعبير عن هذا التجاوب فى صورة حية موحية جميلة .

---

(١) انظر بالتفصيل كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

وحين نجد القرآن يستخدم القصة للتربية ، ويضمنها كل توجيهاته المتمشية مع مفاهيمه عن الكون والحياة والإنسان ، فإننا نكون إسلاميين فى فننا وقرآنيين ، حين ننشئ القصة الهادفة ، ونستخدمها للتوجيه — الفنى لا الوعظى — ونجعل هذا التوجيه فى سبيل رفعة الإنسان وطلاقته لا فى سبيل هبوطه وانحلاله والتصاقه بطين الأرض ، مع عدم الإخلال « بالواقعية » التى تحملها الفكرة الإسلامية ويحملها القرآن : واقعية الواقع الكبير الذى يشمل الضرورات ويشمل الأشواق ، ويوازن بين الضرورات والأشواق ، ويعطف على لحظة الهبوط ، ولكنه يحاول أن يصعد منها إلى لحظة الرشد والإفاقة والانطلاق .

وحين نجد القرآن يستخدم فى التعبير طريقة التصوير ، فإننا نكون إسلاميين فى فننا وقرآنيين حين نتخذ هذه الطريقة فى تعبيرنا الفنى عن المشاعر والخلجات والحركات والتصرفات ، لإحياء الصورة وتجسيمها وخلع الحياة عليها حتى تصل إلى الوجدان حية متحركة عميقة التأثير[1] .

والفن الإسلامى مع ذلك ليس « مقيدا » بالموضوعات القرآنية ، ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا طرائق التعبير .

فله أن يختار من الموضوعات والأغراض والطرائق مايشاء .

ولكنه مقيد بقيد واحد : أن ينبثق من التصور الإسلامى للوجود الكبير ، أو — على الأقل — ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، ولا ينحرف عن هذه المفاهيم .

والمسألة هنا ليست مسألة « الدين » بمفهومه الضيق ، ولا مسألة « العقيدة » بمعناها التقليدى .

---

(١) انظر كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

إنها مسألة أن التصور الإسلامى كما يعرضه القرآن ، هو — كما رأينا فيما سبق من فصول الكتاب — التصور الصحيح المتمشى مع فطرة الكون كله والوجود ، والذى تنطق به الفطرة البشرية ذاتها حين تهتدى إلى الناموس ، والذى يصح أن يقال فيه إن مقاييس الجمال فيه هى مقاييس كونية ، تستند إلى التناسق الملحوظ فى الكون الكبير .

وأى تصور آخر يصطدم به أو يعارضه ، هو تصور منحرف عن الناموس الأكبر الذى يشمل الوجود .

وليس من حق الفن أن ينحرف عن ذلك الناموس ، لأنه بذلك يخرج عن « الجمال » الفنى ، الذى يتسق مع الجمال الكونى الكامن فى فطرة الوجود .

تماما كما لا يجوز للنجم أن يخرج عن مساره و يصطدم بغيره من الأفلاك . .

والنجم — بعد ذلك — طليق فى مساره الصحيح ، خفيف الحركة رشيق الانطلاق .

وهكذا نفهم التزام الفن الإسلامى بمفاهيم القرآن وطريقة القرآن .

ولكنه بعد حرٌّ فى اختيار موضوعه ، حر فى طريقة أدائه ، حر فى اختيار النسب والأبعاد والأضواء والظلال فى كل لوحة مفردة يرسمها ، مادام لا يخرج على النسب العامة التى ترسمها مفاهيم القرآن الكونية الكبيرة .

والآن فإلى النماذج الفنية فى القرآن . . .

أولا : مشاهد الطبيعة فى القرآن

يعجب الإنسان حين يستعرض مشاهد الطبيعة فى القرآن ، كيف خلا الشعر العربى الإسلامى من وصف الطبيعة إلا فى النادر ، وفى وصفٍ لا يكاد يتعمق الطبيعة إلا قليلا ، ولا يكاد يصل بينها و بين الوجدان البشرى إلا فى الأقل !

هذا مع أن احتفال القرآن بالطبيعة أمر بارز يلفت النظر و يلفت الحس ، ولا يمكن أن يقرأ القرآن قارئ دون أن تلفته هذه الظاهرة فى ثناياه !

والقرآن — كما قلنا فى مقدمة هذا الفصل — كتاب دين ، ولكن على المفهوم الإسلامى للدين ، الذى يشمل كل جوانب الحياة .

وهو كتاب تربية . . .[1]

يستخدم للتربية كل وسيلة يمكن أن ينفذ بها إلى منافذ النفس المختلفة ومساربها الخفية .

و « الجمال » من أوسع المنافذ إلى النفس . . تهش له بفطرتها ، وتلتقى روحها بروحه فى أخوة واستجابة واشتياق .

وجمال الطبيعة من أروع ألوان الجمال التى تهش لها النفس ، وتستجيب لها فى فرحة وانطلاق .

ولكن الإلف والعادة يفســـدان التطلع إلى ذلك الجمال الفذ ، فتتبلد الحواس لما ترى وما تسمع ، وتمر بكل شئ كأنما لا وجود له ، وتنسى بحكم التعود أنه رائع وأنه جميل !

---

(١) انظر كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

وعندئذ لابد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و « تستنشق » الحياة !

وتلك مهمة الفنون .

ولكن القرآن — وهو منهج حياة ، وهو كتاب تربية وكتاب دين — يهمه كذلك أن يوقظ النفس من تبلدها لتتفتح وتستنشق الحياة !

فإن الإنسان حين تدرك حسه هذه البلادة ينحصر فى دائرة ضيقة رتيبة خاملة لاتنبض فيها الحياة . ومن شأن ذلك أن يفسد نفسه جميعها . فالنفس المتبلدة لاتجيش لحمل أمانة الخلافة فى الأرض : لاتنزع إلى الخير ، ولا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر ، ولا تبنى ولا تنمى ولا تحوّر ولا تبدل فى هذه الأرض ، لأن ذلك كله حركة جياشة فعالة مُريدة . والحركة لاتنشأ من التبلد ، والجيشان لاينبع من الخمول !

فمن أجل خير هذه النفس وصلاحها ، من أجل رفع الحياة البشرية وترقيتها ، يسعى القرآن إلى تحريك هذه الحواس المتبلدة لتنفعل بالحياة فى أعماقها ، وتتجاوب تجاوبا حيا مع الأشياء والأحياء .

وهنا يلتقى الدين — بمفهومه الإسلامى — مع الفن ، ويلتقيان فى أروع صورة فى ثنايا القرآن !

* * *

« والقرآن حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله فى الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. فى أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ، ويوقظها من إلفها وعادتها فتتفتح للكون كأنه جديد .

« وحين يحدث هذا التفتح ، فإنه يُحدث أعجب الأثر فى الكيان البشرى.

« إنه يشبه — مع الفارق — ذلك النشاط الحيّ الذي يحس به الإنسان في أعضائه حين يخرج من الغرفة المقفلة الفاسدة الهواء ، فيتلقى النسيم المنعش على صفحة وجهه و يستنشقه إلى أعماقه . إنه يتجدد . . يتجدد حقيقة . . حساً ومعنى . . و ينطلق في خفة نشيط الحركات .

« والتفتح النفسي يشبه ذلك الأثر ، ولكنه أعمق وأشمل وأروع . إنه يهز الكيان النفسي كله و يوقظه و ينشطه و يجدد حياته . كل فكرة تمر به جديدة . وكل إحساس يخطر له جديد . وكل تجربة يمر بها فهي حية . . حية تطلق شحنة من النشاط وطاقة من الإشعاع .

« وما أعجب كل شيء يحدث لأول مرة ! إنه تجربة نفسية رائعة حية . . كأنها لمسة رقيقة تلمس طرف عصب مكشوف ، فيتفزز و يتأثر ، وينقل اللمسة إلى مركز الحس بكامل وقعها وكامل تدفقها . . إنها عملية جميلة ممتعة . . تملأ الحياة ثراء وسعة ومتاعا متجدداً على الدوام .

« ولو استطاع الإنسان أن يعيش كل شيء كأنما يحدث لأول مرة . . ! إذن لاستطاع أن يحس بالشباب الدائم الذي لايدب إليه العجز ولا الشيخوخة ولا الفناء !

« ولكنها عملية عسيرة . فمطالب العيش الدائمة ، وزحمة الحياة ، وقصر العمر ، ووفرة المشكلات ، كلها تستنفد الطاقة وتستنفد الاهتمام .

« ومع ذلك فالقرآن يصنع هذه العجيبة !

« إن أسلوبه الساحر ، وجوّه المشرق ، وروحه الصافية ، لتنقل الإنسان نقلا من إلفه وعادته ، وتهزه ليستيقظ ، تلمس — برفق — أعصابه المكشوفة ! فتعطيه الشحنة كاملة ، ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها . . ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ، و يستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب .

« والإنسان يعيش فى القرآن مع الكون فى لقاء دائم جميل حبيب . لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح . . نشيطة طليقة تسبح لله .

« والقرآن فى ذاته كتاب جميل ممتع ، لاينتهى منه قارئه حتى يحب أن يعود إليه من جديد . ومن ثم كان اللقاء متجدداً فى داخل النفس وفى صفحة الكون ، لاينفد ، ولا يُسْأَم ، ولا يزول » (١)

* * *

ونأخذ بعض الأمثلة لمشاهد الطبيعة فى القرآن :

« إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، ٱنظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٢) .

مثل من أمثلة كثيرة فى القرآن . .

توجيه للقلب البشرى إلى آيات الله فى الكون : الله فالق الحب والنوى . وفالق الإصباح . ومخرج الحى من الميت والميت من الحىّ . . والليل والنهار . .

---

(١) من كتاب « منهج التربية الإسلامية » فصل « تربية الروح » .

(٢) سورة الأنعام [٩٥ — ٩٩] .

والشمس والقمر . . والبر والبحر . . النخل والأعناب . . والزيتون والرمان . . إنه حشد هائل من مجالى الطبيعة الحية . . الحية بكل مافيها ومن فيها . فما يترك التعبير شيئاً منها جامداً لا يتحرك ولا تدب فيه الحياة ! وقدرة الله القادرة التى خلقت هذه الآيات كلها هى التى تبث فيها الحياة على هذا النحو المدهش ، وبالألفاظ المجردة لابالريشة ولا بالألوان ! (١)

الحركة الحية هى الظاهرة الملموسة فى المشهد كله .

الحركة فى الحب والنوى وهو يفلق فى باطن الأرض ليخرج منه نبات حى . .

والحركة الدائبة فى إخراج الحىّ من الميت وإخراج الميت من الحىّ . وهى حركة حين يتدبرها الحس المتفتح تملأ النفس من أقطارها ، وتشمل رقعة هائلة من الكون الذى لاتنى الحياة فيه تخرج من الموات ، والموات يخرج من الحياة .

وحركة النهار والليل والشمس والقمر والنجوم .

وحركة النسل التى أخرجت البشرية من نفس واحدة ، وما تزال دائبة فى المستودع والمستقر .

وحركة الماء النازل من السماء فيخرج منه نبات كل شئ .

ثم حركة « التنويع » فى النخل والأعناب والزيتون والرمان . تنويع بالأصناف المختلفة ، ثم باختلاف كل صنف على حدة « مشتبهاً وغير متشابه » .

وتنويع بطريقة التعبير !

لكأنى ألمح فى تنويع نسق التعبير فى كل مرة أمراً مقصودا لإيقاظ الحس ، حتى لا يستنيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله فى الكون !

إنه لا يقول هنا : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، كما يقول

---

(١) انظر كتاب « التصوير الفنى في القرآن » .

فى مواضع أخرى ! وإنما يقول : « يخرج الحىّ من الميت ، ومخرج الميت من الحى » . فيبده الحس بتغيير النسق قبل أن يسترسل مع رتابة التعبير فلا يتفتح تفتحا كاملا للآيات المحشودات !

ثم لايقول : فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا !

وإنما يقول : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا » !

تنويع آخر لكى لايستنيم الحس للنسق الرتيب !

ولا يقول هو الذى أنشأكم من نفس واحدة وجعل لنشأتكم مستقراً ومستودعاً (كناية عن دور الذكر والأنثى فى كل نسل جديد) فيُتْبِعُ الفعل « أنشأكم » فعلا آخر مشابها له ، وإنما يتبعه باسم : « فمستقر » !

ثم يقول : فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا » فلا يتبع الماضى ماضياً مثله ! (ولا ننسى هنا الموافقة التصويرية بين قوله : « فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا » ثم قوله : « متراكبا » بعد ذلك ، بعد أن تهيأ الحس بالتكرار المتوالى للفظ الإخراج ، لاستقبال شئ « متراكب » بعضه وراء بعض أو فوق بعض !) .

ثم يقول : « مشتبها وغير متشابه » فينوع فى اللفظين المتشابهين . .

هل ترى كل ذلك مصادفة !

أم هو أمر مقصود هنا للتنويع بكل وسائل التنويع ، وهو يستعرض أنواعاً مختلفة من الحياة فى صفحة الكون ، ويريد أن يلفت الحس للقدرة القادرة التى تخلق كل هذه الأنواع ، وينسق فى اللوحة المعجبة بين تعدد النماذج والأنماط فى المشهد وفى التعبير عنه سواء .

ألا إنه لون من الإعجاز فى التصوير والتعبير !

هذا ولا يجوز أن ننسى فى هذا المقام تلك اللفتة العجيبة فى قوله : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » :

إن الأشياء التى يستعرضها هنا أشياء تشتهى وتؤكل : النبات والخضر والحب والنخل والأعناب والزيتون والرمان . . ولكنه لا يقول هنا كما يقول فى مواضع أخرى : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ! وإنما يقول : « انظروا » ! انظروا إلى الثمر إذا أثمر واليَنع إذا أينع ! انظروا إلى « الجمال » ! انظروا بعيون مفتوحة وحس مستشرف لتملى الجمال . انظروا واستمتعوا بالنظر . . ولا يقول هنا كلوا . . لأن المعرض معرض الجمال المبثوث فى الطبيعة ، والقدرة القادرة التى تبدع الجمال !

* * *

والاستعراض يطول لو مضينا نستعرض كل مشاهد الطبيعة فى القرآن . فما تكاد سورة تخلو من مشهد أو عدة مشاهد ، فى اتجاهات شتى وبطرق للعرض متباينة . وإنما نكتفى بنماذج متفرقة تعطينا « عينات » فنية مختلفة .

فإذا كانت مشاهد الطبيعة قد حشدت حشداً فى الآيات السابقة لعرض آيات القدرة الإلهية التى تبدع « الأنواع » المختلفة من الكائنات ، واستخدم لبيان التنويع أداة فنية معينة هى تنويع السياق ليساعد على استكناه التنويع فى الطبيعة ، فهذا مثل آخر من التنويع يستخدم أداة أخرى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ »(١) .

إن الحس يوجَّه هنا إلى ظاهرة معينة فى قدرة الله هى تنويع « الألوان »

---

(١) سورة فاطر [٢٧ — ٢٨] .

فى الخليقة . ولـكنه لا يوجّـــه إلى ذلك فى صورة لفظية تجريدية . وإنما ترسم له — فى تلك الألفاظ القليلة المعدودة — لوحة واسعة فيها مخلوقات الأرض جميعاً من جماد ونبات وحيوان وإنسان ! النبات مختلف ألوانه . . وهذا ركن من اللوحة الواسعة ، أو وحدة من وحداتها ، متناثرة على رقعة اللوحة تناثرها فى الطبيعة الواسعة . والجبال ذات قمم بيض وحمر وسود .. وهذه وحدة أخرى من وحدات اللوحة تنتثر فيها الألوان هنا وهناك لتنسجم مع ألوان النبات المتباينة فى الأرض . ثم . . ناس مختلفة الألوان ، ودواب وأنعام مختلف ألوانها كذلك ..

والتنوع والاختلاف هو محور الصورة . . ولـكنه هنا يرسم بطريقة مخالفة للوحة السابقة . عنصرها توزيع الأشياء والأحياء والألوان على الرقعة وتثبيتها فى مكانها ، وكانت هناك عنصرها الحركة فى مختلف الاتجاهات .

***

وهنا حركة من نوع آخر :

« وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ

وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ »[1] .

لوحة واسعة شاملة تشبه فى بعض سماتها اللوحة الأولى . ففيها الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وفيها نبات الأرض المختلف الأنواع . وفيها البر والبحر . ثم يزيد عليها العيون المفجرة فى الأرض ، والإشارة إلى « الأزواج » المختلفة ، وتزيد عليها كذلك الفلك المواخر فى البحر .

ولكن المسألة ليست مسألة هذه الزيادة فى جزئيات الصورة . فحتى الجزئيات المشتركة لاتؤدى وظيفة واحدة هنا وهناك !

« الحركة » هنا من نوع آخر غير الحركة هناك .

هناك كانت الحركة — سواء خفية أو ظاهرة — حركة لطيفة وئيدة رتيبة هادئة .

ففلق الحب والنوى ـ وهو الحركة الوحيدة التى فى لفظها شئ من العنف ـ تتم فى بطء شديد وخفاء واستتار . وخروج الحى من الميت والميت من الحى حركة كذلك وئيدة خفية مستترة . وانفلاق الصبح يتم فى بطء خفى حتى يظهر النور الهادىء فى آخر الأمر . وهناك الليل سكن . والشمس والقمر حسبان . حسبان لا حركة ! والحسبان حركة رتيبة متتابعة تتم فى بطء وئيد . والنجوم التى يهتدى بها الناس فى « ظلمات » البر والبحر ، تتحرك ولكن حركة وئيدة خفية مستترة . وظلمات البر والبحر — وهى خفاء مستتر — تناسب ظلمات باطن الأرض الذى ينفلق فيه الحب والنوى . وحركة النسل فى المستقر والمستودع حركة كذلك بطيئة وئيدة ، وحركة تتم فى خفاء واستتار ، فالنطف المخفية فى الأصلاب والأجنة المخفية فى الأرحام كلتاهما تتحرك ولكن فى خفاء عن العيون وفى بطء وئيد مديد . ثم النبات المختلف يقال فيه : انظروا إلى ثمره

(١) سورة يس [٣٣ — ٤٤]

إذا أثمر وينعه . . والإثمار حركة لطيفة وئيدة تتم فى خفاء حتى تظهر آخر الأمر فى هدوء . . والنظر ذاته هادئ وديع !

أما الحركة فى هذه اللوحة فمن مستوى آخر ، وهى ذات « نغمة » أعلى وأحدّ !

فهنا العيون مفجّرة . . والتفجير حركة عنيفة ، والخيال يتصور الماء الذى يخرج من العيون المتفجرة منطلقا فى سرعة وتحدّر . ثم الأزواج . . « كلها » ! إنها لفظة جامعة ولكن فى حسم يشبه العنف ! والخفاء هنا: «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » ليس خفاء هينا لينا كظلام الليل الذى ينفلق منه الصبح ، ولا ظلام الأرض التى ينفلق منها الحب والنوى . ولكنه خفاء حاسم قاطع ! ثم الليل ليس «سكنا» كما كان هناك . . ولكنه هنا يشارك فى حركة عنيفة تتم فى كيانه . . هى حركة « سلخ » النهار منه ! « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » ! والسلخ حركة يعرف الحس عنفها وشدتها ، والجهد الذى تتطلبه لفصل ماينسلخ مما يسلخ منه ! ثم بعدها « فإذا هم مظلمون » هكذا فى مفاجأة « بإذا » وفى حسم ظاهر ! والشمس والقمر ليسا حسبانا هادئاً وئيداً كما كانا هناك . بل هما فى حركة شديدة كبيرة دائبة : « الشمس تجرى » وحتى كلمة مستقر « تجرى لمستقر لها » لا تسكّن الحركة فى الحس . فإنما تلقى فى النفس ظل الشئ المندفع ، الذى يستقر — حين يستقر — فى شدة وعنف ! والقمر فى منازل تغير شكله تغييراً واضحاً — لاخفيا — « حتى عاد كالعرجون القديم » ، ثم حركة السباق الهائلة بين تلك الأجرام السماوية : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر » وكذلك بين هذين المخلوقين المتداولين : « ولا الليل سابق النهار » . والفلك «مشحون»

وحركة الشحن حركة معروفة تلقى ظلا معينا فى النفس فيه كثير من الشدة والجهد . وأخيرا : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » ! وهنا تتمثل حركة الإغراق العنيفة وما توحيه من تشبث عنيف من جانب المُغرَقين . ومع أن عملية الإغراق لا تتم فعلا ، فإن حركتها تتم كاملة فى الخيال ، ويُسمع جلبة « الصريخ » بالفعل وإن كان فى الصورة منفى الحدوث !

* * *

وازن بين تلك الحركات العنيفة كلها وحركة الظل فى الآية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا »[1] .

إنها حركة يبلغ من لطفها أن تـكاد لا تتحرك ! ويزيد من لطفها والإيحاء ببطئها الشديد كلمة « ساكنا » مع أنها لا تتم فى واقع الأمر : « ولو شاء لجعله ساكنا » ! فمع أنه سبحانه لم يشأ أن يجعله ساكنا ، إلا أن وجود اللفظة يلقى ظلها فى النفس ، وهذا بعض المقصود من إيرادها . وظلها هو تبطىء حركة الظل حتى لتشبه السكون . وتلك حقيقة « طبيعية » فحركة الظل وئيدة جدا لا تـكاد تظهر . ولـكن التعبير يجسم هذا البطء ويعطيه « مساحة » فى الخيال ، لم يـكن ليـكتسبها لو كان لوصف تجريديا بحتا بغير تصوير ولا تخييل[2] . وكذلك تتم صورة البطء بتكملة الحركة فى الاتجاه الآخر : « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » . ولـكن لفظة معينة هنا تعطى المشهد كله معنى عميقا عجيبا يغير « نغمة » اللوحة كلها ، ويعطيها روحا جديدة لا يتيسر بيانها بالألفاظ ! إنها كلمة « إلينا » . « ثم قبضناه إلينا . . . » هذه الـكلمة تخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود

---

(١) سورة الفرقان [٤٥ — ٤٦] .

(٢) براجع كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

الذى كانت فيه ، فإذا فيها أمر آخر غير هذه الأرض . . إنه يد الله سبحانه تمتد لتقبض الظل « إلينا » . إلى الله سبحانه الذى لا يتحدد بمكان ولا حيز ولا نطاق ! إن الظل « المتجسم » هنا فى الأرض لم يعد كائنا أرضيا محدود النطاق . . ولكنه صار . . صار ماذا ؟ ! صار شيئا كونيا غيبيا مبدؤه هنا فى الأرض . . ونهايته عند الله الذى ليس له انتهاء !

وهذا كله يتناسق مع سياق الآية الذى ترد فيه مشاهد الطبيعة فى صورة الرحمة الإلهية على الناس :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا . وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا . وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً . لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا »(١).

وهو جو كله رحمة وعطف وود و إيناس .

* * *

وهذه اللوحة فى البحر :

« هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »(٢) .

إنها قصة كاملة فى لوحة ! قصة تشمل مشاهد الطبيعة وخلجات النفوس

(١) سورة الفرقان [٤٥ — ٤٩] . (٢) سورة يونس [٢٢ — ٢٣] .

متداخلة متشابكة ، يصعب انتزاع جزئياتها بعضها من بعض ! فهذا هو الفلك يجرى أولا فى ريح رخاء ، والنفوس فرحة راضية مستبشرة ، ثم تجىء الريح العاصف والموج من كل مكان . وهنا يرتسم الذعر فى القسمات ووجيب القلوب ، متناسقا مع الريح العاصف والموج المضطرب ، ومختلطا بهما كذلك ، ثم تسكن الريح وتنتهى « الأزمة » فى البحر ، وتنتهى كذلك من النفوس . . ويمضى كل فى حال سبيله ، غير عابىء بما كان قبل لحظات !

دقة عجيبة فى التصوير ، وإحياء لمشاهد الطبيعة ، ومزج لها بمشاعر النفوس ، يجعلها حية فى الحس ، حتى وهى تقسو أحيانا فتصيب النفوس بالهلع والاضطراب!

***

تلك أمثلة غيرها كثير فى القرآن . .

ولكن الذى يلفت النظر حقا ليس هو مجرد ذكر الطبيعة فى القرآن .

وإنما الذى يلفت النظر هو أنه لايكاد يوجد غرض من أغراض التعبير فى القرآن لم تستخدم فيه الطبيعة لإحيائه فى النفس وتوسيع مساحته فى الحس !

فهو لا يكتفى بتوجيه النظر إلى مجالى الطبيعة المباشرة كالأمثلة التى بينّا ، والتى ترد لها مشابه كثيرة جدا فى القرآن . وإنما يعبر بمشاهد الطبيعة عن « المعانى » النفسية والفكرية والاجتماعية ، التى لا يخطر فى بال بشر أن يستخدم الطبيعة للتعبير عنها وتوضيحها !

فالإنفاق عن مخادعة ورياء ، والإنفاق عن صدق وإخلاص ، لا يصفهما باللفظ المباشر المجرد ، وإنما يرسم لهما لوحتين من مناظر الطبيعة الحية المتحركة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »(١) .

فيتحول المعنى المجرد إلى معنى حيّ متحرك ، حين تشترك فيه الطبيعة برسم هذه المناظر المتتابعة .

ويرسم للكفر هذه اللوحات :

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا »(٢) .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ،

(١) سورة البقرة [٢٦٤ — ٢٦٦] . (٢) سورة البقرة [١٦ — ٢٠] .

ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ[1] » .

إنها صور عجيبة تهز النفس من أعماقها ، وتستدرج الخيال يتتبع تفصيلاتها المتحركة المتتالية . فالصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد و برق . . منظر العاصفة مكتملا بكل ما فيه من رعب وفزع . يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . . الموقف واضح بتفصيلاته . والخيال يتملاه كأنما يشاهده على شاشة الصور المتحركة فى أروع « لقطاتها » المثيرة . . كلما أضاء لهم البرق مشوا خطوة ، مذعورين مفجوئين ، فإذا أظلم عليهم وقفوا حيث هم فى حيرتهم مبلسين .

أو . . كسراب بقيعة .. المنظر ممتد على آخر البصر حيث يخايل السراب . كآمال الذين كفروا ممتدة إلى ما لا نهاية ، وهى كلها خداع ! « حتى إذا جاءه » . . والخيال يسير معه هذا « المشوار » الطويل الجاهد حتى يصل إلى مكان السراب : « لم يجده شيئا » ! روعة المفاجأة ، حتى والإنسان يعلم من قبل أنه لاشىء هناك ! ثم المفاجأة المذهلة الكبرى .. « ووجد الله عنده » .. « فوفاه حسابه » والخيال يتخيل منظر المفاجأة المرعب المهول . . ولا يملك الإنسان نفسه من هزة التأثر الهائل العميق .

أو . . كظلمات فى بحر لجىّ . .

إنها أروع لوحة من لوحات « الظلام » فى مشاهد الطبيعة يمكن أن ترسمها ريشة أو آلة مصورة . ومع أن المشهد لم يكن معروضا هنا لذاته ، و إنما لتصوير حالة الظلام النفسى الذى يورثه الكفر للنفوس ، فإنه أمدنا بلوحة طبيعية رائعة يتملاها الحس والخيال ، و يعمل فيها « الفن » بحرية وانطلاق !

***

(١) سورة النور [٣٩ — ٤٠] .

والحق والباطل يرسم لهما هذه الصورة من مشاهد الطبيعة :

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ، زَبَدٌ مِثْلُهُ . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ . كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ »(١) .

والكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ »(٢) .

* * *

بل تصل الحفاوة بمشاهد الطبيعة إلى حد استخدامها فى مجال التنزيه المطلق والتجريد الكامل ، فيرسم هذه اللوحة العجيبة . لوحة « النور » فى مقابل لوحة « الظلام » هناك :

« اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . نُورٌ عَلَى نُورٍ . يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(٣) .

* * *

(١) سورة الرعد [١٧] .
(٢) سورة إبرهيم [٢٤ — ٢٦] .
(٣) سورة النور [٣٥] .

تلك ظاهرة تلفت النظر فى القرآن . وهى ظاهرة يلتقى فيها الفن والدين التقاء كاملا كأنهما متطابقان ، ويعمل فيها الإعجاز الفنى جنبا إلى جنب مع التوجيه الدينى المطلوب من وراء تلك الصور الجميلة الحية المتحركة التى توقظ الحس للجمال ، لتوقظه لآيات الله فى صفحة الوجود .

فإذا وازنا بين هذه الوفرة العجيبة من مشاهد الطبيعة فى القرآن — كتاب الدين — وبين ندرتها العجيبة فى الشعر العربى — وهو كتاب الفن ! — أدركنا — فى هذا الجانب كما فى الجوانب الأخرى — مدى الخسارة التى أصابت الفن العربى من عدم استمداده من الرصيد القرآنى المذخور ، ومدى ما كان يمكن أن يكون عليه من الثراء الفنى ، لو أنه اتجه إلى هذا الرصيد الغنى يستمد منه الوحى والتوجيه !

ثانيًا: القصة فى القرآن

القصة فى القرآن ذات هدف دينى بحت . فهى مسوقة للموعظة والتربية والتوجيه . ولكنها مع ذلك تفى بكل مطالب الفن القصصى الخالص[1] .

وحين نتحدث عن الاستفادة من القرآن فى مجال الفن القصصى ، لا نقصد بطبيعة الحال أن يلتزم الفن الإسلامى بالقصص التى وردت فى القرآن ، سواء فى الموضوع أو فى طريقة الأداء . ولكنا نقصد أن يلتقط « التوجيه » الذى تحمله تلك القصص بمدلوله الواسع لا بمعناه الحرفى ، ويعمل فى محيط هذا التوجيه على نطاق واسع دون أن يتقيد بقيد موضوعى أو فنى . . ملتزما فقط بأن يستمد تصوره للحياة والأحداث والأشياء من التصور الإسلامى ، أوعلى الأقل لايصادم فى النهاية شيئا من المفاهيم الإيمانية .. فلا يحسّن الشر ولا يقبّح الخير ، ولايدعو إلى المنكر ، ولا يبارك لحظة الضعف ويجعل منها بطولة ، ولا يقبع داخل الواقع الصغير الذى تحكمه الضرورة القاهرة ، ويهمل الواقع الكبير الذى يتسع للضرورة كما يتسع للانطلاق من الضرورة . وعليه كذلك ألا يفصل بين الأرض والسماء لأن هذا الانفصال ليس حقيقة ولا بين الإنسان والله . فذلك أيضا ليس حقيقة . وأن يوسع اللوحة التى تجرى عليها أحداثه وأشخاصه ، فلا تقف فيها الحادثة عند دلالتها المفردة ، ولا الشخص عند كيانه الفرد ، وإنما تشير الحادثة إلى السنّة الشاملة ، ويشير الشخص إلى « الإنسان » من وراء الظروف والملابسات . وترتسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث ، على أنها القوة الموجهة المريدة التى تسيّر كل شىء بمقتضى الناموس الأكبر الذى يحكم الوجود .

---

(١) انظر فصل « القصة فى القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

إنه فن « ملتزم » . . ولكن ليس بالمعنى الضيق للالتزام . فهو لا يلتزم « بمذهب » معين ، ولا هو كذلك فن وعظي يدعو إلى فكرة معينة بطريق الوعظ والدعاية المباشرة . وإنما هو « يلتزم » فقط بمجاراة الناموس الكونى فى جماله وتناسقه وتوازنه وطلاقته من الضرورة . ويهدف إلى إنشاء إنسان صالح ، إنسان يتوافق مع ناموس الكون ، ولا يشذ عنه بطريق الانحراف . ويتخذ وسيلته إلى ذلك عرض « الجمال » و « القبح » بمعناهما الواسع ومجالاتهما الشاملة : فى المشاعر والأفكار والتصرفات والسلوك ، بحيث تشتاق النفس فى النهاية إلى الجمال وتنفر من القبح ، دون أن تحس « ضغطا » فى هذا الاتجاه أو ذاك .

ومن هنا يخرج من مجال الفن الإسلامى كل القصص « الجنسية » التى لا تهدف إلى شىء سوى إثارة الغريزة ، والتى تصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس مسعور . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التى تزين الفاحشة — أية فاحشة : نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو خلقية — وتبينها فى صورة جميلة . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التى تعرض نقائص الإنسان فى صورة علمية باردة على أنها هى وحدها حقيقة الإنسان الأصيلة العميقة . فليس ذلك حقيقة . وكل القصص التى تقلب القيم فتصور انتصار الشّر على الخير على أنه سنة كونية . فليس ذلك حقيقة (وإن بدا فى فترة معينة من الزمن أنه حقيقة !) وكذلك كل القصص التى لا تهدف إلى شىء ! فليس حقيقة أن هناك شيئا بلا هدف فى هذا الوجود !

ثم يبقى بعد ذلك مجال واسع جدا لتصوير الحياة البشرية فى شتى حالاتها ومجالاتها ، وتصوير النفس البشرية فى شتى انفعالاتها وتقلباتها ، وتصوير القيم الإنسانية فى شتى مستوياتها ودلالاتها . . مقيسة كلها بنواميس الوجود ، وبفكرة

« الجمال » الأصيلة العميقة فى بنية الكون والحياة والإنسان . مجال تلتقى فيه « الحقيقة » الكونية « بالجمال » الكونى ، بلا تعارض ولا اصطدام ، لأنه لا تعارض فى فطرة الكون بين الحقيقة والجمال !

* * *

وقد استخدم القرآن — فى أغراضه الدينية البحتة — كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التى تعرض نموذجا لحالة بشرية ، فيستوى أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك النموذج . والقصة المضروبة للتمثيل ، والتى لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة وأى عصر من العصور .

من النوع الأول كل قصص الأنبياء . وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من هذا التكذيب . وهى قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر : موسى وفرعون . عيسى و بنى إسرائيل . صالح وثمود . هود وعاد . شعيب ومدين . لوط وقريته . نوح وقومه . . إلخ .

ومن النوع الثانى قصة ابنى آدم : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ : لَأَقْتُلَنَّكَ ! قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ . إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ . قَالَ : يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى ؟! فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ »[1] .

(١) سورة المائدة [٢٧ — ٣١] .

ومن النوع الأخير قصة صاحب الجنتين : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ : مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ! وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ! وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ؟ ! إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا »(١) .

* * *

وقد كان أمراً طبيعيا أن تكون القصة فى القرآن « موجّهة » خاضعة للأغراض الدينية التى جاءت لتحقيقها . فليس القرآن كتاب قصص فى أصله . وإنما هو — كما قلنا — كتاب تربية وتوجيه ، وإنشاء حياة إنسانية كاملة . ولكن الدقة فى الأداء ، وبروز القواعد الفنية فيه ، تجعل القصة — مع خضوعها للغرض الدينى — طليقة من الوجهة الفنية ، وتتيح لنا أن نتحدث فيها عن بعض السمات والخصائص الفنية البحتة من حيث دلالتها فى منهج الفن الإسلامى .

* * *

(١) سورة الكهف [٣٢ — ٤٣] .

من السمات البارزة فى قصص القرآن أنها قصص « نظيفة » .

وليس المقصود بالنظافة أنها تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء ! فالقرآن يعرض تلك النفس فى جميع حالاتها : حالة القوة وحالة الضعف . حالة الارتفاع وحالة الهبوط .وحالة التأرجح بين القوة والضعف والارتفاع والهبوط . كما يرسم الدوافع المختلفةالتى تتناوش نفوس البشر فى الأرض ، فتدفعهم حينا إلى اللصوق بالطين ، وتتيح لهم حيناً فرصة الرفرفة والانطلاق .

ولكن منشأ النظافة أنه حين يلم بلحظة « الضعف البشرى » لايصنع منها بطولة تستحق الإعجاب والتصفيق ! إنه يعرضها عرضاً « واقعياً » خالصا ، ولكنه لايقف عندها طويلا ، وإنما يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة . لحظة التغلب على الضعف البشرى ، لأنها الجديرة بتسليط الأنوار عليها . وهى فى حقيقتها « الإنسان » الذى كرمه الله وفضله على كثير من الخلق ، وعهد إليه بالخلافة الراشدة فى هذه الأرض .

فهو إذ يعرض الفتنة التى وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى . . يعرض لحظة الضعف كما هى بلا «رتوش» . إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها — على واقعيتها — لا تستحق الاحتفال، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفئ منها إلى نفسه ، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها ، وينيب إلى الله .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ! خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ : لَقَدْ

ظلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ! وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ! وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ »(١) .

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ ! فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »(٢) .

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . . قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(٣) .

« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ . قَالَ : هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي . فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَىٰ : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

---

(١) سورة ص [٢١ — ٢٤]   (٢) سوة ص [٣٠ — ٣٥]

(٣) سورة يوسف [٢٤ ، ٣٤]

مُبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ: يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ : رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ : عَسَىٰ رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ »(١) .

تلك وأمثالها لحظات « ضعف بشرى » يعرضها القرآن دون مداراة على أصحابها . ولكنه لايصنع منها بطولة . لأنها فى الحقيقة ليست كذلك !

كما أن هناك سمة بارزة أخرى فى القصص القرآنى وهو يعرض قصص « الفاحشة » . إنه لايعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة كما تصنع المذاهب« الواقعية » و « الطبيعية » فى المذاهب الحديثة الضالة . فلحظة الجنس — منحرفة أو غير منحرفة — لاتستأهل الوقوف الطويل عندها. فإنها ليست هى الحياة ، إنما هى وسيلة من وسائل الحياة . إنها عارض يعرض فى الحياة ويُقْضَى . يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق . يفسح المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة والإنسان . لملء المشاعر بذلك التصور ، و إطلاق النفس فى واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله ماتقدر عليه : من إقامة مجتمع نظيف . من تربية نفوس مستقيمة . من إقامة الحق والعدل فى الأرض . من تمتيع الناس بحقوقهم ، وتجميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش ، فى غير فتنة بها ولا انحراف . وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الحس البشرى ، وتشغل همّ الإنسان الرفيع الذى ينبغى أن يعمر وجه الأرض .

(١) سورة القصص [١٥ — ٢٢]

ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها، وتفصيصها، و إعادتها، والتفنن فى عرضها، لأن ذلك إسراف فى المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية، وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية. وهى ليست كذلك ولا ينبغى أن تكون.

تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن «الفاحشة». وهى كذلك ينبغى أن تكون مرعية فى كل القصص الإسلامى. إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية — نظيفة أو غير نظيفة — ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف. ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض. لحظة ضعف لا لحظة بطولة. ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب، ولا يظل دائرا فى حلقتها المرتكسة على الدوام [1].

☆ ☆ ☆

أما الخصائص الفنية ففى فصل «القصة فى القرآن» فى كتاب «التصوير الفنى فى القرآن» حديث مفصل عنها لا أجد بأساً من تلخيصه فى هذه السطور:

أولى هذه الخصائص الفنية تنوع طريقة العرض:

فمرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها.

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة من أولها وتسير بتفصيل خطواتها.

ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون فى مفاجآتها الخاصة مايغنى.

ومرة يحيل القصة تمثيلية. فيذكر فقط من الألفاظ ماينبه إلى ابتداء العرض، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها.

وثانية هذه الخصائص تنوع طريقة المفاجأة:

(١) عن كتاب «منهج التربية الإسلامية».

فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معاً في آن واحد .

ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عماية ، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين ، وأغلب مايكون ذلك في معرض السخرية ، ليشترك النظارة فيها منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين !

ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع ، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة .

ومرة لايكون هناك سر ، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت ذاته .

وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة ، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد ، التي يتركها تقسيم المشاهد و « قص » المناظر ، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب .

والخصيصة الرابعة هي التصوير . إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثا يقع ومشهداً يجري ، لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى .

وهذا التصوير في مشاهد القصة ألوان : لون يبدو في قوة العرض والإحياء . ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات . ولون يبدو في رسم الشخصيات . وليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه . ولكن الواقع أن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً .

والآن نستعرض نموذجاً من نماذج القصة في القرآن ، لنرى بعض هذه الخصائص والسمات .

قصة آدم

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ! إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

« وَقُلْنَا : يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

« فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(١) .

* * *

تلك قصة آدم . . قصة البشرية كلها من المنشإ إلى المصير . . قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه .

---

(١) سورة البقرة [٣٠ — ٣٩]

« و إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

فالإنسان ليس نباتاً شيطانيا ، خرج إلى الوجود حيثما اتفق ، بلا قصد من خلقه ولا غاية . . وليس هو كذلك « حلقة » من حلقات التطور ، أوصلتها الحلقة السابقة إلى مكانها ، ثم تركتها لحظها فى خط التطور العشوائى المتشعب الذى تلعب المصادفة فيه دورها على غير نظام معلوم !

و إنما هو من خلق الله ، عن قصد منه سبحانه وتدبير :

« إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

فهى إرادته العليا التى « جعلت » الإنسان إنسانا ، وهى إرادته العليا كذلك التى « جعلت » لهذا الإنسان مهمة معينة . . مهمة الخلافة عن الله فى الأرض .

مولد الإنسان تحتفل به السماوات !

هذا هو الملأ الأعلى من الملائكة يُعلَن بالنبأ العظيم ، يعلنه الله سبحانه وتعالى بذاته : « و إذ قال ربك للملائكة . . » .

ومنذ اللحظة الأولى تحدد له مهمته فى إعلان ووضوح . فهو مخلوق مميَّز الوضع منذ أول لحظة ، متفرد فى ظروف وجوده وخلقته ، لا كغيره من المخلوقات! « خليفة » . . !

والملائكة يحارون فى أمر هذا المخلوق ، ويدهشون لقرار الله سبحانه فى أمره — وهم الذين يقابلون أمر الله كله بالتسليم المطلق والترحيب — ولكن كأنما يحسون بعظم النبإ وخطورته ، ويحسون بعظم النتائج التى ستنتج من وجود هذا الإنسان وخطورتها . . ولعلهم قد رأوا « عينات » سابقة تنذر بما ذكروه من سفك الدماء والإفساد فى الأرض ، أو ربما كُشِفَ لهم عن علم ذلك ، فهم مشفقون من وجود هذا المخلوق الخطر الذى سيغير صورة الحياة على وجه الأرض !

ولكن الله العليم الحكيم يرد عليهم بأنه يعلم مالا يعلمون . فعلمه الشامل المحيط ، الذى يعلم بدء كل شىء ومنتهاه ، لأنه هو خالق كل شئ من بدئه لمنتهاه . . هذا العلم الشامل يعرف حقيقة الدور المعدّ لهذا الكائن الجديد ، الذى يعلن الله سبحانه بذاته نبأمولده فى العالمين : «قال : إنى أعلم مالاتعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها » .

إنها المزية الموهوبة لهذا المخلوق . . إنها الموهبة التى يزوّد بها منذ مولده ليستعين بها على أداء دوره فى الأرض . إنها « المعرفة » زاد الإنسان الأكبر فى هذه الحياة .

وحين يكشف الله للملائكة عن هذه الموهبة التى ميز بها ذلك المخلوق . . لايملكون أنفسهم أن يسبحوا لله العليم القادر ، الذى يخلق مالا يعلمون .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » .

سجدوا للقدرة المعجزة المتمثلة فى خلق الإنسان . إنه بصورته التى خلق عليها ، بمواهبه التى أعطيت له ، بدوره الذى يهيأ له . . معجزة تستحق السجود للخالق العظيم .

وكل خلق الله معجز . وكله عظيم . والحياة ذاتها من أكبر معجزات الخالق . والملائكة يسبحون لله ليلهم ونهارهم ولا يفترون . ويسجدون لله فى كل حين . ولكن النبأ العظيم هنا يُبْرَزُ إبرازا ، وتعطى له أهمية واضحة ، و « تحشد » له وسائل الاحتفال حشداً لتبرز قيمته كلها منذ البدء .

وذلك « فن » . . يجىء لخدمة الغرض الدينى هنا ، ولكنه فى ذاته يحمل كل خصائص الفن الخالص ، لأن الدين والفن فى الإسلام كلاهما يعبر عن الحقيقة الكبرى .

« إلا إبليس » !

إنه وحده قد أكلت الغيرة قلبه من هذا الوافد الجديد ، الذى تدل النذر كلها على عظمة دوره المقسوم له فى هذا الكون ! فلولا عظمة هذا الدور ما كان هذا الاحتفال الذى يُجْمَعُ الملأُ الأعلى لتلقى أنبائه مباشرة من الله العلى العظيم !

« أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

« وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة » .

لقد خلق الله لآدم من جنسه زوجا ، لم يجئ ذكرها بالتفصيل هنا — وفصّل فى أماكن أخرى — ولكن الإشارة واضحة .

وقيل لآدم وزوجه اسكنا الجنة . .

والإنسان منذ مولده مخلوق للأرض ! « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . فهو لم يخلق ليبقى فى الجنة ، التى شهدت مولده . ولم تكن إرادة الله له أن يبقى فى الجنة ، ولا أن يكون دوره النشيط فيها . ومع ذلك تتاح له هذه الفرصة القصيرة ليتذوق طعم الجنة ويعلم كم فيها من نعيم . ويعلم كم يستحق هذا النعيم ! إن الجنة بالنسبة له ليست خيالا طائراً ، ولا شوقاً مبهما ، ولا أمنية حائرة . وإنما هى حقيقة يشهدها بنفسه قبل أن يهبط إلى الأرض لدوره المقسوم . . لتظل ذكراها فى نفسه حية نابضة ، وحنينه إليها مشاعر واضحة ، وسعيه للعودة إليها حقيقة واقعة [1] .

« وكلا منها رغدا حيث شئتما » .

النعيم كله مباح . . « رغدا » . . فهو ميسر وقريب المنال .

ولكن الدور الذى يهيأ له هذا المخلوق العظيم الوزن فى السماوات ، يحتاج

(١) انظر تفسير هذه الآيات فى « ظلال القرآن » الجزء الأول ، الطبعة الثانية المنقحة ص ٦٥ — ٧٤ .

أن تكون له قوة ضابطة ، يستطيع أن يمتنع بها عن بعض ألوان النعيم ، حين تقتضى ظروف الأرض ذلك الامتناع . ولابد من تربية هذه القدرة بالتجربة العملية . فالتربية النظرية لاغناء فيها حتى توضع على محك التجربة . والتدريب لايكون إلا بالممارسة الفعلية .

« ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

أىّ شجرة هى ؟ ولماذا « هذه » الشجرة ؟ذلك علمه عند الله . ولكن يستوى أن تكون أيّة شجرة . فالقصد هو التدريب على الامتناع . هو تربية القوة الضابطة . فإن أكلا من هذه الشجرة فقد أخفقا فى التجربة وسقطا فى الامتحان . وكانا عندئذ « من الظالمين » . ظالمين لنفسيهما ، إذ يعزفان عن تزويد نفسيهما بالقدرة اللازمة للدور العظيم ، ويعرّضان نفسيهما لدخول المعركة من غير سلاح .

« فأزلهما الشيطان عنها » .

وفى مواضع أخرى ترد صيغة الإغراء التى فتن بها الشيطان آدم وزوجه . فمرة ترد هذه الصيغة : « قال يا آدم : هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ؟ ! » (١) ومرة ترد فى هذه الصورة : « وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » (٢) . إنها إذن « شهوة » الخلود هى التى استزل بها الشيطان آدم وزوجه فأكلا من الشجرة . . أو شهوة « الملك » . . القوة والسيطرة والسلطان .

إذن . . لقد صارت هذه الشجرة « شهوة » . .

وهذا المخلوق العظيم الذى يتلقى الملأ الأعلى نبأ مولده من الله سبحانه

---

(١) سورة طه [١٢٠]   (٢) سورة الاعراف [٢٠]

مباشرة ، وتحتفل به السماوات كل هذا الاحتفال ، والذى يعدّ لدوره الضخم ، ويزوّد بإمكانيات ذلك الدور . . إنه — على هذا كله — يحمل نقطة ضعفه التى يستزله منها الشيطان ، عدوه اللئيم الذى أكلت قلبه الغيرة منه .

يضعف إزاء الشهوات .

يستوى أن تكون شهوة علم ، أو شهوة قوة ، أو شهوة سلطان ، أو شهوة ملك ، أو شهوة جنس ، أو شهوة خلود .

إنها « شهوة » حين تركبه فلا يملك نفسه منها . . لايملك الامتناع عنها حين يريد الامتناع . وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد ، فيقوده من خطامه فى طريق الشهوات . وعندئذ يبعد به عن الدور المعدّ له . دور الخلافة عن الله . فهو مشغول بشهوته . عاجز عن ضبط نفسه إزاءها . عاجز عن الارتفاع عنها . عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلا . . إلى الله .

« فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه » .

أخرجهما من نعيم الجنة حسّيه ومعنويه سواء . أخرجهما من مستوى الرفعة الكريمة التى يمارسان فيها أجمل مافى كيانهما من إشراق .

ولكأنما كان ذلك هو الموعد المضروب لهما أن يهبطا إلى الأرض ، ليؤديا دورهما الأصيل :

« وقلنا اهطبوا . بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

ولكن لم يكن بد من التجربة قبل الهبوط . . ليعرف الإنسان — من تجربته الذاتية — لماذا هبط من النعيم . ليعرف أن الذى يهبط به هو شهواته . نقطة الضعف المركبة فيه . وأنه يرتفع حين يضبط هذه الشهوات . حين يمتنع

إذ يريد الامتناع ، أو يقتضى الأمر الامتناع . وأنه يهبط حين لا يضبط هذه الشهوة . حين لا يملك القدرة على الامتناع . .

وإذ يعرف ذلك تدركه رحمة الله .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

إنه لا يهبط إلى الأرض منبوذا محتقراً مطروداً من رحمة الله . كلا ! فالله قد خلقه ليؤدى دوره فى الأرض . ومركز خلافته وميدانها هو الأرض . وهو قد جاءها ليؤدى المطلوب منه ، المقسوم له منذ الأزل . وإنما كان الغضب عليه للحظة الضعف التى أصابته ، فكان الرضا عنه حين عرف ميزان نفسه ، وأدرك متى يهبط ، وكيف السبيل إلى الارتفاع .

« إنه هو التواب الرحيم ».

« قلنا اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدًى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

لقد اكتسب الإنسان التجربة المناسبة لدوره الخطير . إنه خليفة الله فى الأرض ، المزود بوسائل الخلافة ومواهبها ، والمشتمل كذلك على نقطة ضعف ينفذ منها الشيطان عدوه الحاقد اللئيم . ومن ثم كانت تلك التجربة التى تكشف له نفسه على حقيقتها ليحترس . ليغطى نقطة الضعف ويقويها بعد أن لمسها بنفسه حقيقة واقعة . وليحترس من العدو الواقف بالمرصاد ، بعد أن لمس بنفسه قدرته على الخديعة ، والمنفذ الذى يتاح له الولوج منه إلى نفس الإنسان .

ومن ثم تصبح هذه التجربة ذاتها — على مرارتها — جزءا من مقومات الخلافة فى الأرض . جزءا من « القوة النفسية » الممنوحة للإنسان . جزءا من الزاد الذى يزوّد به لأداء الدور . وهى فوق ذلك عبرة لكل بنى آدم ،

الذين يشهدون فى أنفسهم ذات التجربة ، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم فيتوقون للعودة إلى الجنة التى أخرج منها أبوهم القديم .

وهم عائدون . .

عائدون بعد أن يؤدوا الدور الذى خلقوا لأجله من الأصل . دور الخلافة عن الله فى الأرض . .

عائدون بشرط :

« فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

إن الله بعد أن زوّد الإنسان بالتجربة الكاشفة ، والقوة النفسية المستمدة من التجربة ، لم يتركه وحده وهو يقوم بدوره على الأرض . لم يتركه لنفسه وفيها مافيها من ضعف . ولم يتركه لعدوه الواقف له بالمرصاد ، دون أن يهديه السبيل إلى مناجزة ذلك العدو ، والسبيل لتقوية مافى النفس من ضعف ، والسبيل إلى القيام بالخلافة كما ينبغى لخليفة الله .

إنه يمده بالهدى . .

يمده بالدستور الذى ينظم حياته على الأرض ، ويرفع من شأنها ، ويوجهها وجهة الخير .

يمده بالنصائح والتوجيهات والتحذيرات فى كل خطوة من خطواته . ويزوده بالمعرفة النافعة التى تعينه على تخطى العقبات ، والتى تيسر له المهمة الشاقة ، وتكشف له عن طاقات نفسه الحقيقية ، وما تستطيع أن تكون عليه من رفعة وعظمة واقتدار ، لوسار بها على النهج القويم . . فى طريق الله .

فمن تبع هذا الهدى . . من سار على هذا النهج . . من عمل بهذا الدستور . . فهو ناجٍ من المهالك . ناجٍ من العدو . ناجٍ من عثرات الطريق . « فلا خوف

عليهم ولاهم يحزنون » وموعدهم الجنة فى آخر المطاف ، يعودون إليها بموجب وعد الله الثابت ، أن يعيد إلى النعيم المفقود من تبع هداه .

أما المكذبون الكافرون . . أما الذين يصرون على المخالفة ، ولايتوبون لله التواب الرحيم . . أما الذين يفتحون للشيطان منافذه فى نفوسهم ، ويسيرون فى طريق الشهوات . . أما هؤلاء فقد حقت عليهم عقوبة الطرد الأبدى من النعيم الموعود . و « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

* * *

تلك قصة البشرية . . بدأها آدم ، وما تزال تتكرر فى حياة البشر على صورة من الصور على ممر الأجيال .

والقرآن يعرضها بطبيعة الحال لهدف دينى بحت ، هو التحذير من نزغات الشيطان ، والحض على اتباع هدى الله ، والترغيب فى الطاعة والترهيب من العصيان . . وذلك إلى جانب بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وإشعار هذا الإنسان بقيمته فى نظام هذا الوجود ، وبكرامته على الله سبحانه ، وبتكاليف هذه النظرة وهذا التكريم .

ولكن هذا الهدف الدينى البحت تستخدم له هنا الوسائل الفنية بدلا من إلقائه موعظة مباشرة . فتستخدم له القصة ، وتستخدم فى القصة كل وسائل التشويق والعرض التى تستخدم فى الفن الخالص .

وتلك ذخيرة فنية صالحة للاقتداء بها من ناحيتين : ناحية استمداد النظرة إلى الإنسان من خلال هذه النظرة الإلهية إليه ، وهى تمثل حقيقته كما خلقها الله . وناحية التناول الفنى للموعظة التى توجه الناس إلى الخير والكرامة والنظافة . . « فالموعظة » المطلوبة ، أو « التوجيه » الخلقى المطلوب ، يمكن أن يصاغ فى قصة

فنية ، فيؤدى هدفه أبلغ أداء ، دون أن تظهر فيه الموعظة بصورة مباشرة ، ودون أن يكون التوجيه أوامر ونواهى مجردة ، خالية من « الكساء » الحى الذى يوسع مساحتها فى الحس ، ويجعلها أبلغ وصولا إلى أعماق النفس .

ثم إن هذه القصة تحمل إيحاءات شتى فى « الموضوع » الفنى ينبغى أن يتيقظ لها الفن الإسلامى وهو يحاول الاستفادة من القرآن فى مجال الفن .

فالإيحاء الأول أن الإنسان كائن فذ متفرد فى خلقته ومواهبه ، وأنه مخلوق لهدف جاد ، هو الخلافة عن الله فى الأرض .

ومن ثم ينبغى أن يكون القَصَصُ — والفن كله — جادا فى عرضه للحياة البشرية .

ولا نقصد « بالجد » أن نلغى الفنون « الهزلية » (الكوميدية) من الحساب ! كلا فالملهاة يمكن أن تكون جادة جداً فى الموضوع الذى تتناوله بالسخرية والإضحاك .

ولا نقصد أن يفقد الفن نداوته وطلاوته وعذوبته ، ليصبح نصائح وقواعد خلقية وإرشادات !

إنما نقصد بالجد هنا أن نؤمن بجدّية الحياة وأهميتها ، وعظم الدور الذى يقوم به الكائن الإنسانى فى هذا الوجود ، وارتباطه بإرادة الله العليا ، وسريان قدر الله فى الأرض عن طريق أعماله ومشاعره وأفكاره : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . . فلا نرسم الحياة تفاهة وانحلالا وفراغاً من القيم والأهداف (إلا أن نريد هذا العرض عن قصد لننتقده ونُنَفّرَ منه) ولا نرسمها ذات أهداف واطية قريبة كأهداف الحيوان . . فذلك يخالف « القصد » العلوى من خلق هذا الكائن البشرى ، والاحتفال به يوم مولده فى الملأ الأعلى بكل هذا التكريم والتفخيم والإعلان .

ولا علينا بعد ذلك أن تكون الصورة التى نعالج بها القصة مأساة أو ملهاة .. فالملهاة يمكن أن تكون جادة — كما قلنا — وهى تعرض اختلالات البشرية وتسخر بها ، لأنها تتخذ السخرية والهزل وسيلة فنية لتضخيم الاختلال وإبرازه ، ليتبدى من وراء ذلك ماينبغى أن تكون عليه البشرية من رفعة واستقامة وتوازن واتساق . ولا علينا كذلك من إعطاء الفن كل ماتملك من نداوة وعذوبة وطلاوة فهذه كلها عنصر أصيل فى الفن لا يستطيع الاستغناء عنه .

إنما المهم أن نحس من خلال هذا الفن أن الحياة شىء له قيمته الحقيقية ، والإنسان كائن ذو مكانة ورفعة وقصد وأهداف .

* * *

والإيحاء الثانى هو « نقطة الضعف » فى الكائن البشرى ، وطريقة عرضها وإبرازها .

إن القرآن — وكذلك ينبغى أن تفعل الفنون الإسلامية — يعرضها على أنها نقطة ضعف. « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »(١). « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا »(٢) « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى »(٣) وهذه فى ذاتها حقيقة . فهذا المخلوق الفذ الفريد الذى تسجد له الملائكة يضعف إزاء شهواته فيهبط إلى الحضيض . . ولا يرتفع إلاّ حين يقدر على ضبط ماركب فى طبيعته من شهوات .

والفن الصادق فى التعبير عن الحياة ، وعن « الواقع » ، وعن نواميس الكون الكبرى ، ينبغى أن يعرض هذه الحقيقة كما هى بلا تزوير . ينبغى أن يعرضها على أنها نقطة ضعف ألمت بآدم — وتلم من بعده بكل أبناء آدم — ثم استطاع أن يستعلى عليها ، وكذلك يستطيع بنوه .

---

(١) سورة طه [١١٥] (٢) سورة البقرة [٣٦] (٣) سورة طه [١٢١]

أما الآداب الأوربية المنحرفة الضالة فإنها تعرضها على أنها مفخرة لآدم وبطولة ! إن لحظة العصيان هي اللحظة التي حقق فيها آدم كيانه وأصبح سيد نفسه ! وهي اللحظة التي أصبح فيها القوة المسيطرة الفعالة . ولتذهب إلى الأبد تلك الجنة التي كان فيها آدم ، فإنها لا تساوي شيئاً إزاء تحقيق الإنسان لكيانه وذاتيته ، واختياره مصيره بنفسه ، بحرية ، بعيداً عن وصاية الله !

كذلك تعرضها الآداب الأوربية المنقطعة عن هدى الله ، المتأثرة في صميمها بما رسب في كيانها من أساطير اليونان القديمة التي تصور الصراع الدائم بين البشر والآلهة ، وتتمنى انتصار البشر على الآلهة ، الظالمين الطغاة !

وهي آداب ذات إيحاء خبيث لا يخفى . فهي توحي للناس بعصيان ربهم والإغراق في الشهوات لكي يحققوا ذواتهم ! كأنما الطريق الوحيد لإثبات الذات هو الشهوات والعصيان ! وكأنما الطاعة لله هي انعدام الشخصية وزوال الكيان !

إنها نظرة — فوق ما فيها من مرض وانحراف — فجة تعيش في مستوى الأطفال !

فالطفل وحده هو الذي يظن أنه يثبت وجوده حين يعصي ، ويلغي كيانه إذا أطاع ! ولكنه حين يكبر وينضج ، حين يفهم الحياة في عمقها وحقيقتها ، يعرف أن هناك طريقين لا طريقاً واحداً لإثبات الذات : طريق الطاعة وطريق العصيان . طريق الهدى وطريق الضلال . وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق ، إلا في حالة الضعف والمرض والهبوط . أما في حالته السوية ، حالة الصحة والارتفاع ، فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود . ويحقق كيانه بقدر

مايستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيّرة المهتدية إلى الله . . أى بقدر مايستطيع أن يضبط من شهواته ليقدر على الصعود .

هذه حقيقة البشرية على الأرض . وهى الحقيقة التى ترمز لها قصة آدم فى القرآن .

وهكذا ينبغى أن تعالجها الفنون كلها ، لكى تكون واقعية صادقة التعبير عن ناموس الحياة .

لحظة العصيان هى لحظة الضعف والهبوط لا لحظة القوة والارتفاع . . لحظة تقع لبنى آدم فى أية لحظة وفى كل لحظة ، ولكنها تظل كما هى فى حقيقتها : لحظة هبوط ، ويظل التوجيه الواجب هو الإفاقة منها ، والتحول إلى طريق الارتفاع .

والضعف البشرى ليس هو البطولة التى تستحق التشجيع والتسجيل ، وإنما البطولة الحقة هى محاولة البشر الدائمة للخلاص من نقطه الضعف ، والانطلاق من ضغط الضرورات .

* * *

ولن نستعرض هنا كل القصص القرآنى ، فذلك وحده يحتاج إلى كتاب !

وإنما نكتفى بهذا النموذج الذى يحمل هذا الحشد من الإيحاءات الموضوعية والفنية سواء .

وحين يستمتع الإنسان بهذا « الفن » فى قصص القرآن ، يدركه الأسف ولا شك ، على أن الأدب العربى قد خلا تقريباً — إلى ماقبيل العصر الحديث — مما يمكن أن يسمى قصة فنية حقيقية ، مع وجود هذا الذخر الفنى كله فى كتاب العرب المسلمين ، الذى يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ! وأنه حين وجد هذا الفن لم يستمد من هذا الأصل الكبير ، إنما استمد من التصورات

الغربية مادته وإيحاءاته ، كما استمد طرائق الأداء . وطرائق الأداء لاضير من استمدادها من هناك . أما التصورات والإيحاءات فقد كان استمدادها من النبع الأصيل أجدى علينا وعلى البشرية ، وأكمل وأجمل ، وأكثر اتساقا مع جمال الكون وجمال الحياة .

إنها خسارة كبيرة أن العرب لم يتوجهوا إلى القرآن يستمدون منه وحيهم الفنى . وإذا كنا لمسنا هذه الخسارة من قبل فى ندرة فن « الطبيعة » فى الشعر العربى ، فنحن نلمسها هنا أشد ، فى خلو الأدب العربى من القصة المستفيدة بتوجيه القرآن الموضوعى أو الفنى على حد سواء !

وكم كان هذا الأدب يملك أن يسبق الآداب العالمية كلها فى هذا الفن ، ويظل مبرزا فيه ، لو فتح بصيرته لتلك الذخيرة الضخمة التى يحويها هذا الكتاب!

ثالثاً : مشاهد القيامة فى القرآن

ليس من همنا فى هذا الكتاب أن نستعرض كل فنون التعبير الفنى ولا موضوعاته فى القرآن . وإنما نختار فقط نماذج من الموضوعات تشير إلى تلك الثروة الفنية الضخمة ولا تحصرها . وقد تحدثنا من قبل عن مشاهد الطبيعة ثم عن القصة . وهنا نتحدث – بغير تطويل — عن مشاهد القيامة فى القرآن ، وهى من أوسع أبواب الفن فيه ، ومن أكثرها ورودا فى ثنايا القرآن .

وقد استفاد من هذه المشاهد شاعران عالميان ، أحدهما عربى وهو أبو العلاء المعرى فى « رسالة الغفران » والآخر هو « دانتى » الشاعر الإيطالى الذى عاش فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى و بداية القرن الرابع عشر ، وذلك فى « الكوميديا الإلهية » ، التى يغلب على الظن أنه استمدها وتأثر فيها برسالة الغفران . . وإن كانت المصادر الأدبية الأوربية تستنكف أن تعترف اعترافا واضحا بهذا الأمر .

ولكن الموضوع من ناحية ، وطريقة العرض الفنى من ناحية أخرى ، أكبر وأوسع من أن يقتصر عليهما هذان العملان الأدبيان ، وما يزالان يصلحان للإيحاء الفنى فى شتى الاتجاهات ، لو أرادت الفنون المختلفة من شعر وقصة ومسرحية وموسيقى وتصوير . . أن تتخذ منهما مادة فنية خصبة رائعة الخيال .

و « الموضوع » فى مشاهد القيامة موضوع دينى قبل كل شىء . . ولكنه ذو دلالات فكرية وخلقية وجمالية . فهو أصفى تصور عرفته البشرية لفكرة الجزاء الأخروى عن أعمال البشر فى الحياة الدنيا . ولكن « الفكرة »

فيه لا تقف عند حد الجزاء ، التي وصلت إلى شيء قريب منها أفكار الفراعنة في « كتاب الموتى »[1] .

إن من أبرز سمات هذه الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالا وثيقا بحيث تكون الآخرة هي « الامتداد » للدنيا ، أو النهاية الطبيعية الحتمية لها ، بلا فواصل حاجزة تفصل بين هذه وتلك . وهذه السمة بالذات لا يعرضها القرآن باللفظ المجرد ، ولا بطريقة التجريد الذهني الفلسفي ، وإنما يستخدم لذلك وسيلة عجيبة من وسائل العرض الفني — سنذكر نموذجا منها — تنقل الحس نقلا مباشرا من الدنيا للآخرة بلا انقطاع ولا فاصل ، حتى يقر في النفس أنها رحلة واحدة ، أولها هنا في الأرض وآخرها هناك في العالم الآخر . . ولكنها منذ البدء موحدة الهدف موحدة الاتجاه !

ومن سماتها التي تدخل في باب « الفلسفة » إذ تتناول التصور « الكمالي » و « الجمالي » للحياة ، أن الآخرة — بصورتيها من ثواب وعقاب — ليست نهاية الرحلة فحسب ، ولكنها « التطور » النهائي لها كذلك .

« فالنفس » البشرية تولد في صورتها الحسية الجسمية على الأرض ، ثم تخوض التجربة الكبرى ، تجربة الحياة ، وتتطور في أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة بعضها صاعد وبعضها هابط ، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط . . حتى إذا تمت التجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم ، وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة ، وكان الجزاء — بصورتيه — هو التطور النهائي للحياة بما يناسب تطور النفس وينسجم مع سماتها الأخيرة .

---

(١) يعتقد البعض أن بين الرسل الذين أشار إليهم القرآن دون أن يسميهم ، من أرسل إلى مصر وبشر فيها بدين الله . ثم تحول شيء من هذا الدين إلى أساطير كما حدث في كثير من بقاع الأرض .

فالذين آمنوا ، وخاضوا تجربة الحياة محاولين أن يترفعوا ويحققوا أفضل ما فى إنسانيتهم ، يصلون فى النهاية مثلا إلى أن يقال عنهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل[1] » كأنما هذا هو التطور الأخير لنفوسهم ، نتيجة المجاهدة الطويلة للارتفاع على هذا « الغل » فى الحياة الدنيا . وتشف نفوسهم ، نتيجة هذه المجاهدة المستمرة فيقال عنهم فى الآخرة : « سيجعل لهم الرحمن ودا[2] » . كأنما الود هو قمة الجزاء الإلهى لهم على هذه المحاولة الدائبة فى الحياة الدنيا للوصول إلى الشفافية الطليقة من وراء قيد الضرورة الصفيق !

فإذا كان القرآن يرسم للنعيم صورا حسية (وهى ليست حسية خالصة ، فقد ذكرنا فى المثالين السابقين كيف يصل النعيم إلى قمة الشفافية الروحية والنورانية الرائقة) فذلك لأن « الإنسان » فى الآخرة هو إنسان هذه الدنيا ، متطورا فى صورته النهائية التى اكتسبها من التجربة ، ولكنه ليس منقطعا عن صورته الأرضية تمام الانقطاع .

وبهذا تصبح الآخرة هى « اكتمال » الحياة الدنيا ، ولا تصبح شيئا مخالفا لها فى طبيعتها ، منقطع الصلة بها . ويحس الإنسان بنفسه أنه « هو » هنا وهناك ، وأن الذى سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصا آخر منقطعا ومختلفا عنه ، وإنما هو ذاته فى صورته النهائية التى تطور إليها نتيجة مسلكه فى أثناء تجربة الحياة .

وبصرف النظر عن الجانب الدينى من هذه الحقيقة الكبيرة ، فإنه من الوجهة النفسية البحتة ، ومن الوجهة الفنية والجمالية ، تصور مريح للنفس ، وجميل فى حد ذاته ، أن يكون المستقر الأخير بعد التجربة المرة الكادحة الشاقة ، امتدادا للنفس ذاتها التى ذاقت التجربة ، لا لأحد غريب عليها ، مقطوع الصلة بها .

---

(١) سورة الأعراف [٤٣] .   (٢) سورة مريم [٩٦] .

وهذه المعانى كلها موضوع خصب للتصور الفنى ، يستطيع أن ينشىء منه عشرات الصور والأشكال والموضوعات ، فضلا عن الاستفادة من طريقة العرض القرآنى المعجزة ، فى إحياء هذه المشاهد ، وهز النفس بها هزا عنيفا ، ليبلغ التأثر فيها إلى الأعماق !

وليس لى أن أنشىء شيئا جديدا فى هذا الباب ، فسأكتفى بعرض هذا النموذج من كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن » ففيه الغناء كل الغناء !

سورة الأعراف

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ. حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ! وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الظَّالِمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

« وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ .

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ . الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » .

* * *

ربما كانت هذه أطول مشاهد القيامة وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع ، وهى تجىء فى السورة تعقيباً على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء الشيطان له ولزوجه ، وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلا يقصون عليهم آياته — على نحو ما أثبتنا فى أول الآيات المنقولة هنا — ثم يأخذ فى عرض مشاهد القيامة ، فإذا الذى يقع فيها مصداق لما ينبىء به هؤلاء الرسل ، وإذا الذين يطيعون الشيطان فيكذبون قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ، وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا ، قد ردوا إلى الجنة ونودوا من الملأ الأعلى ، « أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » . فكأنما هى أوبة المهاجرين وعودة المغتربين إلى دار النعيم .

وفى هذا السياق بين القصة السابقة ومشاهد القيامة اللاحقة من التناسق الفنى مافيه . فهى قصة تبدأ فى الجنة على مشهد من الملائكة يوم أن خلق آدم وزوجه وأسكنا الجنة ففتنهما الشيطان عن الطاعة وأخرجهما من النعيم — كما جاء فى قصة آدم فى السورة — وتنتهى كذلك فى الجنة على مشهد من الملائكة فى اليوم الآخر ، فيتصل البدء بالنهاية ، ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا فيما لايتجاوز صفحتين من كتاب ، حافلتين بالمشاهد ، ومنها مشهد الاحتضار ، وهو يتسق فى الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

إنها ملحمة رائعة لاينقصها الشعر ، فهى مصوغة فى القالب الفنى الذى يتضاءل أمامه الشعر ، وتجتمع له كل عناصر الجمال .

والآن نأخذ فى استعراض هذه الملحمة ومشاهدها العجيبة :

ها نحن أولاء أمام مشهد الاحتضار — وهو برزخ بين الدنيا والآخرة — احتضار الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته ، وقد حضرتهم رسل ربهم

يتوفونهم و يقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وأولئك حوار : « أين ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله ؟ » أين آلهتكم التى اعتصمتم بها فى الدنيا وفتنتم بها عن الإيمان بالخالق الأعلى ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة فلا تجدون لكم عاصما من الموت يحفظ عليكم الحياة ؟ ويكون الجواب هو الجواب الوحيد الذى لامعدى عنه ولا مغالطة فيه : « قالوا : ضلوا عنا » وغابوا ، فنحن لا نعرف لهم مقراً ، وهم لايسلكون إلينا طريقاً . ألا ما أضيع عباداً لاتهتدى إليهم آلهتهم ، ولاتسعفهم فى مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لاتهتدى إلى عبادها فى مثل هذا الأوان ! واليوم إذن لاجدال ولا محال « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحن أمام المشهد التالى له فى النار — فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طيًّا ، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار ! — « قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار » انضموا إلى زملائكم من الجن والإنس ، أليس إبليس هو الذى عصى ربه وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ، وهو الذى أغوى العصاة من أبنائه؟ فليدخلوا جميعاً سابقين ولاحقين فى نار الجحيم .

ولقد كانت هذه الأمم فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، و يملى متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » . فما أبأسها من عاقبة تلك التى يلعن فيها الأخ أخاه ! « حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً » وتلاحق آخرهم بأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال : « قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلّونا ، فآتهم عذابا ضعفاً من النار » . وهكذا تبدأ المهزلة الأليمة ويتكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضا ،

ويطلب له من «ربنا» شر الجزاء . من « ربنا » الذى كانوا من قبل ينكرونه ، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب طمأنة للدّاعين باستجابة الدعاء ، ولكنها طمأنة ساخرة واستجابة أليمة : « قال : لكلٍ ضعف ولكن لاتعلمون» فاطمئنوا ، فأنتم وهم ستنالون هذا الضعف الذى تطلبون ! . . وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة يقولون : لستم بأفضل منا فتنجوا ، ولسنا أولاكم بالعذاب ، فكلنا فيه سواء : « وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

وبهذا ينتهى ذلك الجانب الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل أبداً — وذلك قبل عرض الجانب الآخر الذى يصور المؤمنين فى جنات النعيم — « إن الذين كذبوا بآياتنا ، واستكبروا عنها ، لاتفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » . ودونك فقف بخيالك ماتشاء أمام هذا المشهد العجيب . مشهد الحبل الغليظ تجاه ثقب الإبرة الصغير ![1] فحين تجد ذلك الحبل الغليظ يلج فى هذا الثقب الصغير ، فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! أما الآن — وإلى أن يلج الجمل فى سم الخياط — فهم فى النار التى تداركوا فيها جميعاً وتلاعنوا «وكذلك نجزى المجرمين» . وإليك صورتهم فيها : « لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ » فالنار فِراش لهم ، يدعوه للسخرية مهاداً — وما هو

---

(١) « بعض المفسرين يفسر الجمل هنا بأنه الحيوان المعروف . ولكن الذى يدرس طريقة التصوير فى القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو فى المنظر ، يلحظ التنافر بين الجمل والإبرة ، كما يلحظ التناسق إذا كان الجمل هو الحبل الغليظ أمام ثقب الإبرة الذى يدخل منه الخيط الدقيق . والاستحالة متوافرة فى المعنيين ، ولكن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير الأخير » :

ممهد ولا لين ولا مريح — والنار غطاء لهم يغشاهم من فوقهم . « وكذلك نجزى الظالمين » !

والآن فانظر إلى الجانب الآخر : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » ما بال هؤلاء ؟ « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » أصحابها وملاكها ، فقد أورثوها جزاء ماعصوا الشيطان الذى أخرج أبويهم من الجنة .

و إذا كان أولئك الكافرون المكذبون يتلاعنون فى النار و يتخاصمون وتغلى فى صدورهم الأحقاد بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة إخوان متصافون يرف عليهم السلام والولاء : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » و إذا كان أولئك يصطلون النار من فوقهم ومن تحتهم فهؤلاء « تجرى من تحتهم الأنهار » و إذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف « وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ر بنا بالحق » . و إذا كان أولئك ينادَون : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » زيادة فى الإيلام والتحقير ، فهؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم : « ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ».

ثم يستمر العرض فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد استقر أصحاب الجنة فى الجنة واستقر أصحاب النار فى النار. و إذا الأولون ينادون الآخرين من هناك « أن قد وجدنا ماوعدنا ر بنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ر بكم حقاً ؟ » — وفى هذا السؤال من التهكم المرمى فيه ، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد سواء ، ولكنه سؤال ! — و يجيء الجواب من هناك : « نعم ! » حيث لامجال لنكران أو محال . وعندئذ ينتهى الجدل و يغلق الحوار « فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين » .

ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة — ساحة العرض الفسيحة —

فإذا مشهد آخر ، مشهد « الأعراف » الفاصلة بين الجنة والنار ، وكأنما هى « نقطة مرور » يفرز فيها أهل الجنة وأهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره هنا أو هناك . وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء بسيماهم ، فيوجهونهم إلى حيث هم ذاهبون . ويشيعون كلاً منهم بما يستحق من تحقير أو تكريم ! . .

وهؤلاء هم يتوجهون إلى أهل الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أهل النار بالتبكيت والإيلام « أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ؟ » انظروا أين هم الآن ؟ إنهم فى الجنة يتلقون السلام !

وأخيراً هانحن أولاء نسمع صوتاً آتيا من النار ملؤه الرجاء والذلة والاستجداء: « ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ! وها نحن أولاء نتلفت إلى الجانب الآخر ننتظر الجواب ، فإذا هو المعذرة والتذكير : « قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين » !

وحين ينتهى الاستعراض الكبير على هذا النحو المؤثر يجىء التعقيب متناسقاً مع الابتداء : تذكيراً بهذا اليوم الذى مرت مشاهده ، وتحذيراً من تكذيب آيات الله التى جاء بها الرسل إلى بنى آدم انتظاراً لتأويل هذه الآيات . فما تأويلها إلا وقوعها على النحو الذى عرضت به . وحينئذ لافسحة ولا شفيع : «هل ينظرون إلاتأويله ؟ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ؟ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ! (١)

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض هذه المشاهد الخلابة ، واستعراض تلك

---

(١) « مشاهد القيامة فى القرآن » ص ٨٦ — ٩٢ من الطبعة الرابعة .

الألوان الثلاثة من الفن فى القرآن ، التى استعرضناها على سبيل المثال لا الحصر ، نحس مدى الثراء والامتلاء فى هذا الكتاب المعجز ، ومدى مايمكن أن يستوحيه الفن منه ، فى جميع أغراضه ، لافى الأغراض «الدينية» وحدها ، و إن كان الدين بمفهومه الإسلامى القرآنى ، لاينعزل عن الحياة لأنه يشمل كل الحياة .

إنها ثروة لاتنفد فى كل منحى من مناحى الفن ، ومجال للاستيحاء الدائم ، ورصيد لفن إنسانى رفيع سامق يحمل كل خصائص الفن الجمالية . . ويقود البشرية دائماً نحو النور والكمال .



فى الطريق إلى أدب إسلامى

الأدب الإسلامى — فى صورته المتكاملة التى استعرضنا أسسها من قبل — شىء لم يوجد بعد فى الإنتاج البشرى !

ولكن هذا لاينفى وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب ، تنبئ بأنه قد ولد بالفعل ، وأنه فى طريقه إلى التكامل والنضوج .

وهذا وحده شىء ليس بالقليل . .

فحين يطمئن الإنسان إلى هذه البواكير ، وإلى دلالتها على النضج المقبل ، يستطيع أن يتطلع إلى اليوم الذى يتكامل فيه هذا الأدب — والفنون الأخرى كذلك — فتعطى الإنسانية كلها ذلك القبس المشرق الذى لم تهتد إليه بعد ، وإن كانت قد وفقت إلى لمحات منه بين الحين والحين ؛ وتعطيها ذلك الطعم المتكامل الذى افتقدته منذ مولدها ولم تصل إليه فى تمامه ، وإن كانت قد ذاقت بعض نكهاته متفرقة هنا وهناك : « القبس الكونى » الذى يعبر عن معنى الوجود كله . . و « الطعم الإنسانى » الذى يعبر عن كل وجود الإنسان .

والأمر فى حاجة إلى مسلمين . . فنانين !

مسلمين يعيشون الإسلام فى حسهم حقيقة واقعة ، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامى ، ومن خلال التصور الإسلامى ؛ فنانين فى ذات الوقت ، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة فى حسهم بصورة جميلة موحية ، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيرى .

والعنصران لازمان معاً فى ذات الوقت .

فليس يكفى أن يكون الإنسان مسلما لكى ينشئ فناً إسلاميا تتحقق فيه شروط الفن .

وليس يكفى بطبيعة الحال أن يكون فنانا — أىّ فنان — ليصل إلى التعبير عن الفن الإسلامى .

* * *

الإسلام وحده لايكفى لإنشاء فن إسلامى . .

فقد يستطيع مسلم صادق الإيمان وهب المقدرة على التعبير ، أن ينشئ « أفكاراً » إسلامية عن الله . أو الكون . أو الحياة . أو الإنسان . أو كلها جميعاً . . وقد يستطيع أن « يجرد » من حياته وتجاربه الإسلامية صوراً فلسفية ومفاهيم عامة عن الإسلام .

وهذا كله إنتاج له وزنه ولا شك فى عالم الفكر وعالم الفلسفة وعالم التجريد . .

ولكنه إنتاج لاصلة له بالفن . .

فالفن ليس «فكرة» ولا « فلسفة » ولا « مفاهيم مجردة » كالتى تعنى بها « البحوث » الفكرية فى شتى الميادين .

وإنما هو « الانفعال الذاتى الخاص » بالأشياء والأشخاص والأحداث . الانفعال الذى تتلقاه كل نفس مفردة على طريقتها الخاصة فى التلقى ، وتنفعل به فى أعماقها ، و « تعانيه » معاناة كاملة بكل جزئياته وتفصيلاته ، ثم تخرج من هذه المعاناة المشتبكة بوشائج النفس ، النافذة إلى حناياها ودروبها ، المختلطة برصيدها الخاص من المشاعر والتجارب والاتجاهات والميول . . تخرج منها بتجربة شعورية معينة ، أو « بإفراز » معين ، يحمل السمات الذاتية لصاحبه ، ويحب صاحبه أن ينقله إلى « نفوس » الآخرين فى صورة جميلة يتوافر لها التأثير والإمتاع .

والفن « رؤية » للواقع من خلال ذلك الانفعال الذاتى الخاص بالأشياء والأشخاص والأحداث ، و «تفسير» لهذا الواقع فى ذلك الضوء الخاص ، تفسيرا شعوريا — لافلسفياً فكريا — كما أنه هو « رؤيا » للمستقبل ، وللمجهول ، وللماضى كذلك بنفس الشروط .

والفن الإسلامى — من ثم — ينبغى أن يصدر عن فنان مسلم ، أى «إنسان» تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذى يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة ، والواقع بمعناه الكبير ، وزود بالقدرة على جمال التعبير ؛ وهو فى الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامى ، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور ؛ ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التى عاناها ، فى صورة جميلة موحية .

وهذا هو الذى لم يتيسر من قبل فى الأدب العربى — لسبب من الأسباب — والذى توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل ، وأنه فى طريقه إلى التكامل والنضوج .

ولكنه — بهذا المعنى — ليس وقفاً على المسلمين وحدهم من الفنانين !

صحيح أن المسلم الحق (١) — بطبيعة إسلامه — يجد الطريق أمامه ميسراً — حين يوهب الموهبة الفنية — لأنه يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل ، وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم ، دون جهد مبذول منه ولا افتعال ، بل دون قصد واعٍ منه إلى هذا الانفعال !

وصحيح — من ناحية أخرى — أن المسلم وحده هو الذى تتسع نفسه للتصور الإسلامى الكامل ، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعى المباشر لحقيقة

(١) انظر فى شرح مفهوم الإسلام كتاب : « هل نحن مسلمون ؟ » .

إسلامه ، ولأن الإنسان لايصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام و بمفهوم الإسلام .

ومع ذلك فإن التصور « الفنى » الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، هو تصور كونى إنسانى . . مفتوح للبشرية كلها ، لأنه يخاطب « الإنسان » من حيث هو إنسان ، و يلتقى معه كذلك من حيث هو إنسان . ومن ثم يستطيع أى « إنسان » أن يتجاوب مع هذا التصور ، و يتلقى الحياة من خلاله — بمقدار ماتطيق نفسه هذا التلقى وذلك التجاوب — فيلتقى مع الفن الإسلامى بذلك المقدار .

ومن أجل ذلك لم نقصر النماذج التى أخذناها من « بواكير » الأدب الإسلامى على المسلمين من الفنانين ، بل اخترنا إلى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين ، لأنها تلتقى — التقاء جزئياً على الأقل — مع التصور الإسلامى ، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الإسلامى للفن فى هذه الحدود .

ثم يبقى لدينا وراء ذلك نتاج عالمى ضخم — رائع فى كثير من الأحيان — لا يلتقى بالتصور الإسلامى ، ولا يسير مع المنهج الإسلامى للفنون . فما موقفنا منه ؟ وما رأينا فيه ؟

إننا لن ننبذه كله بطبيعة الحال ، ولن نمتنع عن قراءته ودراسته والاستمتاع بما فيه من جمال جزئى . . على أن يظل فى مفهومنا أنه جمال جزئى ! وأنه — بكل مافيه من جمال وروعة — يقوم ابتداء على قاعدة أدنى وأصغر من القاعدة التى ينبغى أن ينشأ عليها الفن الإسلامى . . الكونى الإنسانى . . الشامل المتكامل ، الذى يشمل كل الوجود وكل الإنسان .

وسنجد كذلك فنا «محايدا» لايحمل سمات معينة تقربه من المنهج الإسلامى ، ولا يحمل كذلك سمات تصطدم بهذا المنهج وتسير منه فى اتجاه مضاد .

وقد يكون فى هذه الفنون كذلك لون من الجمال . .

ولكنها لن تكون — على وجه التأكيد — من روائع الفنون !

فالفن « الكبير » — بطبيعته — يحمل بالضرورة تصوراً معيناً للكون والحياة والإنسان ، وارتباطات بعضها ببعض ، وارتباطاتها بالله خالق الجميع . ومن ثم يتحدد مكانه تلقائياً من منهج الفن الإسلامى : إما أن يلتقى معه التقاء كاملا أو جزئيا ، و إما أن يتعارض معه و يصادمه .

ولذلك لا نحفل كثيراً بهذه الفنون « المحايدة » و إن كنا كذلك لا نسقطها من الحساب !

ونأخذ — بعد — فى ذكر بعض الأمثلة من « بواكير» الأدب الإسلامى تنير الطريق !



أولاً : من الشعـــر

(١) محمد إقبال

إقبال فيلسوف مسلم مفكر . . وله فى عالم الفلسفة والفكر إنتاج ليس بالقليل ولـكنه كذلك شاعر . .

وفى غير قليل من شعره يمتزج الشعر بالفلسفة ، وتلمس بصورة واضحة أنه يصوغ أفـكاره — أو بالأحرى تجاربه الفلسفية — فى شعر ! ولـكنه حتى عندئذ لايعطيك تجربة فلسفية ذهنية ، وإنما يعطيك تجربة « عاناها » فى شعوره وانفعل بها وجدانه وجاشت بها نفسه ، فعبر عنها فى نسق منغم موزون ، ولم يعبر عنها بالنثر — كما يصنع فى الأحوال الأخرى — لأنها ليست تجربة ذهنية يعبّر عنها بالنثر .

ثم إن له — إلى جانب ذلك — شعراً خالصا . . تحرر من جفاف الفـكر ومن قيد الذهن . . وانطلق فى خفة وطلاقة يعبر عن حرارة الوجدان .

وهو فى معظم حالاته يعبر عن تصور مسلم ، وإن شاب هذا التصور أحيانا أخلاط من تصورات صوفية هندية وغير هندية ، تخرج به قليلا أو كثيراً عن التصور المستقيم للإسلام .

وأشد مايروعه من الفكرة الإسلامية الصافية ، وأشد ماتنفعل به نفسه كذلك ، هو « الحركة الحية » . . الحركة الحية فى كل شئ فى هذا الوجود .

إنه لايوجد شيء ساكن على الإطلاق ، لافى الأحياء ولا فى غير الأحياء . كل شيء حى . وكل شئ متحرك . وكل شيء يقتحم السكون لـكى يوجد . لأنه «طاقة»

والطاقة لاتطيق السكون . وإن أراد شئ لنفسه السكون فقد أراد الموت ، وقد خرج بذلك عن الناموس !

وشيء آخر من الفكرة الإسلامية الصافية يروعه كذلك وتنفعل به نفسه ، هو « النفس الإنسانية » . .

الإنسان — فى حس إقبال — طاقة كونية ضخمة تتمثل فيها كل طاقات الوجود . إنها قبس من النور . قبس من القدرة الخالقة — وذلك معنى أن الإنسان خليفة الله فى الأرض . وهو بذلك أثمن مافى الوجود كله ، وأقدر مافى الوجود كله . . وذلك حين يستمد من الله . فهكذا خلقت الروح الإنسانية . أو « النفس » . . بحيث تستمد من قوة الأزل والأبد ، فتشرق و « تشتعل » وتصبح طاقة كونية مريدة فاعلة .

و « الاشتعال » مسألة حيوية جداً بالنسبة لإقبال !

إنه لايطيق أن يتصور الحياة إلا اشتعالا فى صورة من صور الاشتعال !

إنه لينفر من كل شيء خامد أو ميت أو غير مشتعل ، لأنه يتصوره كافراً بحقيقة الحياة وحقيقة الوجود !

ولكنه لايتصور ذلك كله حقائق مجردة فى عالم الفلسفة والفكر . . وإنما هو يعيش هذه المشاعر فى داخل نفسه ، و «يعانيها » كما قلنا معاناة شعورية حقيقية ، ويكتب الشعر من خلال هذه المعاناة . .

ولا ريب أن حياته فى الفترة المضطربة الجياشة من تاريخ الهند ، وهى تكافح الاستعمار ، والمسلمون فيها يعانون ألواناً كثيرة من المظالم ، ويناضلون ليثبتوا وجودهم ويحققوا كيانهم الذاتى ، و « تشتعل » فى وجدانهم الرغبة القوية فى أن يجدوا لأنفسهم كياناً مستقلا واضح الوجود . . لاريب فى أن هذا كله

يمكن أن يكون قد شكّل نفسه هذا التشكيل الخاص ، وجعل « الحركة الحية » و « الاشتعال » و « الكيان الفاعل المريد » فى نظره هى حقيقة الوجود .

ولكن هذه كلها — من جانب آخر — حقائق إسلامية دائمة بصرف النظر عن هذه الفترة بعينها من حياة الشاعر أو البيئة التى عاش فيها . . ولم تتملك العقيدة الإسلامية نفسا من النفوس فى أى وقت إلا استحالت فيها إلى حركة حية فاعلة مريدة . . هكذا منذ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم وغدا . . لأنها هكذا فى حقيقتها . ولأنها تصل القلب بالله و بالكون . . فيتحرك . . و « يشتعل » !

ومن هنا فإقبال فى هذه المشاعر مسلم — بصرف النظر عن ظروفه الخاصة — وهو كذلك مسلم فى هذه الظروف الخاصة ، لأن العقيدة الإسلامية تلتقى مع الفطرة الإنسانية فى جميع حالاتها وجميع ظروفها ، وتكيّفها فى كل حالة بمقتضى حقيقة الإسلام .

وهذان نموذجان من شعر إقبال ، من ديوان پيام مشرق [1] (أو رسالة المشرق) تتجلى فيها هذه المعانى واضحة شديدة الوضوح ، إلى جانب المعانى الأخرى الكثيرة التى يفيض بها شعر إقبال :

من قصيدة طويلة عنوانها « شقائق الطور » منظومة فى رباعيات :

٢٠ — وكم ذا فى الوجود من الحبور !
أرى الذرات فى شوق الظهور
ويصدع غصنه برعوم زهر
فيبسم للحياة من السرور

* * *

---

(١) ترجمة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

٢١ — تقول فراشـــة من قبل خلق
أَنِلْنِي لمحـــة قلق الحيـــاة
رمادى فَاذْرُهُ سَحَـــرا ولـكن
أَذِقْنِي ليـــلة حُرَق الحياة

* * *

٢٤ — أراك بسر أفـــلاكٍ تجول
وتجهـــل سِرّ نفْسك يا جهول
فوجّهْ — كالنواة — إليك عينا
لينبت من قرارتك النخيل

* * *

٦٠ — دع الشطآن لا تركن إليهـــا
ضعيف عنـــدها جَرْسُ الحياة
عليك البحر صارع فيـــه موجا
حياة الخـــلد فى نَصَبٍ تواتى

* * *

٨٤ — ثوت فى صـــدرنا همم كبار
بطينتنا فؤاد فيـــــه نار
من الخمـــر التى فينا أضاءت
مقـــيم فى زجاجتنا شرار

* * *

١٠١ — لنا كون لإزميـــل ونحت
يقلّبـــه صباحـــك والمساء

مثال من ترابٍ لم يكتمل

يسويه بمبرده القضاء

* * *

١٠٨ — ترى رمز الحياة بكل كِمّ

مجاز فيه يا قلبي الحقيقة

بترب مظلم ينمو ولكن

له عين إلى شمس الخليقة

* * *

١٠٩ — يضيء على المروج وكل سَهْبٍ

وكاس الورد فيه نور حُبّ

وما تغشى الورى ظلمات ليل

لحرقته السراج لكل قلب

* * *

١١٢ — بقلبي سر جثمان وروح

فلا فزعٌ إذا أجلى أتاني

فإما غاب عن عينيّ كون

فباقٍ ألف كون في جناني

* * *

١١٤ — مزاج الزهر أعرف في يقين

وريح الورد في خَلَدِ الغصون

وحببني إلى الأطيار أني

عرفت لها مقامات اللحون

* * *

١٢٦ — أَفِقْ ما القلب بالأنفاس يحيـــا
ولا هو رهن ما يبقى ويفنى

أخا الأوهــــام لا ترهب حِماما
فإن نَفَسٌ مضى فالقلب يبـــقى

* * *

١٣٩ — أثرت بنغمتى كل النـــوادى
ومن شرر الحياة جعلت زادى

أضاء القلب من عقلى ولـكن
جعلت عيار عقـــلى فى فؤادى

* * *

٨٢ — أيا طفـــل السجايا اسمع عتابى
أإسلام ونخـــــــر بانتساب ؟

فإن تعــــتز بالأنساب عُرْبٌ
فإن جزاءها هَجْرُ الصّحاب

* * *

٨٣ — أأفغـــــــان وتاتار وترك
وفى مرج ومن غصن نموننا

حرام بيننا تفـــــــريق لون
ربيع واحـــــد فيه زهوننا

* * *

١٦١ — رأيتك لا تزال أســـير طين
إلى ترك وأفغــــــان تُرَد

أنا بشر بــــلا لون وريح
وللتــوران أو للهنــد بَعْدُ

ففى الرباعية الأولى (رقم ٢٠) يعبر عن فرحة الـكائنات « بالوجود » . فوجودها ذاته يثير فى كيانها الفرحة والسرور . وهى تواقة لأن « توجَد » وأن تُظْهِرَ وجودها فى عالم العيان بعد إذ هى طاقة فى طى الـكتمان . وتكافح فى سبيل ذلك بما هو مرصود فى كيانها من « الإرادة » و « الفاعلية » . فبرعم الزهر « يصدع » غصنه . . يشقه شقا . . ليظهر إلى الوجود . . وفى اللحظة التى يوجد فيها بالفعل ، يبتسم . . يبتسم من السرور . . للحياة والوجود .

وفى رباعية (٢١) يعبر عن طريقة إحساسه بالحياة ومعناها : إنه القَلَق . . إنه الُحرَق . . هذه هى الحياة الحقة ! الحياة « المتحركة » من ناحية ، التى ينشأ من حركتها فى النفس هذا القلق المعبر عن الرغبة الدائمة فى جديد من صور الحياة ، وعدم الركون أو السكون إلى وضع واحد من أوضاع الحياة مهما كان جميلا فى ذاته ! والحياة « المشتعلة » من ناحية أخرى ، التى تصل المشاعر فيها إلى درجة التوهج والاشتعال من قوتها واندفاعها . وهذا القلق وهذه الحرق هى خلاصة الحياة وأمنية الأحياء ، بحيث لا يساوى « العمر » أو « الزمن » شيئا بجانبها . . فليس المهم أن تطول الحياة وتمتد ، إنما المهم أن « تمتلىء » . . تمتلىء بالقلق وبالحرق . . ولو ليلة واحدة أو لحة واحدة ! تساوى فى « جوهرها » كل الحياة .

وهذا المعنى الجميل لايقدمه لنا الشاعر فى صورة فلسفية مبلورة . وإلا فَقَدَ سحره كله وجماله ، وإنما يقدمه لنا من خلال « نفس » حية ، هى الفراشة التواقة للحياة ، التى تعبر فى ذات الوقت عن نفسه هو ، وطريقة إحساسها بالحياة .

وقريب من هذا المعنى — فى صورة تعبيرية أخرى — الرباعية (٦٠)

التى يقول فيها إن « جَرْس » الحياة ضعيف عند الشطآن ! لأن الحياة هناك خامدة ليس فيها معاناة ! وإنما حياة الخلد توآتى عن طريق التعب والنصب والصراع والاقتحام . .

وفى الرباعية (٢٤) يسخر من الإنسان الذى يبحث جاهداً فى أسرار الفلك الخارجية — أو الظاهرية — وهو يجهل سر ذاته ، وأنه هو « الحياة » أو منبت الحياة . وأنه لوتدبر طاقات ذاته وعرف حقيقتها لاستطاع أن يجعل منها قوة نامية حية متحركة « منشئة » . . لأنه يكمن فيها سر الحياة .

وقريب منه — فى صورة أخرى — رباعية (٨٤) التى يقول فيها إن الطينة البشرية تشتمل على نار مقدسة هى التى تضئ للكائن البشرى حياته . وأن « شرر » هذه النار مقيم لايبرح الكيان البشرى .

وفى هاتين الرباعيتين نلمح ماسبق أن أشرنا إليه من غرام الشاعر بالحياة « المتحركة » من ناحية ، « المشتعلة » من ناحية أخرى .

وفى رباعية (١٠١) يعبر — فى صورة فنية — عن شعوره « بالقضاء » . إنه ليس خبط عشواء . إنه ليس بلا غاية . إنه ليس شيئاً ينزل بالبشر بلا ضرورة . وإنما الكيان البشرى — كتمثال من تراب لم يكتمل تكوينه (أو لم يكتمل نضجه بتعبير آخر) — يقلّبه تداول النهار والليل كما يقلب النحات التمثال بالإزميل والمبرد ، ليسوى فيه قطعة هنا أو يحفر قطعة هناك . . حتى يكتمل التمثال وينضج الكيان !

ومرة أخرى لم يقل لنا الشاعر هذا المعنى فى صورة فلسفية مبلورة ، وإن كان يتناول معنى من المعانى الفلسفية ، وإنما يصوره فى صورة فنية تشغل مساحة فى الحس والخيال والوجدان .

وفى رباعيتى (١٠٨ ، ١٠٩) نرى غرام الشاعر بالنور . . النور جميل رائق صافٍ . . إنه نور « الحب » . . ومع ذلك فهو يحب النور على طريقته الخاصة فى تلقى الحياة كلها والأحياء . . إن النور ليس — كما يراه غيره من الناس — ضياء حالما ناعسا هادئا« مريحا » للأعصاب ! ! كلا ! إنه « اشتعال » ! إنه « حُرَق » ! فالنبات ينمو فى باطن الأرض المظلم ولـكنه يتطلع إلى « الشمس ». وتلك حقيقة « علمية » ! ولـكن الشاعر يلتقطها هنا من خلال مزاجه الخاص ، فالذى يلفته فيها أن النور المشرق الحار المشتعل هو أصل الحياة .. وهو الذى تقبسه الكائنات وتوزعه إشراقا وحبا . . والأصل فيه هو « الاحتراق » . . أو هو إثارة « الحرق » . . ومن ثم لا يوجد ظلام فى السكون حتى فى الليل حين تغيب الشمس المادية الملموسة ، لأن الأصل فى النور وفى الحياة ، وهو الحرق والاحتراق ، باق فى الليل ، يضىء للقلوب كالسراج !

وفى رباعية (١١٤) يعبر عن حبه للطبيعة بكل كائناتها من زهور وورود وأطيار .. كلها جميلة لأنه « يعرفها » . فالمعرفة — وهى المعرفة « الباطنة » بلغة الصوفية — هى التى تنشىء الحب ، وهى التى تمزج بين أرواح الكائنات فتلتقى كلها على الحب .

وفى رباعيتى (١١٢ ، ١٢٦) يعبر عن حقيقة الحياة فى نظره . فليس الجسد هو الذى يقرر الحياة أو الموت . . وإنما هى الروح . . والروح باقية وإن فنى الجسم . ومن ثم فلن يرهب الموت . فهو باق من بعد الموت . وإذا كان الموت سيحرمه كونا واحدا هو الذى تراه عيناه ، ففى قلبه ألف كون لن يفقدها لأنها حية معه فى قلبه الحى .

وفى رباعية (١٣٩) صورة من صور « الجيشان » فى نفس إقبال . إنه يثير بنغمته « كل » النوادى . هكذا على الاتساع ! فلن يكون حيًا فى نظر نفسه

حتى يحدث دويا فى كل ناد ! وزاده هو « شرر » الحياة ! مرة أخرى يمزج بين الحياة « المتحركة » والحياة « المشتعلة » . . إنهما عنده سمتا الوجود . لا وجود بلا حركة واشتعال !

ولكنه فى الشطرين الثالث والرابع من هذه الرباعية ذاتها ينشىء معنى جديدا ، نادرا فى اندفاعات إقبال الجياشة ! إنه « التوازن » . . التوازن بين القلب والعقل . بين طاقتين من طاقات الحياة . إن قلبه يستمد الضياء من عقله . ولكن عقله مع ذلك يستمد توازنه من فؤاده أى من قلبه . وهكذا « تتزن » مشاعر إقبال ، ليكون متمشيا مع « توازن » الإسلام !

أما رباعيات (٨٢ ، ٨٣ ، ١٦١) وقد غيرنا ترتيبها لتجىء متجاورة ، فهى تعبر عن نزعة إقبال « الإنسانية » الإسلامية . . إنه ينفر نفورا شديدا من تقسيم المسلمين إلى عرب وأفغان وتتار وترك . . إلخ . إنما هم جميعا مسلمون . ولا يجوز أن تقوم الفرقة بينهم وهم جميعا من غصن واحد ، وفى مرج واحد ، وزَهَوْا فى ربيع واحد (ولا يفوتنا هنا أن نلتفت إلى تعبيره بالطبيعة الحية وبالربيع عن معنى من المعانى التجريدية وهو الأخوّة فى الإسلام) ثم ينتهى فى الرباعية الأخيرة إلى الأخوّة فى البشرية عامة وهى الأصل الكبير الذى تلتقى فيه الأخوّات جميعا ، والذى ينبغى أن يرتد إليه البشر كلهم فى علاقات بعضهم ببعض ، قبل أن يتعصبوا لقومياتهم . . فهذا التعصب لون من الأسر . . أسر الطين الذى يأسر الروح !

* * *

وهذه قصيدة اسمها « الربيع » :

(١)

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

وشـــدو العنادل فى كل واد

ودُرّاجه والقـــطا فى تهادى

على حافة النهر جذلىَ شوادى

شقيق وورد ضحـــوك ينادى

فَطَرْفَكَ سرح بهـــذا المَرَاد

هلم فإن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

(٢)

هلم فملء الربى والسهول قوافل أزهاره والورود

نسيم الربيـــع على كل عود

وللطـــير إبداعها فى النشيد

ومزّقت الجيبَ حمــرُ الخدود[1]

جنى الحسنُ ناشىء زهر نضيد

وللعشق إبداع نغم جـــديد

هلم فملء الربى والسهول قوافل أزهاره والورود

(٣)

صفير البـــلابل ملء الجواء وصوت الصلاصل[2] ملء النسيم

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل الفاختة أو طائر يشبهها .

دم المرج فى جـــوفه كالجحيم
فيا قاعـــدا صامتا لا يريم!
دع الصمت واترك وقار الحليم
وخمر المعـــانى اشربنْ يا سقيم
تدثر بوردٍ وغنّ النـــديم
صفير البـــلابل ملء الجواء وصوت الصلاصل ملء النسيم

(٤)

دع الدور واطلب فسيح البرارىّ وانظر إلى صفحات الجمـــال
على حافة المـــاء دون ملال
تأمـــل ترقرق ماء زلال
وحدق إلى نرجس ذى دلال
بنيات نيســـان ذات اختيال
وقبل عيـــونا لها كاللآلى
دع الدور واطلب فسيح البرارىّ وانظر إلى صفحات الجمـــال

(٥)

وعين البصـــيرة فانظر بها أيا غافلا عن عيان الخلقْ
شقيق بدا حَلَقاً فى حـــلق
بأعطافه لهب قد علـــق
على كبد فيـــه ذات حرق
بلوح ندى من دموع الفلق

تحـــدّق إلى أنجم فى شفق[1]

وعين البصـــيرة فانظر بها أيا غافلا عن عيان الخلق

(٦)

ثرى المرج صرّح فى هَيْجِهِ بما أضمرت مهج الكائنات

فناء الصفات وكون الصفات

وما أبدت الذات من جـــلوات

وما خلتَـــه من معانى الحياة

وما خلتَه من معانى الممات

فليس له ها هنا من ثبات

ثرى المرج صرّح فى هيجه بما أضمرت مهج الكائنات

***

إنه مهرجان حافل بالحياة ! هذا هو الربيع . .

السحاب والعنادل والدراج والقطا وشقائق النعمان والأزهار والورود والنسيم والطير المنشدة . . والربى والسهول والبرارى . . والأرض والماء والسماء . . كلها كلها مشتركة فى المهرجان الصاخب المغرد الزائط المتحرك المتفتح للحياة !

إنه قلب شاعر يتفتح للحياة فى الربيع . . ويلمسها فى الكائنات كلها : السحاب المخيم فوق الربى والوهاد ، والأزاهير المتفتحة من كل لون ، والطيور المغردة بمختلف الألحان ، والثرى المصرح بما فى جوفه ، والمرج الذى يغلى دمه كالحميم ! !

والشعراء كلهم تلفتهم ولا شك ظاهرة انبثاق الحياة فى الربيع وتفتحها ،

(١) يشبه الندي على الشقيق بالأنجم فى الشفق (المترجم) .

وتنفعل بها مشاعرهم انفعالا خاصاً ، ويتصل ضميرهم بضمير الكون . . ولكن لكل شاعر صادق طريقته الخاصة فى « تلقى » الربيع والانفعال به والاتصال بمعانى الحياة فيه . .

وإقبال الشاعر ، المتفتح للربيع ، هو إقبال الذى رأيناه يشرح نفسه فى القصيدة السابقة ، وهو يسجل « فلسفة حياته » فى تلك الرباعيات .

الحياة المتحركة . . والحياة المشتعلة . . هى الحياة !

الموسيقى فى المقطوعة كلها (وإن كانت مترجمة) موسيقى دافقة متحركة حية نابضة . . ولكن تلفت الحس تعبيرات معينة تحمل طابع إقبال !

لحمر الخدود (شقائق النعمان) « تمزق » الجيب . والحسن « يجنى » الزهر الناشئ . ثم — وهذا ألصق بطبيعة إقبال ! — شقائق النعمان قد علق بأعطافها لهب (مشتعل طبعاً !) وكبده ذات « حرق » ! والمرج دمه « يغلى » فى جوفه « كالحميم » !

وفى المقطوعة السادسة يثوب الشاعر من رحلته الواسعة فى هذا المهرجان الحىّ المتحرك المتوفز الواسع الأرجاء الفسيح الآماد . . آماد المكان وآماد الحس وآماد المشاعر . . يثوب إلى صوفيته الهادئة . .

ولكن أهدوء هو ؟

إنه — فيما يبدو لى — كالثمل . . بعد هذه الرحلة الواسعة التى أشبعت حسه وملأت مشاعره حتى أعماقها . . إنه أهدأ نبضا . . نعم . . لأنه « شبعان » . . إلى حد الامتلاء . .

إنه يقول لك — كالمخدور — إن الثرى قد صرح بما فى جوفه . . صرح بما فى مهج الكائنات . . فقال لك إن مايخيل إليك — فى ظاهر الحس — من علائم الحياة وعلائم الموت ليس هو الحقيقة . . إنما الحقيقة هناك . . هناك فى الأعماق . . والحقيقة هى الحياة ! !

(٢) عمر الأميرى

عمربهاء الدين الأميرىشاعر سورى مسلم . . رقيق العاطفة ، فى تعبيره عذوبة تعبر عن عذوبة روحه . وهو يحاول — فى هذا المجتمع الجاهلى المنحرف الذى تشتبك حياته بحياته ، وتصطدم مفاهيمه بمفاهيمه — يحاول أن يعيش مسلماً بقدر ماتطيق روحه . لا فى ثورة جامحة « مشتعلة » كثورة إقبال ، ولـكن فى ثورة هادئة تناسب طبيعته ! ثورة تحتدم فى داخل المشاعر ، ولـكنها تهدأ حين تصل إلى التعبير !

وقد أخرج قبل عام ديوانا سماه « مع الله » . . أودعه مجموعة من أشعاره يتوجه بها إلى الله . . يتوجه بها فى مختلف حالات نفسه : من رضاء وثورة ، وهدوء وقلق ، وإشراق وظلمة ، ورفرفة روحية وتوقد جسدى . . كلها ترانيم إلى الله وابتهالات ، ورغبة حارة إلى الله ألّا يتخلى عنه فى أيّة حالة من حالاته ، لأنه فى جميع حالاته — حتى حالات الضعف والهبوط — متشبث بأستار الله ، متطلع إلى حماه .

وقد اخترنا له نموذجين من هذا الديوان فى حالتين مختلفتين من حالات نفسه . إحداهما أزمة فـكرية والأخرى أزمة عاطفية — أو بالأحرى وقدة حسية — يتجه فى كلتيهما إلى الله .

إنه فى « صراع » دائم . . صراع ضد الثقلة والهبوط والقيد والضرورة القاهرة والتيه والانحراف . . ومحاولة دائمة للتخلص من هذه الثقلة ، والانطلاق فى عالم النور .

محاولة « بشرية » . .

فهو بشر . . لا افتعال فيه ولا تصنع . . ولـكنه — وهو بشر مسلم —

يحاول أن يحقق الإسلام فى ذات نفسه ، فيكون هذا الصراع الدائم ، والتطلع الدائم إلى الله . .

وهذه المحاولة الدائمة . . هى الإسلام !

ذرة . . .

فكرت فى آلامىَ الناميه
وفى أمانىّ وأحلاميه
وفى طريق الغيب أشتقّه
وفى مجاهيل الغد الغافية
وثم فى الحيرة ساحت بيه
عوالمَ الأكوان أفكاريه
فصحت مأخوذاً بإبداعها
وسيرها هادية واعيه
حاشاه أن يقضىَ خَلّاقُها
تُرْكِىَ فيها ذرة نابيه

هذا هو الشاعر يواجه أزمته الفكرية . . إنه يفكر فى آلامه المتزايدة ، وفى أحلامه التى لاتتحقق . . وفى الغيب الذى يتطلع إليه فلا يكشف شيئاً من أستاره ، وفى الغد المجهول المحذور . . فتتملكه الحيرة . . لماذا ؟ لماذا يتألم ؟ لماذا يختفى الغد فى أستار الغيب ولا ينكشف شىءٌ منه ؟ لماذا لا تتحقق الأحلام ؟ لماذا يقضى حياته معذباً بهذا التطلع الذى لاينتهى ؟

وفى حيرته تسبح به أفكاره فى الملكوت . .

إنها إحدى علائم الصفاء فى روحه . . فحيرته لاتتحول إلى تيه ينفصل فيه عن الكون وعن الله ، و إلى شرود لايهتدى فيه إلى معلم من معالم الطريق . .

وإنما تخرج به روحه من سجن ذاته الذى أغلقته الحيرة النابتة فى ضميره . فتسيح به عوالم الأكوان .

وعندئذ . . عندئذ يقع التجاوب — الفطرى — بين روحه وروح الكون الكبير . فما تكاد الروح الصافية تتطلع إلى الكون حتى يحدث هذا اللقاء . لقاء بين أخوين حبيبين .

ثم ينقله هذا اللقاء . . إلى الله ! يفتح بصيرته عليه ! فهكذا الروح الصافية حين تلتقى بروح الكون الكبير . . لابد أن تهتدى من حيرتها ، فتتطلع إلى خالقها . . وتطمئن إليه .

نعم . إنها الطمأنينة فى نهاية المطاف . . الطمأنينة إلى أن الله خالق هذا الكون المبدع المنسق الموزون المترابط ، لن يترك هذه الذرة البشرية نابيةوحدها ، تائهة منقطعة الصلات . .

وهى طمأنينة الإيمان . .

ولكنه لم يقدم لنا هذا « المفهوم » فى صورة « تجريدية» مبلورة . وإنما هى «قصة» . . قصة شعورية وجدانية حية نابضة . . ولذلك تدخل فى عداد الفنون !

وحين نضع هذه التجربة الروحية تجاه تجربة «ألبير كامو» مثلا ، وهو يقف أمام الكون فيجده أخرس ، لايفصح له بشىء ، ويجد نفسه غريباً فى هذا الكون لا تربطه به صلة ، ويحس بالضياع والعدم والضآلة . . حين نضع هذه التجربة أمام تلك ، ندرك الفرق المميز الواضح بين نظرة الإسلام ونظرة « الوجودية » عند بعض روادها ، الفرق بين التجربة فى الحس المضلَّل الشارد ، والتجربة ذاتها فى الحس المسلم المهتدي إلى فطرة الكون . . والمهتدي إلى الله .

* * *

ضراعة ثائر

« كان فى كراتشى . . واستيقظ بعد منتصف ليلة عرفة ، هائج النفس ، ثائر الشباب ، وكان قد تعرض فى تلك الأمسية إلى إغراء كثير .

« ذكر إقامته على التقوى فى باريس وهو طالب .

« وذكر مواقفه فى الحج ، فى مثل هذه الليلة منذ عام مضى .

« وذكر ماتعرض له قبل ساعات . . .

« وفى غمرة الحيرة وسوار النفس ، وأوار الظمأ ، أنشأ القصيدة التالية .

« ولما كاد ينبلج الصباح ، هدأت نفسه بعض الشئ ، وعاد يراود السكرى » :

كيف أنجو ياخالقى من شباب
عارم عاصف التوثب ضارى
مستبد بكل ذرات جسمى
مستفز كوامن الأوطار
كلما رمت كبته ، ثار جهلا
وتخطىّ عقلى وأعيا وقارى
فأنا منه ، ما كبحت هواه ،
فى جموح وحدة واستعار
كيف أنجو ، وإنه مستقر
فى كيانى ، وفى صميم نِجَارى[1]
هو من طينتى التى لوثتنى
ورمتنى فريسة الأقدار

(١) النجار : الأصل .

إنه رجعة الصـــدى لفحيح
لاهب الذات غاشمٍ كفار
قد تحـــدى أبى الـكبير قديما
فـــرماه من عالم الأبرار

* * *

آه ياويح مقلتى ، وفؤادى
وإبائى وعـــزتى واصطبارى
والليالى الطوال مـــرت سهادا
وعنادا ، ودمعى المـــدرار
وجهادى فى حلـكة الليل نفسى
وذيادى ، وعـــزمى المغوار
وغلابى ضروب كيد صحـــابى
واعتزازى بدحـــرهم وانتصارى
وثباتى ، وقـــد ترامى لذاتى
واعتـــدادى بعفتى ، وفخارى

* * *

آه ياويح وقفتى فى ديار
قـــدّس الله تربها من ديار
خضت هول السماء سعياً إليها
وطويت البحار إثر البحار
وعلوت النجوم فى صخب الأنواء
.. أشرى مـــر العنا بالنضار

فكأنى وقد حللت رباها
جوهر خالص من الأوضار
نَقِيَتْ من طبيعة الترب نفسى
حين حَلَّتْ فى روضة المختار
غمرتنى أنواره فكأنّى
عنصر من عناصر الأنوار
وكأنى — والبيت يشرق حولى
شامخَ المجد فى سنا الأسحار —
ذاب جِرمى فى ماء زمزم حتى
خلتنى طرت من خلال إزارى
جاوز الروح بى معالم أرضى
فالسماوات والعوالم دارى
والمفاهيم فى مسارح روحى
والمساحات غير ذات قرار
فقيامى فى الحِجر (١) لاح سجوداً
وسجودى ، سَبْحٌ مع الأقمار
وانطلاقى أسعى ، هدوء مريح
ووقوفى ، سياحة فى البرارى
وضجيج الحجيج حولى ، سكون
وبسمعىّ جأرة الأحجار

* * *

(١) حجر إسماعيل عليه السلام فى البيت الحرام .

آه ياويح همتى وجلادى
إن نبا بى عن الفلاح اقتدارى
أبيوم فى مثله طاح وزرى
أتردّى مجدداً أوزارى ؟
كيف أنجو يا خالقى من شبابى
وشبابى قد كاد يدنى دمارى
أنت سوّيتنى وألهمت نفسى
خطتيها من التقى والفِجار
وأنا منهما بحرب لظاها
فى ضلوعى يشوى وفى أفكارى
لم أَرُمْ قط أن أُدَسِّىَ نفسى
كيف أرضى للنفس ذل الصغّار !
ولو انى كُفِيتُ إغواء عصرى
وأحابيل خلقه الأشرار
وحُبِيتُ اختيار وجهة أمرى
لتساميت واستقر قرارى
ولكانت نفسى الشَّرُود تزكت
غير أنى كالعود فى تيار

* * *

كيف أنجو ياخالقى كيف أنجو
والمقادير ألزمتنى إسارى
فتخير لمن خلقت سبيلا

ترتضيها ، فإن ذاك اختيارى
إننى نازع إليك بنـــور
منك ، للنور فى العوالم بارى
وأنا مقسم عليـــك بأسمائك
.. من راحم ، ومن جبّار
لاتُفَرِّطْ بمن دعتك خــلاياه
.. دراكا ، فى ليــله والنهار

* * *

رُبَّ سارٍ والسحب قد لفت النجم
.. لحار السارون عـبر القفار
سفر الفجر ، فاستبان خطاه ،
فرآها اهتـــدت بلا إبصار

هذه القصيدة الطويلة ربما كانت « أعنف » قصائد الديوان ! إنها سورة جسد ملتهبة يتلظى بها كيانه ولا يطيق كبتها ، فى ليلة عاصفة تــكاد تخرج به عن صوابه وضوابطه وكوابحه .. بعدتعرضه لفتنة جائحة . ويثير هذا اللظى ، وعجزه عن كبحه ، يثير فيه أشجانا وذكريات ، تزيد من اضطراب نفسه ، وتجعل الصراع مراً عنيفاً لا يكاد يطاق .

إنه فى سورة الجسد الجامحة يتذكر شبابه الذى قضاه فى باريس تحوم حوله المغريات من كل جانب ، ولـكنه يعزف عنها ويغالبها ، ويتشبث بنقاء أخلاقه ونظافة مشاعره ، بينما إخوانه يتهاوون فى مهاوى الرذيلة ، غير قادرين على مقاومة الفتنة المغرية ، أو غير راغبين فى المقاومة !

ويتذكر أنه فى مثل تلك الليلة من عام مضى كان فى الحرم المقدس يتطهر من الأوزار، وتعلو روحه وتشرق، وتطير مع النور السماوى الذى يغمر الأرواح ..

يتذكر هذا وذلك فتزداد ثورته على نفسه، أو تشتدحدة الصراع بين نوازع الفتنة الطاغية والرغبة فى التطهر والتغلب على ثقلة الطين .. التى أوقعت من قبل أباه الكبير آدم وجرته إلى المعصية .. ويظل ليلته فى هذه الذكريات، يدفع بها عن نفسه خواطر الفتنة، وهى ذاتها تزيد من الصراع الدائر فى داخل ذاته .. فيتطلع إلى الله فى حرقة ولهفة، ألاّ يدعه يهوى، وألاّ يفرط فيه .. وهو يدعوه الليل والنهار! وفى النهاية ينبلج الفجر، وتكون نفسه قد هدأت شيئاً من الهدوء .. ويطمئن إلى الله.

تلك قصة الصراع المرير التى يقصها لنا الشاعر فى قصيدته .. خطوة خطوة وخاطراً خاطراً .. منذ بدء السَّورة إلى لحظة الهدوء والاطمئنان.

ولكن ماذا نجد من « ملامحه » النفسية فيها ؟ !

إنه أولا لم يسمها ثورة! وإنما سماها « ضراعة ثائر » ! ولهذا دلالته بلا ريب!

ثم هو قد كتبها — دون شك — متأثراً بهذا الصراع المرير، مدفوعا بوقعه فى نفسه وهو يكتب، مستجاشاً بلذعه فى ضميره .. ولكن .. أى معنى وقف عنده أطول وقفة دون أن يشعر، وهو يعبر عن الآلام المتأججة فى شعوره ؟

إنها ذكريات الحج والطواف حول المسجد الحرام ... !

وفى « هدوء » يسرد هذه الذكريات!

فهذه المقطوعة بذاتها التى يذكر فيها مشاعر الحج وأثرها فى نفسه — وهى ثلث القصيدة تقريباً — يمكن أن تعزل وحدها، فتكون سبحة روحية هادئة رضية لاصلة لها بالثورة والصراع !

ولـكنها هنا فى القصيدة « مهرب » لاشعورى ، يهرب به الشاعر من حدة الصراع !

ثم . . ما هى أمنيته فى نهاية القصيدة ؟

ولوانى كفيت إغـــواء عصرى
وأحابيـــل خلقه الأشرار
وحبيت اختيار وجهة أمرى
لتساميت .. واستقر قـــرارى !

إنه يخوض الصراع . . نعم ! ولـكنه نافر منه ضيق به صدره ! يتمنى فى قرارة نفسه لوأنه قد كُفِيَ المثيرات والأحابيل والانحراف . . فيتسامى ويستقر !

إنها « الوداعة » الرضية العذبة التى تفيض بها روح الشاعر ، تطبع شعره كله حتى فى أشد ساعات الثورة والجموح والانفلات !

وهى الوجه المقابل تماما لإقبال !

فهناك تـكون أمنية الحياة هى « القلق » و « الحرق » والصراع الدائم والاشتعال !

وهنا أمنية الحياة هى الهدوء المطمئن الوادع اللطيف . .

ولـكنهما وجهان يسعهما الإسلام معاً ، ويسعهما الفن الإسلامى !

فالإسلام لايلغى الفوارق الذاتية للنفوس ، ولا يسعى لطبعها كلها بطابع واحد مكرور ! كلا ! إنه حريص على إبقاء السمات الذاتية للناس مادامت لاتصادم مفاهيمه وقواعده وشروطه للحياة . أما السمات النافرة أو المنحرفة فهو يروضها ويعدّلها حتى تستقيم على النهج . . ويتركها هناك !

وطبع إقبال الجامح . . وطبع الأميرى الوادع . . كان يمـكن أن ينحرفا كلاهما عن الإسلام !

كان يمكن أن ينقلب عند إقبال إلى رغبة فى الصراع من أجل الصراع ! ورغبة فى الانفلات من القيد . . أى قيد .

وكان يمكن أن ينقلب عند الأميرى إلى هروب من الصراع !

ولـكن « الإسلام » يعصم كلا منهما من ذلك الانحراف .

فيتحول صراع إقبال إلى صراع هادف .. يريد للناس أن يتحركوا فى الحياة حركة حية خيّرة ، وأن يثبتوا ذواتهم ـ لا عن طريق المعصية والشر ـ ولـكن عن طريق الالتقاء مع ناموس الحياة الأكبر ومع ناموس الوجود .

وتتحول وداعة الأميرى إلى سماحة روحية عذبة ، ولـكن مع عزيمة و إصرار على مكافحة الشر وصراع الانحراف . .

وبذلك يكونان مسلمين ، يسعهما الإسلام ، فيسعهما الفن الإسلامى . . وهما وجهان متقابلان !

(٣) طاغور

طـاغور ليس مسلماً بطبيعة الحال !

والطابع الهندوكى واضح فيه شديد الوضوح . .

السماحة العذبة ، والصفاء الروحى ، والحب الفياض . . الحب للحياة كلها وللأحياء .. والفناء فى الوجود الأكبر . . فناء المحبة والمودة والإخاء !

و . . كذلك السلبية !

إنها فى طاغور سلبية عذبة ! فلطف روحه وصفاء سريرته وشعوره الفياض بالحب .. و إعطاؤه نفسه كلها لـكل شىء وكل إنسان . . يضفى على هذه السلبية عذوبة !

ولـكنها ما تزال — رغم ذلك — سلبية ! لا تحب الصراع ولا تطيقه . ولا ترى أن الشر يمكن أن يقاوم بغير الحب والمودة التى تغلبه فى النهاية وتستميله إلى جانب الخير . .

حلم جميل . . لا يتحقق فى كل حالة ولا فى أكثر الحالات ! . . وحين لا يتحقق ، فهو يثير فى نفس الشاعر الأسى والحزن . . ولـكنه لا يعزف به عن سلبية طبعه ، ولا يدفعه إلى معاناة الحياة الدافقة المشتعلة فى عالم الصراع !

وهو — فى هذا — لا يلتقى مع المنهج الإسلامى !

ولـكنه مع ذلك لا يخرج تماماً من دائرته !

فهناك نقط التقاء كثيرة بين طاغور و بين المنهج الإسلامى . . نقط التقاء جزئية كلها ، ولـكنها تـكفى لإيجاد روابط المودة بينه و بين هذا المنهج ، بحيث يذكر معه — فى حدود هذا الالتقاء !

يلتقى معه فى شعور المودة والحب نحو الوجود الـكبير والحياة والأحياء .

. . والحب الجميل للإنسانية .

و يلتقى معه فى دعوته الدائمة للسماحة والخير بين الناس ، والانفلات من ثقلة الضرورة ، والانطلاق إلى عالم الطلاقة والنور . .

و إن اختلفا بعد ذلك فى طريقة تصورهما للحياة ، ودور الإنسان فى هذه الحياة!

رحلة إلى السوق

اليوم لم يختتم بعد . والسوق التى على شاطىء النهر ما تزال .
لقد خفت أن يكون يومى قد تبدد ، وآخر دراهمى قد ضاع .
ولـكن . لا . لا يا أخى . إنى مازلت أملك شيئاً ، لأن حظى لم يسلبنى كل شىء . .

* * *

الآن انتهى البيع والشراء .
لقد جمعت حصيلتى من الطرفين .
والآن حان وقت عودتى إلى البيت .
ولـكن ، أيها الحارس ، أفتطلب ضريبتك ؟
لا تخف يا أخى . لأنى ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظى لم يسلبنى كل شىء .

* * *

إن سكون الريح ينذر بالعاصفة .
و إن السحب المتجهمة فى الغرب لا تبشر بخير .
والمـاء ساكن ينتظر الريح .
أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركنى الليل .
ولـكن يا صاحب المعبر ، أفتريد أن تطلب أجرك ؟
أجل يا أخى ، إنى ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظى لم يسلبنى كل شىء .

* * *

وفى ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع الشحاذ .
وا آسفاه ! إنه يحدق فى وجهى وفى عينيه رجاء وحياء !
إننى — فى ظنه — غنى بما ربحت فى يومى .
أجل يا أخى ، إنى ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظى لم يسلبنى كل شىء .

* * *

لقد اشتد ظلام الليل ، وأقفر الطريق ، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر .
من عساك تـكون يا من تتبعنى فى خطوات متلصصة صامتة ؟
آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تسرق منى كل أرباحى .

لن أخيب ظنك !

لأنى ما زلت أملك شيئاً ، فإن حظى لم يسلبنى كل شيء !

* * *

وصلت المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين .

وأنت لدى الباب تنتظرين فى يقظة وصمت ، وفى عينيك شوق .

وكعصفورة وجلة طرت إلى صدرى ، يدفعك حب توّاق .

آه ياإلهى . إن شيئاً كثيراً لم يزل باقياً معى . فإن حظى لم يخدعنى و يسلبنى كل شيء !

إنها رحلة إلى السوق .. ولـكنها رحلة فى قلبٍ ودود عطوف ، يسع السـكون بعطفه وسماحته ، و يتجاوب تجاوب المودة مع كل شيء وكل شخص فيه ، حتى مع اللص قاطع الطريق !

وهنا تبدو نقط الالتقاء مع المنهج الإسلامى ونقط الافتراق ! فهى سماحة جميلة ولا شك . ولـكنك تلمح فيها مع ذلك مشاعر غير « بشرية » ! قد تعجبك لحظة وأنت حالم تسبح فى الملـكوت . . ولـكنها لا تملأ « الإطار » الكامل للإنسان !

وهذه قصيدة أخرى لطاغور :

إن الطائر الأصفر يغنى على الفنن فيرقص قلبى فرحاً . .

نسكن معاً فى قرية واحدة ، وهذا هو سر سرورنا جميعاً .

يجيء حملاها المدللان ليرعيا فى ظل أشجار حديقتى ،

و إذا ما ضلا طريقهما فى حقل شعيرى أحملهما بين ذراعى .

اسم قريتنا « خانجانا » ويسمون نهرنا « أنجانا » واسمى يعرفه الجميع .

أما اسمها هى فهو « رانجانا » .

* * *

ويفصلنا حقل واحد . .

فالنحل الذى يتجمع فى حديقتنا يذهب ليبحث عن الرحيق فى حديقتهم .

وأزهارهم التى تتساقط فى النهر يدفعها التيار إلى حيث نستحم .

وسلال أزهار « الكسم » الجافة تجلب من حقولهم إلى سوقنا .

اسم قريتنا « خانجانا » ويسمون نهرنا « أنجانا » واسمى يعرفه الجميع ،

أما اسمها هى فهو « رانجانا » .

* * *

إن الطريق الذى يؤدى إلى منزلها يعبق فى أيام الربيع برائحة أزهار « المانجو » .

عند ما ينضج بذر كتانهم ويكون صالحاً للجمع يزهر القنب فى حقولنا .

والنجوم التى تبتسم لكوخهم تبعث لنا بنفس النظرة المتلألئة .

والأمطار التى تملأ أحواضهم تنعش عندنا غابات « الكادام » .

اسم قريتنا « خانجانا » ويسمون نهرنا « أنجانا » واسمى يعرفه الجميع ،

أما اسمها هى فهو « رانجانا » .

إنها قطعة غزل لطيفة شفيفة عذبة . تعبر عن عواطف « إنسان » . إنسان يعيش بروحه فى هذه العاطفة ، لا بجسده ، ولا بمشاعر الحس الغليظة المتلمظة إلى متاع الحس القريب ! وفيها تلك الرفرفة المشعة التى تنقل الإنسان من عالم الأرض المحدود ، وعالم الضرورة ، إلى الطلاقة والبشاشة فى الكون الواسع الرحاب .

إنها « لحظة » حب ، ولكنها وجود متكامل ، لا تنفصل فيه عاطفة القلب عن الإحساس بالكون الكبير ، ووشائج المودة والقربى لا تصل قلبه بقلب حبيبته فحسب ، بل تصل قلبه بالوجود كله فى ذات الوقت بلا تعارض ولا انفصال .

ومن هنا تلتقى كلها بمنهج الإسلام !

(٤) سُكينة بنت الحسين

سهرت أعـــين ونامت عيون   فى أمور تـكون أو لا تـكون
إن رباً كفاك ما كان بالأمـــس سيكفيك فى غدٍ ما يكون

هذان بيتان منسوبان لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما[1] ؛ وقد كانت متصوفة تعيش من خلال التسليم المطلق لله ، وتمنح كيانها كله لله .

وهما بيتان فردان . . ولـكنهما تاريخ حياة ! تاريخ حياتها النفسية كلها ، ونموذج فى الوقت ذاته للمشاعر الإسلامية تجاه الحياة ، وتجاه القدر ، وتجاه الله !

إن كثيرا من الناس يقضون حياتهم فى التوجس من الغد المجهول . . من أمور « تـكون » أو « لا تـكون » . ويصل هذا التوجس عند كثير من الناس إلى حد القلق المدمر الذى يتلف المشاعر ويفسد الحياة . هل يكون كذا أم لا يكون ؟ وماذا إذا كان ؟ وماذا إذا لم يكن ؟ ويقضون الحياة فى هذه الفروض والتوقعات ، يبددون طاقتهم فى القلق والتوجس ، وهم لا يملـكون اليقين الذى يستندون إليه ، ولا الحقائق الواقعية يواجهونها بما تتطلبه من إعداد .

والشاعرة المتصوفة ، المسلمة الصادقة الإيمان ، تنهاهم — من تجربتها الخاصة — عن هذا القلق المفسد للحياة المدمر للأعصاب . وتنهاهم — من هذه التجربة الخاصة — بحقائق ، تلقّاها قلبها الـكبير فى سياحته إلى الله .

فماذا يصنع أولئك الذين لا تنام عيونهم من التوجس والقلق والاضطراب ؟ ماذا يصنعون بقدر الله ؟ هل يغيرون شيئا منه ! هل يخفف القلق والتوجس من وقع القدر فى حياتهم وأعصابهم ؟

---

(١) لم أتمـكن من تحقيق نسبة البيتين لسكينة ، ويقال إنهما لأحد المتصوفين . والذى يعنينا من هذه النماذج هنا هو موضوعها بصرف النظر عن قائلها .

وأولئك الذين تنام أعينهم ، مطمئنين إلى الله ، مسلّمين أمرهم إليه ، متوكلين عليه . . كيف تصنع الحياة بهم ؟ هل يهلكهم التسليم ؟ هل يضرهم الاطمئنان ؟

كلا ! إنه العكس ! فأولئك يدمرون أعصابهم ، و يعيشون الحياة ولا طعم لها فى نفوسهم ، و يبددون طاقتهم فى لا شىء . . بينما التسليم لله ، و إن كان لا يغير شيئا من أحداث القدر ، فهو يغير طعمها فى النفس ! فلا تتهاوى النفس فى مهاوى اليأس ولا تذهب حسرات !

وهذا الإنسان الذى يتوجس اليوم من الغد المجهول فيفرق و يجزع و يضطرب أما واجهته بالأمس أحداث وأحداث ؟ كيف نجا منها وعاش ؟ أو ليس الله هو الذى كفاه ما كان بالأمس ؟ أفلا يدع له كذلك ما يكون من أمر الغد فيكفيه إياه كما كفاه ما كان بالأمس ؟

إنه هكذا الحس المسلم . . يسلّم الأمور كلها لله . . ويعيش فى رحابه متطلعا إلى رضاه . . و يطمئن إلى رعايته ، فلا يذهب التوجس القلِق بأمنه وطمأنينته فى الحياة .

(٥) ابن الرومى

أذاقتنىَ الأسفار ما كرّه الغنى ... إلىّ وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الإثراء أزهد زاهد ... و إن كنت فى الإثراء أرغب راغب
حريصا جبانا أشتهى ثم أنتهى ... بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعنى رغب ورهب . . كلاهما ... قوى . . وأعيانى اطّلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة ... وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ... ومن أين والغايات بعد المذاهب !

هذه الأبيات فيها من دقة الوصف ما اشتهر به ابن الرومى فى الأدب العربى ، فهى مزيته البارزة سواء فى وصف المحسوسات أو وصف المشاعر والخلجات النفسية الدقيقة .

ولكنا نختارها هنا بصفة خاصة لأنها تلتقى — فى البيتين الأخيرين منها — بمنهج الفن الإسلامى فى تصوير موقف « الإنسان » أمام « الغيب » المجهول .

إن الأبيات الأولى ، على كل ما تحمله من جمال فنى يتمثل فى دقة الوصف من ناحية ، وفى « سرد » الأحاسيس المتتابعة كأنها قصة شعورية يحكيها لنا الشاعر ، فنتتبعها لحظة لحظة وشعورا إثر شعور ، حتى نلم بجزئياتها جميعا وقد اتخذت فى حسنا مساحة أوسع واستجابة أعمق . . هذه الأبيات — رغم جمالها الفنى — لا تزيد على أن تكون وصفا لمشاعر خاصة لإنسان « ما » تصور طبيعة خاصة ليست هى الطبيعة الإسلامية . فإيحاءات التصور الإسلامى لا تدعو إلى كل هذا القلق ، وإلى كل هذا التردد ، وإلى إيثار العافية على المخاطرة . . إنها طبيعة « ابن الرومى » خاصة . الطبيعة المتوجسة المتوفزة القلقة . .

حتى إذا قال :

أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب !

حتى إذا قال ذلك ، نقلنا من تلك الحالة الخاصة لإنسان ما إلى « الإنسان » كله ، وموقفه من الغيب المجهول والقدر المستور .

وهى نقلة واسعة . .

فمن تتبع الخلجات الخاصة لشخص معين نراه أمامنا على اللوحة . . ينفتح المنظر فى لحظة ، فإذا نحن نطل على رقعة فسيحة تشمل كل الحياة وكل

« الإنسان » . . واقفا أمام ستر الغيب المسدل ، يحاول جاهدا أن يمتد ببصره إلى ما وراءه ، وأن يقرأ الصفحة التي تليه . ويظل يتطلع في لهفة وتشوّف ، حتى يدرك أن ليس إلى شيء من ذلك سبيل ، وأن الغايات بعد المذاهب ، ولا يمكن أن تكون خلاف ذلك . فهذه حقيقة الواقع ليس لها من تبديل !

هنا ننتقل من الرقعة المحدودة الصغيرة المفردة ، إلى الرقعة الفسيحة التي لا تزول ، لأنها تتصل بناموس الكون الشامل الكبير .

وهنا كذلك نلتقي مع أحد المفاهيم الإسلامية للكون والحياة والإنسان ، ونلتقي بها في نطاق الفن ، فهي لا تجيء إلينا مبلورة في صورة فلسفية ، وإنما تجيء من خلال تجربة إنسانية حية ، ومن خلال وصف فني لخلجات النفس ، يبرز التجربة بلغة المشاعر النفسية لا بلغة الذهن والتجريد .

ثانياً : من القصة والمسرحية

القصة والمسرحية — كالشعر ، كالخاطرة ، كـكل ألوان التعبير — ينطبق عليها المنهج الذى شرحناه من قبل . وتنطبق عليها الحقيقة التى أشرنا إليها ، وهى أنها لم توجد بعد — متكاملة — فى الأدب العربى . وإن وجدت منها بواكير تدل على الطريق . . ولا يسعنا هنا — ونحن نختار الأمثلة من هذه البواكير — إلا أن نختار قصصاً قصيرة ، تتناسب مع الحيز المتاح للأمثلة فى هذا الـكتاب .

وقد اخترنا هنا نموذجين من القصة القصيرة فى اتجاهين مختلفين ، إحداهما تتحدث عن الخطيئة والثانية تتحدث عن الإيمان بالله . ثم اخترنا — لنفس الأسباب التى اخترنا من أجلها نماذج لطاغور فى الشعر — مسرحية لـكاتب إيرلندى ، تلتقى التقاء جزئياً مع المنهج الإسلامى .

١ — وسوسة الشيطان

لعبد الحميد جودة السحار

هذه القصة هى الأولى فى مجموعة « همزات الشياطين » لعبد الحميد السحار . وقد أشرنا إليها من قبل ونحن نتحدث عن « الواقعية فى التصور الإسلامى » . ونتحـــدث عنها هنا فى صورة أوفى ، نبين فيها سبب اختيارها فى « بواكير » المنهج الإسلامى .

وعبد الحميد السحار لا يلتزم المنهج الإسلامى فى كل ما يكتب . ولكننا اخترنا له هذه القصة بالذات لسببين :

السبب الأول أنها قصة خطيئة ! وقد اخترناها لنقول : إن وصف الخطيئة بكل تفصيلاتها الواقعية الدقيقة ليس فى ذاته حراما فى مجال الفن الإسلامى ! والسبب الثانى هو طريقة تناول الخطيئة فى القصة ، وهى طريقة تلتقى مع المنهج الإسلامى فى الفن .

الخطيئة هنا لا يتناولها الكاتب لتلذيذ القارىء بمشاعر الجنس ، ولا إثارة مكامن الشهوة فى نفسه . إنما يتناولها ليصور لحظة « ضعف بشرى » يمكن أن تتعرض له النفس البشرية فى أى وقت ، لأنه مركب فى طبيعتها . . ويتناولها تناولا واقعياً ، يرسم فيه تسلل الشهوة إلى نفس الشاب المؤمن الطيب القلب النظيف السريرة ، تسللا تدريجياً خفياً . . وكيف يضبط الفتى نفسه متلبساً بهذه المشاعر فيقاوم ، ويظل يقاوم فى عنف ، ولكن الشهوة تصرعه وتتغلب عليه فى النهاية ، فيسقط حين يغلبه ضعفه وتملك الشهوة قياده .

وإلى هنا يلتقى مع المنهج الإسلامى فى ثلاثة أمور : الأول هو « واقعية » العرض التى لا تدارى على النفس البشرية ، ولا تزعم أنها بيضاء دائما ، وقوية دائما ، ومنيعة دائما من نزغات الشيطان ! فهنا صورة من صور « آدم » نسى ولم نجد له عزما . . كما يقول عنه القرآن فى لحظة الضعف .

والثانى : أنه لا يصور الشهوة لذاتها ، ولا يستخدم براعته الفنية فى إثارة مشاعر الجنس .

والثالث : هو رسم حركة « المقاومة » فى داخل النفس . فهنا « الإنسان » ! إنه ضعيف . نعم . وإنه يتعرض لغلبة لحظة الضعف عليه أحيانا . هذا صحيح .

ولـكنه لا يـكون إنساناً إذا لم تـكن فى نفسه هذه المقاومة للضعف والشر والهبوط ، حتى ولو أخفقت المقاومة فى لحظة من اللحظات . فالحيوان فقط هو الذى ينساق بلا تحرز ولا تفـكير ولا « فرامل » . و « الحيوان » هو الذى تعج به القصص الحديثة فى الشرق والغرب ، وتتبارى براعة الفنانين فى رسمه بكل أسلوب شائق جذاب ! و يتغالى « الفن » الرخيص الشائه الذى يملأ السوق فى هذه الأيام ، فيرسم الحياة كلها فى حمأة الرذيلة ومن خلال مشاعر الحيوان ، وكأنما « الإنسان » قد انتهى ولم يعد له وجود ! وهو منتهٍ فى الحقيقة فى نفوس هؤلاء الـكتاب لأنهم لا يكتبون وهم آدميون !

أما الخطيئة فى هذه القصة فهى مرسومة من خلال نفس إنسانية ، لا من خلال الحيوان . وذلك فارق كبير فى تناول الخطيئة . فليس الموضوع ذاته هو الذى يحدد القيمة المنهجية (أو نستطيع أن نقول : القيمة الإنسانية) للعمل الفنى ، و إنما طريقة تناول الموضوع ، والاتجاهات التى تتخذ فيه .

ولـكن الأمر الذى يزيد من التقاء هذه القصة بمنهج الفن الإسلامى هو النهاية التى يرسمها الـكاتب للقصة .

إنه لا يقف بالصورة عند «لحظة الضعف» التى انتابت الفتى فغلبته على أمره وأوقعته فى الخطيئة . فإلى هنا هو « واقعى » حقا . . بل ، لقد تجاوز « الواقع الصغير » شيئاً ما وهو يرسم حركة المقاومة فى نفس الفتى ، ودخل فى نطاق «الواقع الـكبير » بعض الشىء ، برسم الحركة المضادة لحركة الهبوط . . « الانفلات » من الضرورة القاهرة . .

ولـكنه يدخل دخولا كاملا فى « الواقع الـكبير » حين لا ينهى قصته عند لحظة الهبوط . لحظة التمرغ فى الوحل فى غيبة من الإرادة الضابطة ، المغلوبة على أمرها إزاء « وسوسة الشيطان » . .

و إنما ينهيها بلحظة الإفاقة . . لحظة الارتفاع . . لحظة العودة إلى الإنسانية .

إن الفتى — فى غمرته بعد ارتكاب الخطيئة — يستمع إلى صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر . فتنساب فى نفسه نغمات الأذان مع نسمات الفجر . . وتغسل من نفسه رويداً رويدا أدران الخطيئة . . فيفيق إلى نفسه ، ويتوجه بمشاعره إلى الله . . يستغفره و يترضاه .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . . » .

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون . . » .

هنا القمة التى تدخل القصة فى المنهج الإسلامى . هنا « الواقع الكبير » . . الواقع الذى يشمل لحظة الضرورة القاهرة ولحظة الانفلات من الضرورة ، والانطلاق مع الأشواق العليا العميقة فى كيان الإنسان .

وهكذا نتحدث عن الخطيئة ، ومع ذلك نكون فى فننا مسلمين . ونكون « واقعيين » . . واقعيين مع «الإنسان» كما هو فى حقيقته كلها : الحقيقة الكبيرة المعقدة المتعددة الجوانب . لا كما هو فى جانب واحد من جوانب تكوينه الكثيرة الكبيرة . الجانب الذى يجتزئ به « الواقعيون » الصغار ثم يزعمون أنهم هم الواقعيون ! و يزعمون أن الواقعية لاتكون إلا حين نعزل الحيوان الذى يشتمل عليه الإنسان ، ونملأ به فراغ الصورة كله . . وهذا — فوق أنه تشويه للخليقة الكبيرة المعقدة المركبة المتعدددة الجوانب ، وتصغير لحقيقتها الكبيرة — هو كذلك تزوير فى الشخصية الإنسانية . لأن الاجتزاء بجانب واحد من الحقيقة ، والزعم بأنه هو كل الحقيقة ، تزوير فى عرف الفن ، كما أنه تزوير فى عرف الحياة . .

إن « الفن » ليست له مقاييس خاصة منفصلة عن مقاييس « الحياة » أو مقاييس « الإنسان » !

فما دام هو صورة الحياة وصور الإنسان .. فكيف تكون له مقاييس خاصة غير مقاييس الحياة والإنسان؟ !

ومن ثم « فالأخلاق » و « القيم الخلقية » لايمكن أن تنفصل عن « الفن» فى لحظة من اللحظات .

فمقاييس « الحياة » ومقاييس « الإنسان » تقول إن « الأخلاق » و « القيم الخلقية » ليست شيئاً عارضاً أو شيئاً منفصلا عن كيان الإنسان وكيان الحياة !

إن الحياة — حتى فى عالم الحيوان — تجعل للوظائف « البيولوجية » حدودا وغايات ، وتدمر الكائن الحىّ إذا تجاوز تلك الحدود والغايات !

والحياة — فى عالم الإنسان — تسير على الناموس ذاته الذى تسير عليه مع كافة الأحياء . وتجعل لوظائف الإنسان ودوافعه الفطرية حدودا كذلك وغايات . وتدمره — فردا وجماعة — حين يتجاوز الحدود أو يضل الغايات . .

والتاريخ البشرى هو سجلّ هذه الحقيقة . .

فأيما فرد أو جماعة فى التاريخ القديم أو الحديث تغافل عن الغاية الحقيقية لوجوده ، وانفلت مع شهواته وجاوز الحدود . . فالنتيجة هى الاستمتاع الزائد عن الحد . نعم . والنتيجة هى الدمار . . الدمار الفكرى والروحى والمادى . . دمار « الإنسان » . . والاستبدال منه كائنا آخر ليس بإنسان .

وحتى فرويد . . الذى جاهد جهادا ذريعا لتشويه صورة النفس الإنسانية وتمريغها فى الوحل . . لم يستطع أن ينفى وجود « القيم الخلقية » بصورة فطرية فى كيان الإنسان . .

فحين صور الإنسانية الأولى فى أبشع صورة يمكن أن تخطر فى قلب بشر :

حين قتل الأبناء أباهم ليظفروا بلحظة جنس خاطئة آثمة مع الأم . . حتى فى هذه الصورة المنكرة قال فرويد : إنهم ندموا على قتل أبيهم . . وكان الندم أول « قيمة خلقية » أحسها الأبناء بصورة تلقائية فطرية ، لم يلقنها لهم أحد ، وهم « المنتصرون » بعد الجرم الشنيع . ثم امتنعوا عن غشيان أمهم وحرموها على أنفسهم لكيلا يتقاتلوا عليها . . كالحيوان ! وهنا « القيمة الخلقية » الثانية التى اهتدوا إليها بصورة تلقائية فطرية لم يفرضها عليهم أحد من خارج أنفسهم . .

وهذا كله على فرض أن هذا الدنس البشع الذى يفترضه فرويد افتراضا ، وينتزعه من مجرد الفرض الذى لا دليل عليه قط ، قد وقع حقيقة فى يوم من الأيام !

فالقيم الخلقية إذن ليست نباتا منقولا إلى النفس الإنسانية من خارجها ! وإنما هى بذرة أصيلة فى داخل النفس تنتظر الإنبات بتهيئة الظروف الصالحة ، وتموت حين لا تجد ظروف الإنبات . .

فهى إذن جزء لا يتجزأ من فطرة الإنسان . .

وهى من ثم جزء لا يتجزأ من عالم الفنون . .

وكل صيحة تقول : إن الفن لا علاقة له بالأخلاق لأنه « فن » ! وإن المقاييس الفنية لا علاقة لها بالمقاييس الأخلاقية . . هى صيحة تتعامى عن حقيقة الفطرة . . صيحة تدعو إلى « تشويه » الحقيقة الإنسانية و « تصغيرها » ، و « تزويرها » والخروج بها عن حقيقتها .

وكل فن يصور لحظة « الضعف » البشرى على أنها لحظة « انتصار » الإنسان ، وإثباته لذاته ، ومن ثم يشيد بها ويجعلها لحظة بطولة ، ويسلط عليها الأضواء ، ويتركها هى النهاية التى يقف عندها الإنسان لا يبرح

ولا يريم . . هو فن يقلب الحقيقة البشرية كلها ، بل حقيقة « الحياة » فى جميع مجالاتها ، ويزور هذه الحقيقة ويشوهها . . لأنه لا يستمد من نبعها الحقيقى ، وإنما يستمد من خيالات مخبولة كخيالات الحشيش والأفيون !

إن لحظة الضعف توجد فى حياة الإنسان وتصور بريشة الفن . وإن الشخصية الإنسانية المنحرفة والضعيفة والهابطة توجد فى عالم الإنسان وتصور بريشة الفن . ولكن الفن « الإنسانى » لايجعل هذه اللحظة هى الحياة «الإنسانية» . ولايجعل هذهالشخصية هى « الشخصية الإنسانية » . . إنما يتجاوزهما ليكمل صورة الحياة وصورة الإنسان . وليوحى — لا عن طريق الوعظ والإرشاد — بأن هذه نقطة ضعف عارضة وهذه شخصية منحرفة هابطة .

تلك مقاييس الحياة ومقاييس الإنسان .

وهى هى مقاييس « الفن » الذى يصور حقيقة الحياة وحقيقة الإنسان !

* * *

وقد كان بودى أن أنقل هنا القصة كاملة لولا أنها طويلة ! أطول من أن يستوعبها هذا الحيز المحدود . وأجدنى مضطرا إلى تلخيص الجزء الأول منها ، قبل احتدام المعركة فى نفس الشاب . وأنا أعلم ولاشك أن التلخيص يفسد كثيرا من معالم القصة ، لأنه يقتصر منها على الفكرة الذهنية ، ويجردها من اللحم الحى والدماء والأعصاب . . وهى الحقيقة فى كل فن ! ولكنها الضرورة . . !

* * *

تقع القصة فى عشر مقاطع أو حلقات . وقد قمنا هنا بتلخيص الحلقات الست الأولى ، التى يعطى المؤلف فيها فكرة عن شخصية « صلاح » بطل القصة ، وعن الظروف الممهدة لوقوعه فى الفتنة .

فصلاح شاب متدين تقى .. ولـكن بلا تجربة .. متزوج ، مكتفٍ بزوجته ، لايعرف إلا بيته وعمله ومسجده . ولأنه لم يتعرض للفتنة ولا التجربة ، فهو صارم فى أحكامه على الناس ، لايقبل منهم عذرا ولايعفو لهم عن هفوة ، لأنه لايتصور أن هناك أسبابا — مهما كانت — يمكن أن تدفع الإنسان إلى ارتكاب خطيئة ، فإذا سمع عن إنسان مختلس ، كان تعليقه « إنه يستحق قطع يده » ولم يقبل من زوجته أن تلتمس له المعاذير .

وذات يوم يخرج من مسكنه ويهم بالنزول على السلم ، فإذا باب المسـكن المواجه له ينفتح وتخرج منه فتـاة تتمثل فيهـا فتنة الشيطان . . فتلفت نظره و « تملأ خياشيمه » ! ويعلم من توه أنها تركت أثراً فى نفسه وشغلت تفـكيره . ويحاول أن يغضى عنها فلا يستطيع ! وتزداد مشغلته بها ، ومحاولته أن يراها ويـكون على مقربة منها .. ويتململ ضميره ، فيحاول أن يقاوم الإغراء ، ولـكن كل يوم يمر يزيده تعلقاً بها ، ويزيد من قلقه واضطرابه .

ويجدها ذات يوم فى الترام واقفة على مقربة منه وهو جالس ، فيتخلى لها عن مقعده . . ويسمعها تتحدث إلى صديقة لهـا بجانبها ، فتخبرها الصديقة عن فلم مشوق ، فتعد بالذهاب لمشاهدته . وعندئذ يفـكر صلاح فى الذهاب إلى السيما فى ذلك المساء ليراها . ويذهب بالفعل ، ويجدها هناك ، فتحييه وتبتسم له ، وتطلب منه أن يشترى لها تذكرة . وتراوده نفسه أن يختار مقعده بجوارها . ولـكنه يـكتفى بأن يجلس خلفهـا . وينقضى وقت العرض وهو مشغول عن الفلم ، هائم فى الخيال ؛ ويعود إلى المنزل دون أن يـكون بينهما حديث .

* * *

تكررت المقابلات العارضة بينهما بعد ذلك كثيراً ، فقد التقيا عند محطة الترام مراراً ، والتقيا مرات أثناء الهبوط فى الدرج أو الصعود ، وكانا يتبادلان تحية عابرة ثم ينصرف كل منهما إلى حاله ، وطرأ على صلاح تغير كبير ، فقد صار يفكر فى بديعة دون أن يفزع ، ويحس نشوة إذا وقعت عيناه عليها ، وأضحت صلاته فاترة لا حرارة فيها . وقد حاول فى أول الأمر أن يجمع شتات فكره فى أثناء الصلاة ، وأن يفكر فيما يقرأ من القرآن ، ولكن كان فكره يشت وينطلق إلى حيث يحب ، فتتماثل له بديعة فى الصور التى يشتهيها . وقد ضايقه ذلك فى أول الأمر ولكنه أصبح الآن لا يضيق بنفسه إذا ما فكر فيها أثناء صلاته ، كأنما قد اعتاد ذلك كما اعتاد الصلاة من قبل ، وشاركته بديعة فى صلاته ، فكانت محضرة فى خياله إذا ما صلى ، لا تريم ولا تتزحزح ، فإذا ركع رآها على محطة الترام بجسمها الممتلىء الرجراج ، وإذا سجد رآها فى ثوبها المشجر الجميل الذى رآها فيه يوم السينما ، وكان إذا ما انتهى من الصلاة أسرع إلى الشرفة ليمتع الطرف بمحياها ، فإذا ما غابت عن الشرفة يوما يحس قلقا ، ويشعر بعقارب الغيرة تلسعه ، ويأخذ فى التساؤل أين تتجه مثيلاتها ، وكثيرا ما كانت غيرته تعذبه فتوهمه أنها ما خرجت إلا لمقابلة صديق من الأصدقاء تحبه ويحبها .

وفى يوم من الأيام فكر فيما وصل إليه حاله ففزع ، وعقد العزم على أن يكافح رغباته الشريرة ، وأن ينتصر على شيطانه الذى كاد يرديه ، فراح يطرد طيفها جاهداً أثناء صلاته ، وما كان طيفها لينثنى عنه ، وصمم على عدم الخروج إلى الشرفة حتى لا تقع عيناه عليها ، ولكنه كان يجد نفسه مدفوعا إليها ، مسلوب الإرادة ، تدفعه قوة خفية إليها دفعا ، لا يستطيع لها قهراً . ترى أسرى شيطانه فيه مسرى الدم ؟ وما فكر فى هذا حتى نبذته الراحة ، وجفاه الاطمئنان ، وقر رأيه على أن ينزع بديعة من فكره نزعا حتى يعود إلى حياته الأولى ، حياة الدعة والاطمئنان والهدوء ، فمد يده وتناول مسبحته وأخذ يسبح فى حرارة ، وراحت الحبات تمر بين أصابعه مراً سريعا ، ومرت مدة خمدت بعدها حرارة التسبيح ،

وابتدأت صورتها ترنو إليه ، وتزحف على حذر حتى تربعت فى خياله ، وسيطرت على لبه .

وفى يوم من الأيام قابلها عند محطة الترام ، فحياها كعادته ، ولما أقبل الترام صعدا معا وجلسا متجاورين ، ووجد صلاح نفسه يبدؤها بالحديث فتشجعه وترد عليه ردا ترك أمامه أبواب الحديث مفتوحة ، واندمجا فى الحديث كأنما كانا قد تعارفا من قبل ، ورفعت بينهما الكلفة ، ووجد صلاح نفسه تتفتح وتنتعش ويدور لسانه فى يسر ، ولاحظ أن محطة نزوله قد اقتربت فوجد نفسه يسألها :

ـــ أتخرجين عصر اليوم ؟

ـــ ولمـــه ؟

ـــ رأيت أن أتجرأ وأسألك الخروج معا لنستأنف حديثنا .

ـــ آسفة .

ـــ آسف أن عرضت عليك ذلك .

ـــ لولا ارتباطى بموعد اليوم مع بعض صديقاتى لما رفضت ، غداً إن شئت .

ـــ كما تحبين . ومتى وأين ؟

ـــ عند محطة الترام فى الخامسة والنصف .

وترك صلاح الترام منشرح النفس ، ولكن لم يدم ذلك الانشراح طويلا ، فقد ابتدأ ضميره يستيقظ عقب هبوطه ، وأخذ يلومه على مسلكه الذى سلكه ، ويؤنبه على جلوسه مع فتاة غريبة عنه ، يستمع إليها ويتودد ، وياليته اكتفى بذلك بل واعدها ولم ينقض وضوء الصباح بعد ، وصاح ضميره فيه : « إن صلاتك لا خير فيها ، فلا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر » فأطرق صلاح أسيفاً حزيناً ، ترى أباع نفسه للشيطان ؟ فهب يذب عن نفسه كما تعود أن يفعل وغمغم : « لا والله ، فلن يقابلها غداً ، ولن يهزمه شيطانه أبداً » .

وبلغ صلاح مقر عمله ، وابتدأ يعمل كما تعود أن يعمل كل يوم ، وانقضت فترة شرد بعدها فكره ، وجعل يفكر فيما دار بينه وبينها فى الترام ، وحاول

أن يجمع شتات فكره أكثر من مرة ويركزه فى عمله ولكنه فشل فى محاولاته ، وألحت صورتها عليه ، فاحتلت خياله وازداد وجيب قلبه . فضاق ذرعاً بحاله ، فألقى برأسه إلى الخلف حتى استقرت على حافة مسند مقعده ، وراح يفكر فى شىء آخر يشغل به فكره ، ولكن كان خياله يعود سريعاً إلى بديعة فيجتر صورها ، ويتذكر حديثها ، فتململ حانقا ، وابتدأ يردد : « واحد . . اثنان . . ثلاثة . . واحد . . اثنان . . ثلاثة » واستمر على ذلك مدة فنجح فى تحويل فكره عنها إلى حين . وسرعان ما خفت الترديد ، وعاد إلى التفكير فيها . فهب مفزوعاً ، وجعل يضرب جبهته ببطن كفه ضربات متتابعة سريعة وهو يقطع الحجرة حائراً مضطربا ، كأنما يحاول أن يطرد ذلك الضيف الثقيل الذى نزل بخياله ، والذى يتهافت عليه تهافت الذباب الذى كلما طرد عاد وهو أشد إصرارا وعنادا ، وفكر فى أن يشغل نفسه بالتسبيح فراح يردد « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبرولا حول ولا قوة إلا بالله » واستمر يبدى ويعيد فى حماس حتى أخذته الجلالة ، فارتفع صوته واهتز رأسه ، ونجح فى طرد طيفها الذى أقلقه إلى حين .

وعاد صلاح إلى الدار ، وتناول غداءه ، ثم تمدد فى فراشه ليقيل ، ولكن لم تغمض له عين ، فقد تآزر قلبه وفكره عليه ، وأخذا يضنيانه ويعذبانه ، ففكره لايحلو له إلا التفكير فيها ، وقلبه يطرب لذكرها فيأخذ فى الرقص ، ونفسه لاتقر رقص قلبه ، ولاشرود فكره ، فتبدأ فى وخزه ، وإن لوخز نفسه ألماً شديدا ما أقساه ، فيتلوى فى سريره ، ويتساءل : « لم ابتلاه الله هذه البلوى ، ولم يمتحنه هذا الامتحان العسير ؟ فما أسرع أن يهمس صوت غروره بالجواب : « إن الله لايبتلى إلا عباده المخلصين وهو من خيرة عباده . وسيخرج من محنته مرفوع الجبين » وقر قراره على ألا يفكر فيها أبداً ، وعلى أن يقتلعها من فكره اقتلاعا ، فأحس راحة لقراره هذا الحكيم ، كأنما ذلك أمر يسير . وانقضت لحظات وهو هادئ ساكن لايفكر فى شئ ، فحسب أنه على إنفاذ قراره من القادرين ، فانتشت نفسه سريعاً ، وانشرح صدره قليلا . وقبل أن يتم صفوه قفزت صورة بديعة إلى خياله ، والتصقت به لاتريم ، وراح يفكر فيها ، فأحس نشوة فى قلبه ، وأن نفسه تهفو إليها ، ويديه تشتاقان إلى المرور على شعرها الجميل ، وذراعيها البضتين ، وعينيه تتمنيان الرنو إلى عينيها البراقتين الواسعتين ، وشفتيه تشتهيان

لثم شفتيها . تباً له ، لقد تآمرت عليه حواسه جميعاً ، فهو من الهالكين . وأفزعه ما فكر فيه ، فهب فى سريره قاعداً ، ومر بيده على وجهه ، وهز رأسه هزاً سريعاً كأنما يطرد كابوساً مخيفا جثم على صدره ، وجال بنظره فى الحجرة ، فرأى زوجه تغط فى نوم عميق ، فتطلع إليها فأحس نوعاً من الغيرة يأكل صدره فغمغم : « ياللسعيدة ، تنام ملء الجفون ، فلا فكر يؤرقها ولا شك يعذبها » . ومر بنظره عليها فألفاها مشرقة الوجه ، حلوة التقاسيم ، لاتقل عن بديعة جمالا ، فما بال مجرد نظرة من بديعة تهزه هزاً ، وتجعله يضطرب اضطرابا ؟ هل لانقدر ماتملك ، ولا تهفو نفوسنا إلا إلى مالا نملك ؟ واستمر يديم النظر إليها حتى انقشعت سحابة الغيرة التى احتلت صدره ، وابتدأ يسرى فيه إحساس بالعطف عليها والشفقة لها فهمس : « بل يالليائسة . إنها لتنام مطمئنة لاتدرى فيم يفكر زوجها الحبيب ، ترى أى عذاب كانت تصطليه لو أنها علمت مايقلق زوجها ويؤرقه ، لودار بخلدها أن هناك امرأة غيرها تسلبه لبه ، وتحتل فكره ، ياله من شقى ، كيف يقبل أن يخون زوجه ولو فى الخيال ؟ كيف يرضى أن يشرك غيرها معها فى تفكيره ، بل كيف يسمح لنفسه أن يفكر فى غيرها دواما ، ولا يفكر فيها أبداً ؟ إن بديعة لتتخايل له فى يقظته ومنامه ، وإنه لايذكر أنه فكر فى زوجه مرة واحدة بعد تركه الدار . كيف سمح لنفسه بهذا ؟ أيرضيه أن تفكر سميرة فى سواه ؟ » ، وما فكر فى هذا حتى فزع ، وأحس رغبة فى أن يضمها إلى صدره ، كأنما يخشى أن يخطفها منه خاطف ، فقام من سريره ، وسار إلى سريرها وركع بجواره ، ولف ذراعه حولها . وراح يلثم كل موضع فيها .

* * *

أتم صلاح صلاة العصر ، فرفع يديه إلى السماء وراح يدعو فى ضراعة ، فخرجت الكلمات حارة ، أحس حرارتها فى صدره ، وما كان يحس حرارة فى دعائه قبل يومه ، وكان الدعاء جديداً عليه ، فما كان قبل الآن يلتمس لنفسه الرشد ، بل كان يطلب الخير فى الدنيا والآخرة ، ولكنه اليوم يدعو : « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها . وأنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، ومن قلب لايخشع ، ومن دعاء لايستجاب له » . ثم ترك

سجادة الصلاة وسار مطأطىء البصر حتى دخل غرفته ، فتناول المصحف وراح يقرأ فيه . وانقضى الوقت وحان ميعاد خروجه إلى الشرفة لتكتحل عيناه برؤياها ؛ فأحس عزوفا عن القراءة ، ورغبة ملحة فى الانطلاق إلى هناك ، فجعل يقاوم رغبته ؛ ويرغم نفسه على القراءة إرغاماً ولكن عينيه ثبتتا ولم تتحركا ، وابتدأ ذهنه يتحرك ، وإذا ماتحرك فإنه يعلم وجهته ، فما كان يتجه إلا إليها ، وما كان يحب إلا التفكير فيها ، وابتدأ يفكر فيما يحب ، فترك صلاح المصحف فى تبرم ، وراح يقطع الحجرة هابطا صاعدا فى قلق ، وألفى نفسه يسير كالمسحور إلى الشرفة ، وقبل أن يدلف إليها يصحو إلى نفسه فيعود إلى غرفته سريعاً ، واستمر اضطراب نفسه ، وأحس اختناقا أرجعه إلى فساد جو الغرفة ، فاتجه إلى النوافذ وفتحها ، فلفح الهواء وجهه ، وملأ رئتيه بالهواء ، وعلى الرغم من ذلك استمر الضيق على حاله ، واشتدت رغبته فى الذهاب إلى الشرفة ، وألحت عليه هذه الرغبة إلحاحا حتى كاد زمام أمره يفلت من يده أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة يجمع أشتات عزيمته ، ويخنق تلك الرغبة خنقا ، وانقضى النهار وقد نجح فى كبح زمام رغبته بعد كفاح مرير ، ونضال قتال أجهده كثيراً ، وجعله يسقط على مقعده فى إعياء وتعب .

ودخل فراشه وهو راض عن نفسه مثلج الصدر ، فقد نجح لأول مرة فى كبح جماح شهوة نفسه فلم يطعها ، وما دخل الشرفة ، وما رأى بديعة ، وإنه ليعد ذلك نصرا ، وسيتبعه انتصارات ، فلن يراها أبدا ولن يقابلها غدا فى الموعد المضروب ، وسيخرج فى الصباح الباكر قبل موعده اليومى حتى لا تقع عينه عليها وحتى لا ينكأ جرحه الذى ابتدأ فى الاندمال .

وانقضى الليل هادئا ، فما تخايلت له فى أحلامه فأيقن أنه انتصر على شيطانه ، وما إن استيقظ قبل مولد النهار بلحظات حتى ألفى نفسه يفكر فيها ، وفى الميعاد الذى ضربه لها ، فتململ فى رقدته وضاق بأفكاره وأحس رهبة تنطلق فى صدره ، فنهض وتوضأ ، وقام يصلى فما تركت فكره لحظة ولا غابت عن عينيه على الرغم من أنه كان يغمضهما ليطرد شبحها الماثل أمامه . وقضيت الصلاة على أسوإ ما تكون صلاة ، فما درى أصلى ركعتين أم ثلاثا ؟ أقرأ سورة بعد الفاتحة فى الركعة الثانية أم لم يقرأ ؟ أسجد مرة واحدة فى الركعة الأولى أم مرتين ؟ وجلس

على السجادة حزينا ، يحز الألم فى نفسه ، وأقبلت زوجه فتنحى لها عن السجادة ، وجلس على الأرض بالقرب منها يرقبها وهى تصلى فى اطمئنان وتركع فى خشوع ، فأحس نفسه يحسدها على صـــلاتها لأول مرة فى حياته ، وينفس عليها هدوءها وطمأنينتها .

— ٨ —

وفى الصباح الباكر خرج صلاح متعللا بأن هناك عملا كثيرا متراكما يود إنجازه ، فلم يقابل بديعة ، واستمر طوال يومه مضطربا ، يؤكد لنفسه أنه لن يخرج فى الخامسة والنصف للقياها ، وضعفت نفسه مرات أثناء النهار وفكرت فى الخروج ولكنه كان يشد من أزر نفسه ، ويردها إلى قرارها الأول ، إنه لن يقابلها . وهذا هو الرأى الأول والأخير .

وعاد بعد الظهر من عمله وراح الوقت يمر متباطئا ثقيلا ، وابتدأت فتنة صدره تتحرك ، فقد استيقظ القلب وهب يطالب بحقه صاخبا مشاغبا ، وأرهفت منه الحواس جميعا وراحت تطالبه بالوفاء . وشد شيطانه من أزر حواسه الثائرة فلبس ثوب الناصح وراح يقنعه بأن فى مقابلتها نجاته . فإن فى إحجامه عن مقابلتها إشعالا لنار شوقه فيزداد بها تعلقا ، ويصبح من الصعب على قلبه نبذها ، أما لو قابلها اليوم فستنطفىء جذوة شوقه ، وسيعود إليه هدوؤه الذى فقده ، وسينقضى قلقه واضطرابه . إنه يهيم بالأحلام ، ويحن إلى المجهول ، فإذا ما أصبحت الأحلام حقيقة ، والمجهول معلوما فقدت روعتها وسحر تأثيرها . وعادت إليه نفسه راضية مطمئنة . وأخذ شيطانه يزين له الخروج ، وينفخ فى غروره فيقنعه أنه قوى لن يؤثر فيه لقاؤها . لقد واتته الفرصة يوم السينما فلو كان ضعيفا لانتهزها ، ولكنه فوتها متعمدا . إنه أقوى من أن يضعف أمامها ، فما الذى يخشاه من لقائها ؟ أيخشى أن تجره إلى ارتكاب معصية ؟ هذا محال فلن يرتكب معصية أبدا . وأحس عزيمته تذوب تحت حرارة إغراء شيطانه ، كما تذوب الشمعة تحت حرارة النار ، وشعر بنفسه تضعف وتخور ، فهب يقطع الحجرة جيئة وذهوبا فى تبرم وقلق ورهبة ، هاتفا من أعماق نفسه : « لن أذهب ولن أستمع لهذا اللغو أبدا » ولم يهدأ لحظة ، واستمر القلق يساوره والرهبة تتملكه والقلب يخفق خفقانا ، والصدر يكاد ينفجر

من ضغط الأحاسيس المتباينة التى اتخذت منه مسرحا لاضطرابها وتصارعها ، وبلغ الضيق به منتهاه فأحس نفسه تدمى . راح يفكر فيما ينقذه من عذابه ، فتذكر قصة قرأها ، قصة قس اعتكف فى دير من الأديرة يتعبد ، وانقضت مدة طويلة لم يقابل فيها إنسيا ، فأرهفت حواسه جميعا ، وأصبح سمعه حديدا يميز أخفت الأصوات ، واشتهر أمره بين أهل المنطقة وتحدث الناس بتقواه فأقبلوا من كل صوب وحدب يتبركون به ، وترامى نبؤه إلى غانية فاتنة لعوب فوسوس لها شيطانها أن تغوى القس الورع ، فتزينت وخرجت لترضى شيطانها ، وما إن بلغت بابه حتى طرقته فسمعت صوتا هادئا يستفسر : « من الطارق ؟ » فأجابت بصوت فيه غنج ودلال : « أنا امرأة شقية جاءت تلتمس البركة » وكأنما أحس الورع بغيتها فطلب منها أن تنتظره فى الغرفة المجاورة ، فدخلت حيث أشار عليها ، وسمع القس حفيف ثوب فأيقن أنها تخلع ثوبها عنها ، فتحركت الشهوة فى نفسه ، وضعف وهم بأن يندفع إليها ويرتمى فى أحضانها ليروى ظمأه ويطفئ غلته ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وساوره قلق ، وخشى إن دخل عليها أن يفتنه شيطانه ففكر فى طردها دون أن يراها ، ولكن ما تقول عنه ؟ أيخشى مواجهتها ؟ فعزم على الدخول وجالت بخاطره فكرة فراح ينفذها ، فتلفت فى الحجرة فوقع بصره على سكين تناولها وقطع بها أصبعه ، فمات قلقه ، وفرت شهوته وتحولت أحاسيسه جميعا إلى ألم جسده ، واتجه إلى الغرفة المجاورة هادئ النفس يقطر أصبعه دما فلم يحرك ذلك القوام البديع العارى الماثل أمامه شهوته ، فقد كان الألم يتملكه ويسيطر على حواسه . فلماذا لا يقتفى أثر ذلك الورع ؟ لماذا لا يقطع أصبعه ليحول ألم النفس إلى ألم الجسد ، وما أسرع ما يندمل جرح البدن ؟ إنه إن أحجم فسينتصر شيطانه وستصاحبه معصيته إلى يوم الدين . إنه يعلم أن فى خروجه لذة يتبعها حسرة وعذاب مقيم ، ومع ذلك لا يستطيع قمع شهوة نفسه ، فليقطع أصبعه ، فهذا هو العلاج الوحيد للبرء من هواجس نفسه التى تضنيه ، ولقتل الأحاسيس التى تستبد به وتدفعه إلى الخروج .

وانطلق وأحضر سكينا وهم بقطع أصبعه ولكن خارت عزيمته ، وسمع صوتا ينبعث من أغوار نفسه يهتف به : « رويدك ولا تكن مجنونا . لماذا هذا العمل السخيف ؟ أبلغ بك الضعف منتهاه حتى أصبحت تستجيب إلى كل هاتف يهتف

بك ؟ أفلا تستطيع أن تعزم على عدم الخروج فلا تخرج ؟ بلى تستطيع ، فعلام تقطع أصبعك ؟ إنك لن تخرج ولن تقابلها ، هذا هو الرأى الأخير ، واطمأن إلى الهاتف الجديد ، واختلط عليه الأمر فحسبه صوت العقل ، فاستمع إليه ورمى بالسكين بعيدا . وما دار بخلده أن القلب هو الذى هتف بما هتف حتى يبقى على الفرصة التى كادت تولى وتفلت منه .

واستمر صلاح فى اضطرابه وقلقه على الرغم من قراره الأخير ، وابتدأت ساعة الحائط تدق معلنة الخامسة فكأنما كانت تدق على أوتار قلبه ، فازداد وجيبه ، وعلت ضرباته ، وأخـــذت تدوى فى أذنيه حتى غطت على دقات الساعة ، وابتدأت أجراس كنيسة قريبة تدق فكأنما تآمرت عليه ، فأخذت تردد : « بديعة . . . بديعة . . . بديعة . . . بديعة » فوضع أصبعه فى أذنه ليصمها عن سماع النداء ، ولكن حواســـه كانت قد بلغت من الإرهاف غايته ، فابتدأت تردد النداء فى داخله على دقات الأجراس المتوهمة : « بديعة . . . بديعة . . . بديعة . . . بديعة » وعلى الرغم من أن الأجراس قد كفت وتلاشى صوتها من الوجود ، إلا أن الهتاف الداخلى استمر طويلا حتى حطم أعصابه ، ودك مقاومته دكا .

انهارت مقاومته جميعا فألفى نفسه يتجه إلى ملابسه يرتديها ، وكان قلبه فى صدره كجناح خافق صاعدا هابطا ، وجلا متشوقا ، وتم ارتداء ملابسه فانطلق كالمأخوذ إلى باب مسكنه ، وتحاشى أن تقع عليه عين زوجه فتفطن إلى اضطرابه وقلقه ، وأغلق الباب خلفه ، فأحس رهبة تكتنفه ، ورجفة تسرى فى بدنه ، ولولا أنه ينطلق إلى معصية لالتمس من الله عونه ، ونزل فى الدرج متمهلا شارد اللب ، وما كان قلبه متمهلا ، بل كان يقفز فى صدره قفزا ، وبلغ الطريق وهو يرجو فى قرارة نفسه أن تتخلف عن الحضور ، فلو تخلفت لاستراحت نفسه المضطربة . لقد جمحت نفسه وأفلت منه زمامها ، فلم يبق أمامه لمنع وقوع المقابلة إلا أمل واحد ، هو تخلفها ، آه لو تخلفت لاستراح ولحطمت كبرياء نفسه فلا تجد ما تعذبه من أجله .

وبلغ محطة الترام وأمل تخلفها يداعبه ، وراح يتفرس فى الواقفين ، فلما لم يجدها

أحس اضطراباً وقلقاً ، وفكر عقله فى العودة ، ولكن وجدانه سخر من عقله وهمس : «كيف تفكر فى العودة وما وافى الميعاد بعد؟» ، ونظر فى ساعته فوجدها الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، فقرر أن ينتظر الدقائق الباقية وبعدها يعود ، واستمر القلق يساوره ، وكان ينظر إلى الساعة بين لحظة وأخرى ، وأخيراً تصرمت الدقائق الخمس ، ولم تظهر بديعة فهمس به هامس : «إلى العودة» وهتف قلبه : «فلتنتظر خمس دقائق أخرى وبعدها تعود» ، وأطاع قلبه وراح ينتقل بين أول الشارع وطوار الترام فى قلق واضطراب . وكان الصراع ناشبا فى داخله بين قلبه وعقله ، فالعقل يطالب بالعودة ، والقلب يطالب بالانتظار ، وانقضت الدقائق الخمس فهتف القلب : «فلتنتظر خمس دقائق أخرى» وأطاع صلاح قلبه مرة ثانية وراح ينتظر وقد جفاه الاطمئنان . وأوشكت الدقائق الخمس على الانصرام فتأهب القلب لالتماس مهلة أخرى ، وما كان صلاح بقادر على أن يرفض له طلبا ؛ لقد كان على استعداد لأن يجيب طلبه للمرة الثالثة والرابعة والخامسة . لكن قبل انقضائها لاحت بديعة فى أكمل زينة عند رأس الطريق فأحس قشعريرة خفيفة تسرى فى بدنه وقلبه يكاد يقفز من فيه ، وجفافا فى حلقه ، وخيل إليه أن صوته قد انحبس ، فهمهم ليطمئن على صوته وارتفعت يده إلى رباط رقبته تسويه ، ثم امتدت إلى جيبه وأخرجت منديلا لا تدعو حاجة إليه ، فدس فيه أنفه ثم أعاده إلى جيبه ، واقتربت منه وحيته ، فرد عليها تحيتها بإيماءة من رأسه وهمهمة لم تتجاوز شفتيه . ووقفت بجواره ينتظران الترام ، فابتدأت نفسه تطمئن وأخذت تصفو شيئاً فشيئا ، وتهدأ رويداً رويدا ، وما أقبل الترام حتى كان صلاح الوجل المضطرب قد تلاشى وحل مكانه صلاح آخر مفتح النفس ، مطمئن الصدر ، هادئ الأعصاب ، حلو الحديث يفتر ثغره عن ابتسامة حلوة ، وتبرق عيناه ببريق أخاذ .

مد يده إلى بديعة وساعدها على الصعود ، ثم قفز خفيفا خلفها ، وأخذ يحادثها وقد انتشت نفسه وحلت عقدة لسانه ، وبلغ الترام الزمالك فلم يحس مرور الوقت والتفت إليها وقال :

ـــ أوصلنا إلى هنا سريعاً ! هيا .

وهبطا . ثم دلفا إلى اليسار وانطلقا فى الطريق الهادئ الساكن الممتد على النيل ، وسارا صامتين كأنما استعارا صمتهما من صمت المكان ، واقتربت بديعة منه حتى التصق كتفها بكتفه ، واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها فى يده أخيراً ، فراح يضغطها ضغطاً خفيفا فكان يحس بنشوة لذيذة تسرى فيه ، ما كان يحسها لو أن اليد التى كانت فى يده يد سميرة . واستمر السكون مخيما عليهما ، وكان خارجيا ، ولم تكن نفساهما ساكنتين بل كانتا تعتلجان بشعور فوار . فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ، ليطفىء ناره .

وبلغا مقعداً خشبيا فجلسا يحدقان فى النيل برهة ، ثم زحفت بديعة على المقعد بخفة حتى التصقت به ، فملأ عبيرها الشذى أنفه ، وحرك نفسه فتاق إلى أن يضمها إليه ويطوقها بذراعيه ، ويمطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته وقاوم رغبته ورمى بنظره إلى النيل ، وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد بصره إليها ، وراح يتطلع إليها فى وله واشتهاء ، والتقت العيون فترجمت عما تخفى الصدور ، فمالت بديعة وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخفق قلبه ، وارتفع نبضه وسرى الدم حاراً فى بدنه حتى أحس به يكاد يشوى وجهه . وانبهرت أنفاسه قليلا ، وضاقت حدقتا عينيه قليلا ، واضطرب كثيراً ؛ وأحس شعرها الأسود السبط الجميل ، الذى تمنى يوم جلست أمامه فى السينما أن يمر بيده عليه ، يلمس خده . فسرت رعدة فى جسمه وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك وراحت تمر على شعرها فى حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهى مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ، ورنت إليه فى دلال وزمت شفتيها تدعوه فى خبث إلى اللثم والعناق ، فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية فى أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزمومتين المرتجفتين قليلا ، المغريتين كثيراً ، فأطبق فمه على فمها وضمها إليه فى قسوة ، وغابا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة كادت تصهرهما صهرا .

أحس صلاح نشوة واختناقا ، نشوة السكران بخمر القبل واختناق الشهوة الحبيسة ، وتحركت فيه حيوانيته فضمها إليه بشدة حتى لتكاد ضلوعها تتحطم تحت ضغط ذراعيه ، وجعل يلثمها فى فمها وفى وجنتيها وعينيها ، وفى كل مكان

تصل إليه شفتاه ، وأحس أصواتا تقترب لجفل ، وتركها وأرهف أذنيه فبلغهما صوت جلبة قادمة عن بعد ، وابتدأت الجلبة تقترب وتتميز ، فإذا جماعة من الشبان مقبلين ، وقد التفوا حول شاب رفع صوته بالغناء ، وكان الشبان يهللون عقب كل مقطع مظهرين رضاهم ، واقتربوا من مقعدهما فرموهما بنظراتهم المرتابة المتخابثة ، فأحس صلاح بالخجل يسرى فى أوصاله وتحرك ضميره النائم فى أعماق نفسه وابتدأ زحفه ليقضى على أحاسيس النشوة التى كانت تمرح فى صدره ليسيطر على الميدان وحده ، وينكل بصلاح خصمه ، وانتصر ضميره فقد ماتت أحاسيس النشوة عقب وفود الشبان عليهما . وخلا له وجه صلاح فصاح فيه : « تباً لك ماذا فعلت ؟ تركت صلاة المغرب لترتكب المنكرات هنا ، فيابؤساً لك ، وياللشقاء المنتظرك يوم تكوى شفتاك بمكاو من نار يوم العرض الأكبر » وفر صلاح الهادئ ليحل مكانه صلاح المضطرب أبدا ، الخائف أبدا . واستمر ضميره يخزه وخزا آلم على نفسه من وخز الإبر ، فأحس نفسه تدمى ، وشاء أن يتخلص من عذابه فنهض . فتبعته بديعة ، وسار وسارت ملتصقة به ، وتعلقت بذراعه ، فلم يحس نشوة كتلك التى كان يحسها ، بل كان يحس بها حملا معلقا فى ذراعه يتمنى أن ينزل عنه ، وأحس ضيقاً وتبرما بها ، ففكر أكثر من مرة فى أن يصيح فى وجهها طالبا منها أن تنأى عنه بعيداً ، وأن تغرب عن وجهه ، ولكنه ما كان على إنفاذ بغيته بقادر ، فما زال القلب يشتهيها ، وإن أقنع نفسه أن ما يمنعه من طردها بقية فيه من حياء .

واستمر صلاح فى صمته وإطراقه حتى بلغا محطة الترام ، فلما أقبل ركبا ، فلم يجد سوى مقعد خال ، فجلست بديعة ووقف صلاح بعيدا يتنفس الصعداء حمدا ، فلن يضطر إلى الخوض معها فى حديث لاتشتهيه نفسه ، ولن يضطر إلى أن يتكلف الإنصات إليها وعقله شارد ، ولن يتكلف الابتسام ونفسه تدمى ، وأطرق صلاح يفكر ، فابتدأت معركة ضميرة فالويل له من ضميره .

— ٩ —

بلغ الترام محطة الوصول فهبط صلاح وانطلق دون أن يلتفت إلى بديعة أو يودعها ، وأغذ فى السير وهو منطوعلى نفسه يحس ندما ورهبة ، ندما على ما فرط

منه ورهبة من نفسه ، إنه يخشى أن تختلي به فتضنيه . وسار يعجب في نفسه لنفسه ، فمالها تعذبه إن أطاعها ، وما لها تعذبه إن رفض إطاعتها ؟ لقد اضطهدته لما قرر عدم الخروج للقاء بديعة ، واستمرت في تحريضه على الخروج وتزيينه له ، فما بالها الآن تهاجمه بعد أن أطاعها ، وتنعى عليه ضعفه ؟ واستمر في عجبه وهو لايدرى أنه ضحية نفسيه المتكافئتين ، نفسه الشريرة ونفسه الخيرة ، فإذا ما جنح إلى الخير هبت الشريرة لوخزه وتنغيص عيشه ، ولا تهدأ حتى يطيعها ويرضى شهوتها ، وبعدها تتحرك الخيرة لزجره وتأنيبه فلا ينتهى تعذيبه .

وتذكر في الطريق دعاء ماكان يجرى له ببال قبل اليوم ، ولم يتحرك به لسانه أبدا ، فأخذ يردده في نفسه في حرارة يحس نارها تصهر صدره ، ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء ، واستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى . . . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » .

ودق الباب ففتحته زوجه فدخل وأغلقه خلفه ، ثم طوقها بذراعيه وراح يقبلها في لهفة وهو يغمغم : «سميرة . . . سميرة » كأنما كان في سفر طويل عاد منه ، وخطر داهم يهدد حياته . وأحس كأنه يود أن يفضى إليها بكل شيء وأن يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث ، وتخلصت منه في رفق وسألته في ارتياب :

— ماذا بك الليلة ؟

— لاأدرى . إنى إليك مشتاق كأنى لم أرك منذ سنين .

— أأعد العشاء ؟

— انتظرى حتى أصلى العشاء .

ودخل حجرته وأخذ يخلع ملابسه ولم ترحمه نفسه المهتاجة بل راحت تخزه ، فسمع صوتاً يهتف به من أغوار نفسه : « ياللك من منافق ، كيف سمحت لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟ وكيف رضيت عن أن تلف ذراعيك الملوثتين بخصرها ، وأن تلصق صدرك الخبيث بصدرها ، ياللعارك ! » وحاول أن يتخلص من وطأة نفسه ، فجعل يستغفر الله في سره ، وعاد الصوت يهتف به ثانية : « اذهب إليها واعترف لها بذلك واطلب منها الصفح لعلها تصفح ، فقد أسأت إليها وهى لاتدرى ، وهم بأن يخرج من حجرته ليقص عليها قصته ،

ولكن صوت عقله رن فى أذنيه : « حذار أن تعترف لها ، إنها امرأة مهما سمت ، ركبت الغيرة فيها ، فستثير بقصتك شكوكها . وتحرك شجونها وتعذبها تعذيباً » وجال فى ذهنه خاطر ؛ جال فى ذهنه أن يطلب من الله الصفح ، فانطلق يتوضأ فأسبغ الوضوء ثم عاد واستقبل القبلة ورفع يديه يدعو الله فى حرارة ، ولأول مرة يذكر ضعفه على لسانه ، واستمر يدعو : « اللهم إليك أشكو ضعف نفسى ، رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور ، اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفرلى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وطفرت الدموع من عينيه . فمسحها بظهر يديه ثم كبر ووقف يصلى فى خشوع . وجعل يقوم ويسجد فى اطمئنان ، وصلى صلاة لم يصل مثلها قط ، فما شرد فكره أبدا ، وكانت حرارة الآيات التى يرتلها تنبعث من قلبه وتسرى فى صدره فكأنما المعصية التى ارتكبها صهرت نفسه وخلصتها من أدرانها إلى حين .

— ١٠ —

انقضت أيام وصلاح يتحاشى مقابلة بديعة ، فقد كان على يقين من أنه إذا رآها تحركت شجونه ونكأ جرح قلبه الذى سكن سكون النار تحت الرماد ، وكثيرا ما تخايلت له فى يقظته ، فكان يفكر فيها طويلا ، ثم ينجح أخيرا فى طرد طيفها الزائر . وقد رآها فى نومه مرتين ، مرة محلولة الشعر عارية إلا من غلالة رقيقة ، مرتمية فى أحضانه تبادله القبلات ، ومرة تقوده إلى طريق موحش مظلم مهجور ، فأوجس خيفة . وكان قلبه يحاول جاهدا عصر كل يوم أن يقوده إلى الشرفة ليراها ، ولكنه كان يقاوم مقاومة اليائس المستميت ، وقد نجح حتى الآن فى كبح جماح شهوته ، فلم يدخل الشرفة أبدا بعد مقابلتهما المشئومة .

وكان قلبه يتوق إلى مقابلتها مصادفة صاعدة أو هابطة أثناء صعود صلاح أو هبوطه فى الدرج ، آملا أن تحرك رؤيتها فتنة صدره فيقضى على مقاومته التى شد من أزرها غياب بديعة عن عينيه ؛ ترى لو وقعت عيناه عليها أتخور عزيمته وتذوب مقاومته ؟ إن القلب ليتوق إلى هذا ، وإن صلاح ليخشاه كل الخشية ، ويدعو الله أن يحفظه وأن يجنبه تجرع ذلك العذاب المرير .

ودخل صلاح حجرته وتناول كتابا راح يقرأ فيه برهة ، ثم أغلقه ووضعه على ركبتيه ، وألقى برأسه إلى الخلف وأسبل عينيه وراح يفكر فيما آل إليه حاله . كان ناعم البال ، مطمئن النفس ، يحسب نفسه طودا عظيما لا تزعزعه الأهواء ، ولا تحركه الشهوات ، فإذا به عقب أول اختبار يجد نفسه خبيثة شريرة ما إن تلوح لها بادرة الإثم حتى ترتمى فى أحضان المعصية ، لاوازع يزعها ولا ناهى ينهاها . ألا ما أضعف الإنسان !

ونظر من خلل النافذة المفتوحة ، فلمح رقعة السماء الزرقاء الصافية الأديم ، المترامية أبدا ، الممتدة أبدا ، فأحس رهبة خفيفة تهز نفسه ، فزفر زفرة ممدودة ، كأنما يزفر خلجة الرهبة التى انطلقت إلى صدره ، ثم غمغم : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » وارتد بصره يتفحص الغرفة فوقع على مصحف قريب ، وما إن رآه حتى قفز إلى رأسه خاطر أن يرى فيه طالعه ، فيعرف ما ينتظره من خير أو شر ، فتناوله فى إجلال وقرأ الفاتحة وهو بين يديه ، ثم فتحه كيفما اتفق وقلبه خافق ، وابتدأ يعد سطور الصفحة اليمنى ، حتى إذا بلغ السطر السابع ، جعل يقرأ طالعه : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار) وما إن بلغ هذا حتى فزع ، وشاء أن يتهرب من طالعه فهتف بصوت بلغ أذنيه واضحا : « لا . لست من أصحاب النار ، فلئن كنت قد أخطأت فإن خطئى لم يبلغ حد المعصية ، فلم أرتكب إحدى الكبائر ، وإن الله يغفر ما دون ذلك . لا ليس هذا طالعى . لا إنى لا أجعل لله أندادا : إن طالعى بعد ذلك دون شك ، واستمر يقرأ : « أم من هو قانت آناء الليل ، ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » وما إن أتم ذلك حتى هدأت نفسه وقرت واطمأن باله وصفا ، وراح يؤكد لنفسه أن هذا هو طالعه ، وهو طالع سعيد حقا .

وأقبل الليل وصلاح جد مسرور ، فقد تصرم النهار ولم يطع أهواءه ، ولم تضعف عزيمته ، ولم يستمع إلى قلبه ، ونجح فى كبح جماح نفسه فلم يدخل

الشرفة اليوم أيضا ليراها ، وكان راضيا عن نفسه كل الرضا فما استلزم كبحها منه جهدا ، وقد أرجع ذلك إلى أن معدن نفسه ممتاز لا تلتصق به الأصداء ، وإن علته برهة فما أسرع وأيسر أن تزال . لقد خرج من معركته الناشبة بينه وبين شيطانه منتصرا ، وما شك فى نتيجة المعركة يوما ولا ساعة .

ودخل فراشه ونام ، وراح فى سبات عميق تخلله حلم جميل ، فقد رأى بديعة بجسمها اللدن بين أحضانه وهو يضمها فى نشوة وغبطة وسرور ، واستيقظ من نومه وتذكر حلمه ، فاضطرب وحاول أن يستأنف نومه دون جدوى ، فقد سيطرت بديعة على فكره . ودقت ساعة الحائط الثانية ، وهو يتقلب فى فراشه كما يتقلب على الجمر ، مضطربا يحس اختناق الشهوة المكبوتة . وراح يراود النوم ولكنه فرونأى ، وتنبهت حواسه جميعا ، فترك الفراش واتجه إلى الشرفة ليستنشق الهواء ، عسى أن تهدأ نفسه القلقة المضطربة .

خرج إلى الشرفة فألفى السكون قد لف كل شىء ، والهدوء مسيطرا على المكان حتى لكأن حفيف النسيم يسمع ؛ وكان البدر مطلا على الدنيا ينشر ضياءه الفضى ، فيقلب الليل نهارا ساحرا أخاذا ، فمد بصره فى رهبة وخشوع ، وراح يدور به فى أرجاء المكان ، واستقر على شرفتها فأخذ وازداد اضطرابه ، وراح قلبه يقفز فى صدره ، وانتشرت فى صدره أحاسيس متباينة ممتزجة ؛ امتزجت الرغبة بالرهبة ؛ إنها هناك . . . بديعة نفسها بشعرها الأسود الذى عجز القمر عن أن يبدد ليله ، وعليها غلالة شفافة كتلك التى رآها عليها فى حلمه ، وما إن تذكر حلمه حتى اهتز بدنه جميعه ، كأنما حمى قد سرت فيه ؛ وخطر له أن يفر من وجهها ، ولكن تسمر فى مكانه برغمه ، وثبتت عيناه عليها لا تتحولان : والتقت العيون ، فابتدأت مناجاة صامتة هدت كيانهما هدا ، وأفصحت عما يرغبان . وانقضى الوقت وهما لا يشعران . فقد كانا غارقين فى نشوة الأحلام ؛ ولم يشعر صلاح إلا وهو يشير لها طالبا منها موافاته الآن ، وانطلق ليفتح لها باب مسكنه ، وسار على أطراف أصابعه ، وقد أرهفت منه الحواس ، وراح قلبه يدق دقات عنيفة حتى لخشى أن يوقظ زوجته النائمة ، وراحت زفرات سميرة النائمة فى هدوء تصك أذنيه صكا ، وهو ينسل من جوار سريرها . واستمرت طرقات قلبه تدوى فى أذنيه كأنما مطارق تدق طبلا ، وبلغ الباب بعد أن بذل جهدا ، وفتحه فى احتراس

خشية أن ينبعث منه صوت يوقظ زوجه فيفتضح أمره ؛ وتم فتح الباب أخيرا فوجد بديعة واقفة على باب مسكنها ، فأشار إليها فى وجل فأقدمت ، وكانت أثبت منه نفسا وأرسخ قدما ، ودلفت من الباب ، فأغلقه خلفها فى رفق ، ثم تناول يدها وقادها إلى غرفة قريبة ، ثم ضمها إلى صدره ، وبعد لحظات ارتميا على مقعد طويل قريب جسما واحدا .

وانتهى كل شيء ، فانسلت بديعة فى خفة إلى مسكنها ، وقام صلاح إلى الباب يجر عاره ، وأغلقه وهو فى ذهول عميق ، وعاد إلى فراشه كسير الفؤاد يتساءل عما فعل ، وارتمى فى سريره ، كأنما ارتمى فى أتون من النار ، فجعل يتفزع ويتأوه ، وتحرك ضميره وراح يصرخ : « ضيعك شيطانك فما جنيت ؟ لذة عبرت يعقبها حسرة طويلة وعذاب مقيم ، لقد هويت فحق عليك عذاب الحريق » .

واستمر ضميره يخزه وخزا شديدا وهو يتلوى من العذاب . وضاق صدره ، فترقرق الدمع فى عينيه ، فلم يستطع حبسه ، فجرى على خديه واستمر فى عذاب حتى ارتفع المؤذن بالفجر ، فأحس كأن صوته نار تصب فى أذنيه ، فوضع أصبعه فى أذنه ليصمها عن سماع الأذان الذى يزيد من أشجانه ، ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه ، فكأنما شواظ من نار سدد إلى قلبه فحرقه حرقا ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته ، وأحس سميرة تنهض من فراشها فأحس عرق الخجل يتصبب منه حتى يغمره ، واقتربت من سريره فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد سميرة لمست كتفه فى رفق وهمست فى حنان :

— صلاح . . صلاح انهض قد أذن المؤذن .

فهم بأن يصيح فيها أن تبتعد عنه ، وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس ولم يجد مخرجا ، فعادت تهزه وتهتف :

— صلاح . . صلاح . . قم . الصلاة خير من النوم .

واقتربت بوجهها من وجهه ، فلمحت دموعه تجرى على خده ، فهمست فى فزع :

— صلاح ، مابك ؟ أتبكى ؟ . . قم ياحبيبى .

— دعينى .

— ما بك يا حبيبى ؟

— رأيت رؤيا مفزعة ، رأيت نفسى أطرد من الجنة .

— أضغاث أحلام .

— لا ياسميرة ، هتف بى هاتف : « تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار . . تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » .

فضمته سميرة إلى صدرها فى حنان وقالت :

— لا ياصلاح ، إنها وسوسة الشيطان ، تعوذ بالله منه ، وقم ياحبيبى .

ونهض صلاح ليغتسل من إثمه . وانطلق حزينا كئيبا يحتقر نفسه ، ويعجب لضعفه . وسمع صوتا آتيا من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحاً قويا ، وانساب فيها عذبا نديا :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »

فتمتم والدموع تخضب وجهه : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك » .



٢ — المصـــير

لأمينة قطب

هل أحتاج أن أعتذر للقراء عن اختيار نماذج فنية لأشخاص تربطنى بهم صلة القربى القريبة ، صلة الأخوة ؟ ! لقد جرى « العرف » على الاستنكاف من هذا الأمر . ولـكننى لا أجد حرجا من مخالفة هذا العرف فى مجال الفن . فقد رأى النقاد — قبلى — أن هذه الـكاتبة يتمثل فيها — وربما لأول مرة — محاولة التعبير بالقصة عن الحياة من خلال التصور الإسلامى . وأنا هنا — فى الـكتاب كله — لا أتحدث عن المستويات الفنية (فيما عدا النماذج القرآنية) وإنما أتحدث عن المنهج الموضوعى . . وكذلك حين أقدم هذه القصة أقدمها من ناحية الموضوع ، ولا أتحدث عن مستواها الفنى ، فهذا ليس من شأنى فى هذا الـكتاب !

وقد اخترت هذه القصة[1] لسببين :

الأول : أنها تحمل موضوعا من موضوعات العقيدة . . إذ ترسم تسلل « الإيمان » بالله إلى نفس لم تـكن تؤمن به من قبل الإيمان الحق . وتصور أثر هذا الإيمان فى مشاعر هذه النفس وسلوكها الواقعى فى الحياة . وهو — كما ترى — من موضوعات العقيدة الخالصة الصريحة . وقد اخترناه لنقول إن موضوعات العقيدة — فى ذاتها — ليست حراما على الفن ، إذا أمكن عرضها بطريقة فنية ! إنما هى — كـكل موضوع آخر — قابلة للتعبير عنها فى ثوب فنى ، فتساوق الموضوعات التى توصف بأنها « طليقة » وتقف معها على قدم المساواة .

---

(١) من مجموعة قصص قصيرة للمؤلفة بعنوان : « فى الطريق » .

والسبب الثانى : أن نعرض نموذجا للطريقة التى يمكن بها تناول العقيدة فى مجال الفن . إنها ليست طريقة الوعظ المباشر ولا التجريد الذهنى لقضايا العقيدة ومقوماتها . وإنما هى عرض هذه القضايا من خلال المشاعر والانفعالات البشرية. وهذا هو الذى يعطى القصة قيمتها الإنسانية .

إنها تصور كيف أثرت صدمة الموت فى كيان شاب عابث يعتنق أفكار الوجوديين ويطبقها فى واقع حياته ، فهزت الصدمة هذه المعتقدات من أساسها وحولتها ، حين واجه هذا الشاب عجز البشرية أمام الموت . . وأمام الله وتعمق .. هذا الإحساس بالعجز فى نفسه حتى وصل إلى مكمن « العقيدة » .. وفجأة تتحول مشاعره . . حين يجد الله ، ويجد فى رحابه عزاء عن الموت ، وعن العجز ، وعن الفناء . كما يجد الأمل فى البعث و « استمرار » الحياة بعد فترة الانقطاع التى تسمى الموت . . ويؤثر هذا الشعور فى نفسه فيغير من مسلكه فى الحياة ، ويرفعه على نفسه . . يرفعه من حيوانيته السابقة إلى مستوى « الإنسان » .

وذلك كله معروض من خلال « نفس بشرية » لا من خلال الذهن البارد ولا الوعظ والتوجيه الصريح .



المصـــير

كانوا زملاء عمل ، وكانت أفكارهم وأذواقهم تلتقى وتتقارب فى كثير من الأمور على الرغم من أنه لم تمض على زمالتهم غير سنة أو أكثر قليلا . . شىء واحد كان سامى يختلف عنهم فيه : هو حبه للقراءة والاطلاع ، وتتبع الأفكار والنظريات الجديدة . أما زملاؤه الثلاثة فقد كانوا يفضلون قضاء أوقات فراغهم كلها فى المقاهى وفى أماكن اللهو ، وفى القيام بالرحلات المشتركة التى كانت تنظمها لهم — مع غيرهم من الموظفين — شركتهم الكبيرة . أو التى كانوا ينظمونها هم مع بعضهم البعض . وكانت هذه الرحلات — على كل مايجرى فيها — أفضل بكثير من أماكن اللهو العامة التى تعج بالمناظر الفاضحة ، واللهو المستهتر ، والصخب الذى لا تحده قيود . وكان زملاؤه الثلاثة يصطحبون أسرهم معهم فى معظم تلك الرحلات مع غيرها من الأسر . أما هو فلم تكن له زوجة ولا أبناء رغم أنه قد تخطى الثلاثين . ولم تكن والدته المحافظة ولا أخوانه يقبلن الذهاب ضمن هذه الرحلات التى كانت والدته تسميها بـ « السلاطة القذرة » لما فيها من تبرج واختلاط وهرج ومرج وانفلات . ولهذا كان يذهب بمفرده ويصخب ويعربد هو وزملاؤه فى الرحلة الصاخبة التى يتخلى فيها الجميع من كل قيد ، وكأنهم فى سباق لانتهاب أكبر قسط من اللذة والانطلاق . . أما بقية العطلات وأوقات الفراغ فكان يقضى بعضها فى القراءة ، وبعضها فى صحبة زملائه الذين يتنقلون بين أماكن اللهو ، تساعدهم على ذلك مرتباتهم الكبيرة وميراثهم الذى يزيد من دخلهم الكبير . . ولقد كانت حالته هذه تحزن أمه وتعذبها ولكنه كان يرى أن أمه تدخل أنفها فيما لاشأن لها به ، فهذه حياته الخاصة التى لا دخل لأحد فيها ، والتى يجب أن يختارها ويكيفها حسب مايرى وحسب مايرتاح . .

كانت هذه فلسفته التى يطبقها ويسير عليها إلى ما قبل ثلاثة أشهر فقط . أما اليوم فها هو ذا يختار لزملائه مكانا هادئاً — لم يذهبوا إليه من قبل — ليقضوا فيه نزهة المساء ، محاولا جذبهم بعيداً عن نزهاتهم المختارة شيئاً فشيئاً . . مكان جاء هو إليه ثلاث مرات دون أن يخبرهم به . إنه الكازينو الهادئ المنعزل

المقام فى قطعة من صحراء (حلوان) بالقرب من عين المياه المعدنية التى تفجرت فى الصحراء منذ سنوات ليست بعيدة ، فأطلقت الحياة فيما حولها بعد أن كان قفراً مجدباً .

كانت نسمات الأصيل الناعمة تنبعث خفيفة طليقة كطلاقة الصحراء التى تحيط بالمكان النضر المخضوضر . وكانت الشمس ماتزال تغطى بعض جدران الكازينو وبعض شجيرات الظل والسرو المتناثرة هنا وهناك فى جوانب الكازينو وخارجه ، وبين ممراته التى تحيط بجوانبها الحشائش والزهور . تلك الزهور التى تتمايل فى رشاقة مستجيبة لنسمات الربيع الحانية الحاملة العطرة .

وكانوا قد فرغوا من تناول الشاى وبعض الفطائر ، وجلس كل منهم جلسة مريحة مستنداً إلى حافتى مقعده ، مرتكزاً بقدميه على الوصلات الخشبية التى تصل بين قوائم المنضدة . وقد أخذ بعضهم يجيل بصره بين الموائد القريبة والبعيدة مفتشاً عن الوجوه الجميلة ، فى تلصص قد اعتادته نظراتهم لكثرة تكراره . . أما هو فكان يتطلع إلى الأفق تارة وإلى الزهور أخرى . ثم إلى الأشجار والصحراء التى كان يبدو جانب منها من فتحة باب الكازينو الكبير . وحين كانت عيناه تقعان على إحدى الجالسات وكن قليلات متفرقات ، كان يشرع فى تحويل نظره واهتمامه إلى شىء أو حديث حتى لايفلت منه زمام نفسه ، فيعود إلى سابق عهده .

وفجأة عاد أحد زملائه يسأله فى سخرية ذلك السؤال الذى سأله له مرات من قبل وأعاده عليه اليوم ، وهم يقطعون الطريق إلى الكازينو القابع وسط الصحراء . . « وبعد يا سامى ؟ إننا نريد أن نعرف سر هذا الانقلاب الذى طرأ عليك حتى ننتفع ببركاتك وصلاحك ! قل لنا سر هذا التغير الذى جعلك تأتى بنا إلى هذا المكان القابض الذى يذكرنا بالقبور ، والذى لم نرفيه وجهاً ولا قواماً يستحق المجىء ، مدعياً أنه من أجمل الأماكن التى يجب أن نرتادها . قل لنا ماذا حدث لك ياصديقى وأفسدك علينا ؟ » ولم يكد زميله ينتهى من كلماته حتى شاركه الاثنان الآخران فى التهكم والأسئلة ، مصرين على معرفة سر تغيره الذى جعله يوشك أن يقاطع كل سهراتهم ولهوهم ونزهاتهم التى كان هو أول محبذ لها متحمس لقضائها . ولم يستطع الإفلات منهم هذه المرة فابتسم ابتسامة فيها الكثير

من الاضطراب . ثم اعتدل فى جلسته واقترب من المائدة وارتكز عليها بأحد رسغيه ثم أخذ يقول وقد اضطربت أنفاسه قليلا وجف حلقه كمن يلقى بشهادة هامة :

— لقدكنت فى الحقيقة أريد أن أحدثكم عن سر هذا الانقلاب ، كما تسمونه ، منذ شهرين . ولكنى آثرت السكوت حتى أتأكد من أنى سأمضى فى خطتى الجديدة ، وأنى لن أرتد ثانية إلى ماكنت فيه . . إنها مسألة صعبة أن يتحول إنسان من حياة صاخبة فيها من المتع والمغريات كل ذلك القدر ، إلى حياة تبدو فى أول الأمر ضيقة المنافذ ثقيلة القيود ، ولكن من العجب أن النفس حين تهتدى إلى النور لاتلبث أن ترى فى تلك القيود انطلاقا وحرية ، ولا تلبث أن ترى فى تلك المتع هبوطاً تجد لذة كبيرة فى الاستعلاء عليه . .

وقاطعته أصوات زملائه الثلاثة ساخرة متهكمة ضاحكة معلقة بشتى العبارات . ولكنه ازداد تماسكا وتلاشى اضطرابه الذى اعتراه فى بدء الحديث ، ثم عاد يقول :

— لقد كنت أعرف أنكم ستقابلون تغيرى بهذه السخريات . ولهذا سكت حتى يتضح لى الطريق تماماً . وأحس فى نفسى القدرة على المضى فيه . أما سبب هذا التغير فهو حادث بسيط ، أقصد أنه حادث عادى يحدث كل يوم آلاف المرات فى أنحاء الأرض ، وقد شاهدته من قبل حين وقع لأبى ، وسمعت عنه مرات عديدة فى المحيط الخاص والعام . ولكنه فى هذه المرة كان شيئا آخر فى شعورى ، وقد رج كيانى كله وفتح أمام عينى آفاقاً كانت مغلقة تماما . . إنه الموت . .

وبدت فى نظرات زملائه معانى التعجب وعدم المبالاة . ولكنهم ظلوا منصتين منتبهين لبقية الحديث . وتنهد هو ومسح على جبهته واستمر فى حديثه :

— عندما توفى والدى منذ عشر سنوات لم تكن نفسى ولا طاقتى قد تفتحت بعد للتفكير ، والشعور بهذا الحدث الهائل على حقيقته . ولهذا مالبثت أن انطلقت للحياة بعد أيام الحزن ، غير عابىء بشىء ، وساعدنى على ذلك أن أسرتى لم تكن فى حاجة إلى . كان أخواى فى منتصف المرحلة العالية من تعليمهما ، وكنت أنا قد أنهيتها والتحقت بوظيفة فى الإسكندرية . وكان والدى قد ترك لنا ثروة

تكفى مطالبنا وحاجياتنا ، ولهذا فقد رحت أتصرف فى مرتبى كيفما أشاء . وساعد بعدى عن بقية الأسرة فى انطلاقى من كل قيد ، واندفاعى فى الحياة بلا تفكير . . كنت مفتوناً بفلسفة الوجوديين ، وكنت أتتبع كتابات الكتاب العرب الذين يسيرون على هذا النهج ، وسرعان ما تأثرت بهم ورحت أطبق آراءهم فى حياتى وتصرفاتى مزهواً منتفخاً على غيرى ممن يعيشون بأوهام القرون الوسطى ومعتقداتها . . ونقلت إلى القاهرة واطلعت والدتى على بعض تصرفاتى التى كانت تعدها خروجاً على التقاليد والدين ما بعده خروج . وأخذت تؤنبنى تارة وتنصحنى أخرى . كنت أحاول إفهامها عبثاً أن الإنسان فى هذا العصر قد أصبح سيد نفسه يتصرف حسبما يرى ويفكر ، وليس لقوة ما أن ترغمه على تصرف لا يريده ولا يقتنع به . وكان هذا الكلام يحزنها فتتركنى صامتة مستاءة . أما أنا فكنت أعزو ذلك طبعاً إلى سنها ، وإلى العصر الذى نشأت فيه ، وإلى المعتقدات التى لاتزال تؤمن بها . ثم أنطلق من جديد مفتوناً بقدرة الإنسان وتحرره . قدرته التى سيطر بها على كل شىء ، وحطم بها جميع القوى ، وأصبح حراً فى تفكيره وتصوره ، واختيار لون حياته ، دون وصاية ودون قيود .

بهذه الروح كنت أمضى معكم ومع غيركم من الأصدقاء . . ثم كان ذلك الحادث وذلك اليوم الذى تعرفون . اليوم الذى توفى فيه (عمى حامد) كما كنت أدعوه منذ طفولتى . . وأنتم لاتعرفون بالضبط نوع الصلة التى كانت تربطنا به . كل ماعرفتموه يوم وفاته أنه كان جاراً ونسيباً لنا منذ زمن بعيد . أما الحقيقة فقد كانت أكبر من هذا بكثير . كان فى شعورنا جميعاً مثل أبى تماماً ! كان هو وأبى لايفترقان إلا ساعات العمل والنوم . وكان البيتان متجاورين ولكنهما كانا متصلين من الداخل بباب صغير ، علامة على اختلاط الأسرتين واتصالها واتحاد حياتهما . لقد نشأنا معاً نحن وبعض أبنائه إخوة متحابين متفاهمين . لم يكن يفرق فى حبه بيننا وبين أبنائه . حتى من قبل أن يتزوج أحد أبنائه بإحدى شقيقاتى ، وشقيقى من إحدى بناته . إلى حد أنه قد جافى أحد أبنائه ، ومنعنا من الاختلاط به عندما علم أنه قد اعتنق مبدأ ملحداً واختلط بأقران سوء ، خوفاً على ديننا ومعتقداتنا . وعندما توفى أبى كان شعورنا أن أحد والدينا قد توفى وبقى الآخر يرعانا ويمنحنا من حبه مثل ما كان يمنحنا والدنا الحقيقى . . وعندما انحدرت

إلى الطريق الذى سرت فيه كان هو الوحيد الذى أخافه وأخشاه بدون تفكير . وكنت أحرص كل الحرص ألا يعرف عنى شيئاً يسيء إلى سمعتى عنده . . حتى أننى بقيت شهراً أتهرب من لقائه عندما علمت أن والدتى قد أخبرته بشىء عن سلوكى . . وعندما لقينى مصادفة اضطربت وخجلت ، وخيل إلى أنه سيشتمنى ويقاطعنى . ولكنه لم يصنع ، بل نادانى وجلس بجانبى وأخذ يحدثنى حديثاً طويلاً عن الخلق وعن الدين وعن الله وعن الدنيا الزائلة الفانية التى لاتستحق أن يخسر الإنسان من أجلها رضاء الله . . وخجلت يومها أن أحدثه بأفكارى وبفلسفتى التى أسير عليها ، ورحت أستمع إليه صامتاً مبديا استعدادى لأن أسير كما يريد . . ورغم أنى لم أقتنع يومها بحديثه ولا بإحساسه بالأشياء فإن شيئاً ما كان يختلج فى شعورى وأنا أستمع إلى حديثه المؤمن العميق .

ثم كان مرضه المفاجىء الذى استدعى نقله إلى أحد المستشفيات الخاصة لإجراء عملية له ، والذى كان يستدعى أن أكون بجانبه بين وقت وآخر كأحد أبنائه . . لقد انقطعت عنكم تلك الفترة وعن غيركم من الأصدقاء . ولم يكن شعورى شعور المكره فى هذا العمل ، بل كان حبى له يدفعنى لأن أدع كل شىء وأجلس بجانبه أحدثه وأرفه عنه وأخفف عن نفسه وطأة المرض . كان شعوراً غريباً بالنسبة لنفس قد فسد فيها كل شىء . ولكن يبدو أنه كان الجانب الوحيد الذى بقى فى نفسى سليماً ، ولم تمسه أفكارى . إلى أن كانت تلك الليلة عندما اشتد عليه المرض وبدا أن لافائدة من بقائه فى المستشفى ، فقررنا نقله إلى البيت فى الصباح الباكر . ولكن ياللعجز البشرى ! بضع ساعات حتى الصباح لم يكن فى مقدور ذلك العدد من الأطباء المعالجين ، ومن الأهل والأبناء أن يمسكوا بحياة المريض حتى تمضى . . لقد أسلم الروح فى الحادية عشرة مساء .

وعدنا به فى السيارة ، جثة هامدة لاتحس ولا تسمع ولا تعى ولاتهتز لشىء . جثة لاتحمل من شكل الأحياء غير السمت وذلك الهيكل المحدد ، ولكن لاحول له ولا قوة ، كصرة من الأشياء تقلبها وتضعها حسبما تشاء . .

وحين وضع فى فراشه ولف بأغطيته وانطلقت الصرخات من كل جانب ، وانطلق النحيب المكبوت طوال الطريق ، رأيت ابنه الذى طالما هزأ وسخر من كل شىء يقوله المتدينون ، رأيته يبكى عند سرير الراقد الغائب ، ويهز أطراف

الحشية وهو يقول : أبي . . لم تقل إنك ذاهب الآن . هل مازلت غاضباً مني ؟ . . ثم ينخرط في بكاء طويل دون أن يتحرك الهاجع الصامت أو يمد يداً أو ذراعاً ، أو يربت على ظهر النادم المستغفر . .

وبعد ساعات هدأت العاصفة الحزينة وأوت الحاضرات من الأهل والأقارب إلى إحدى الغرف بعض الوقت ريثما يعود بعضهن إلى إعداد البيت لجنازة الصباح . . وجلسنا نحن . أنا وإخوتي وأبناؤه وزوج إحدى كريماته وبعض أقاربه الآخرين . وقد أخذ بعضهم يتحدث ويتشاور في شؤون الغد الذي لم يبق عليه غير ساعات . وكان الحديث كله يدور حول الجنازة وحول الغائبين من الأهل الذين لم يأتوا بعد . ثم حول الدفن ، ومن سيذهب إلى المقبرة ومن سيبقى لبقية الشئون . . ووصلت إلى أذني كلمة « الدفن » . دفن من ؟ دفن تلك الجثة الممدة فوق الفراش يحيطها وينبع منها الصقيع . أم دفن ذلك الرائح الغادي المنتصب القامة رغم الكبر ، الدائب الحركة والنشاط والتنقل ؟ أم ذلك الوجه المعبر ، المرح البشوش الذكي ، الراضي الحاني ، الغاضب المؤنب ، الساخر المتهكم ، الضاحك المتحدث القوي السمات ؟ هل يعقل ، وبهذه السرعة ، أن تكون كل هذه المعاني واللمحات قد تحولت إلى ذلك الهيكل الصامت الممدد في الفراش بلا حركة ولا أنفاس ؟ أجل إنه هو ! ولم تثبت الصورة الجديدة في خيالي غير لحظة ، لحظة المقارنة السريعة . ثم سرعان مارحت أستعيد في ذاكرتي مئات الصور القديمة والحديثة سواء . . صورته وهو يلاطفني ويداعبني ويرعاني ، طفلا ويافعاً وشاباً . صورته وهو يبكي أبي أو يبكي ابنته التي اختطفها الموت في شرخ الشباب . صورته وهو ينصحني ويدعولي متمنياً لي النجاح قبيل الامتحانات . صورته وهو يسقي حديقة بيته الظليلة الجميلة ويجمع منها الزهر في الصباح . صورته وهو يقطع الشارع الطويل في الصباح المبكر وقبيل الغروب في تمهل ووقار ، حتى لايهرم جسمه ويذبل بعد إحالته إلى المعاش . صورته وهو يلقي فكاهاته الساخرة من الحياة والأحياء ، وعلى وجهه تلك الابتسامة التي كانت لاتفارقه إلا لماما ، رغم همه ومصائب حياته . صورته وهو يصلي في خشوع ووقار مسبحاً داعياً الله أن يهدي ابنه الذي ضل ، وأن يصبره هو على بلاء الدنيا . . عشرات الصور التي وعتها له ذاكرتي منذ طفولتي حتى ذلك اليوم . فإذا بكلمة « الدفن » تبدو غريبة مفزعة

هائلة .. نعم إن الجثث تدفن،ولكن هذه الصور العديدة الحية كيف تدفن ويسرى عليها مايسرى على ذلك الهيكل الراقد بلا حراك ؟ وأحسست أننى أكاد أهذى . فتسللت بعد قليل إلى شرفة من الشرفات ووقفت هناك أتطلع إلى الظلام الكثيف من حولى ، ولم أشعر بلفحات البرد تخترق لحمى وتصل إلى عظامى . وتطلعت إلى السماء التى كانت النجوم تلمع فى أرجائها اللانهائية ، وتبعث ببعض الشعاع الذى لايكاد يصل إلى الأرض . . وعادت الصور البعيدة والقريبة تتدافع إلى ذهنى وتزحم خيالى ، وأحضرت بينها الصورة المفاجئة التى تحجب كل مامر من صور . صورة الجثة التى ستدفن فى الصباح . . وكدت أصرخ وأجأر من هذه المفارقة الهائلة المذهلة . . ولست أدرى كيف قفزت إلى خاطرى بعد قليل كلمات كنت قد قرأتها لكاتب عربى يسير على النهج الوجودى وينتج فيه . كان يقول فى أولها : إن الإنسان قد تغلب على قوى الطبيعة وقهرها أو كاد . وإنه حر فى تقرير مصيره واختياره بيده ، وإنه لم تعد هناك قوة تقهره على عمل شىء لايريده . ثم يقول فى نهاية المقال : إن الوجود الأرضى هو كل شىء بالنسبة للإنسان . وإن عليه أن يملأ هذا الوجود بما يتراءى له بعد أن أصبح حراً ، وأن ينزع من تفكيره تلك الخرافة القديمة بأن ثمة قوة أخرى تشرع ، وأن عليه أن يطيع ذلك التشريع . وغير ذلك من الكلمات والآراء التى يرددها هؤلاء فى فتنة وخيلاء . لست أدرى ما الذى جعل هذه الكلمات والمعانى تقفز إلى ذهنى فأتأمل معانيها ومدلولاتها ، وبدت لى هذه الكلمات جوفاء لامعنى لها ولا مدلول . أشبه ماتكون بخطوط مبعثرة فى كومة من الرمال تجريها يد طفل غرير ، وهو يعبث ويلعب . وبدا لى قائلها الذى كنت أعجب به وبأسلوبه المنمق . . بدا لى قزماً تافهاً سطحياً لا كيان له ولا وزن . ورحت أسخر من كلماته الجوفاء .. من ذلك الذى ملك مصيره وسيطر على قوى الطبيعة وأصبح قادراً على كل شىء ! هذا المخلوق الذى لايملك أن يحيا بضع ساعات حين تسلب منه الحياة ؟ هذا الذى يتحول فى لحظة من ذلك الكيان الحى المتحرك الذى تتواثب فى نفسه وعلى ذهنه آلاف الصور ، ومئات الأمنيات وعشرات الآمال ، إلى ذلك الهيكل المتصلب البارد الذى لاتنبعث منه حركة أو نأمة ، ولا تند منه دمعة أو بسمة ، ولا يخفق فى قلبه أمل أو تدب فى نفسه أمنية من الأمنيات ؟ هذا المخلوق الذى لايملك حتى وهو حى أن يعرف سر اللحظة

القادمة التى لايفصلها عنه أكثر من دقيقة من الزمان ؟ أهذا هو الذى يشرع لنفسه ويختار ، ويملأ وجوده بما يتراءى له ويتفق ومزاجه وأهواء نفسه ؟ يا للعبث الصبيانى ويالسفاهة التفكير ! وعدت أتطلع إلى السماء ، إلى الفضاء الهائل الذى يحوينى ويحوى الملايين ، وتلاشيت فى شعورى لحظة . لم أعد أحس بوجودى ، فمن أنا فى ضخامة هذا الوجود ؟ هذا المخلوق الضئيل الصغير ؟ وما لبثت أن انحنيت على حافة الشرفة وأخذت أبكى . لقد أحسست بالله ! بالقوة الكبرى التى أوجدتنى وأوجدت هذا الوجود كله ، القوة التى تملك نفسى وحياتى ومصيرى ، القوة التى تدركنى ولا أدركها وترانى ولا أراها ، وتحوينى ولا أحويها . . أخذت أبكى خشوعاً واستغفاراً وتوبة . . إننى ذرة فى هذا الوجود الكبير، لاينبغى لها أن تشذ أو تعترض إرادة الخالق القدير . بل يجب أن تسير طائعة مختارة : متناسقة مع الوجود الذى هى صورة منه ، ماضية إلى الهدف الكبير الذى أراده خالق هذا الوجود .

لقد تحولت إلى مؤمن فى لحظات ، وكأن الذى سحب بقدرته تلك الشعلة الوهاجة من ذلك الجسد فأحاله إلى جثة قد بدأ يدب فيها التلف ، قد سحب من نفسى أيضاً ذلك الغرور المضحك وذلك الشرود التافه ، ووضع فى مكانهما صوابا واستسلاما ، وجففت دموعى ودخلت مطأطئاً رأسى حانيا هامتى . . وأبصرت بالقوم يتهامسون فى حديثهم ، وأبصرت ببعض الحاضرات يرحن ويجئن ويتداولن فى بعض الشئون هامسات فى حديثهن ومشيتهن ، ولاسيما عندما يقتربن من الغرفة التى رقد فيها الميت . تماما كما كن يصنعن وهو حى نائم فى الغرفة . . وعدت أسخر من الإنسان الذى أصبح حراً فى تفكيره لاسيطرة لقوة عليه ! هذا المخلوق الذى لاتستطيع الحقائق الهائلة أن تأخذ مكانها فى حسه وتفكيره إلا بعد زمن طويل . إن الصورة السابقة للأب النائم ليستريح لم تستطع الحقيقة الهائلة أن تمحوها أو تزحزحها من مكانها من أذهان القوم . لقد نسوا أن داخل الغرفة المغلقة (جثة) لاتشعر بالحركات والكلمات ولا تتألم لشئ . حتى أنا نفسى رحت أصنع ما يصنعون كلما اقتربت من الحجرة المغلقة !

وطلع الصباح وحمل الراحل إلى حيث يرقد رقدته الأخيرة . وكنت أنا من بين الذين ذهبوا إلى المقبرة . . كانت الصور تمر أمامى وكأنما أشاهد حلماً مزعجاً .

لقد كففت عن البكاء وكأن الدموع قد جفت فى عينى . كانت السخرية العميقة اللاذعة تملأ نفسى . . هذا هو الإنسان الذى يعصى ويتحدى ويقترح على الله ويشرع له قوانين غير قوانينه . هاهو ذا فى النهاية لايملك حتى أن يبدى رأيه فى المكان الضيق الذى سيوضع فيه ، أهو متعب أم مريح ؟ أهو ضيق خانق أم متسع منبسط ؟ أهو رطب مبلل أم جاف خشن ؟ لاشىء من ذلك كله . كومة من اللحم والعظام توضع داخل الحفرة الضيقة ثم يغلق عليها ثم تتحلل بعد حين . . وتولانى شعور غريب فيه فزع هائل من هذه النهاية البائسة وفيه حسرة قاتلة . وتلفت حولى فى هلع وكأنما أبغى مهرباً من هذه النهاية . وتخيلت نفسى فى هذه الحفرة وقد غادرنى القوم بعد أن أهالوا على التراب . وأخرجنى من هذا الجزع صوت أحد الحاضرين المسنين وهو يردد فى استسلام : «إنا لله وإنا إليه راجعون» . أجل إنا لله وإنا إليه راجعون . إننا عائدون إلى الله . وما هذه الحفرة البائسة إلا نقلة طريق . هكذا قال الله . وانداح فى كيانى شعور مريح ، فيه اطمئنان وفيه استسلام . إننا عائدون . وليست هذه الفترة القصيرة التى نقضيها على الأرض هى كل شىء بالنسبة لنا . عائدون رغم هذا المصير التعس الذى لا يتصوره العقل .

وفى السرادق الذى أقيم للعزاء رحت أستمع إلى القرآن بكل نفسى ، وأحس كل كلمة وكل معنى . وتمنيت لو يهتدى الأحياء جميعاً إلى هذا النور . . ومنذ تلك الليلة أصبحت إنساناً جديداً . إنساناً يعيش فى النور . ومن ثم لايريد أن يخطىء . لايريد أن يرتكب تلك الحماقات التى كان يرتكبها وهو يسير فى الظلام . يريد أن يرضى الله وأن ينال جزاء هذا الرضاء عندما يبعث مرة أخرى من بين الركام . هذا هو أنا الآن . شخص آخر غير الذى عرفتموه من قبل ، شخص له سمات جديدة وتصرفات جديدة . شخص لن يذهب إلى مرقص أو حانة ، ولن يتطلع إلى جسد راقصة قذرة أو وجه آثم النظرات . . ولهذا اقترحت أن نجىء إلى هذا المكان الهادىء الجميل الذى لايخلو من المخالفات ، ولكن الإنسان يستطيع فيه أن يتجنبها ويغض الطرف عنها ، ويتيح له هذا الفضاء الذى يحيط بالمكان أن يكون قريباً من الله . . .

ولم يكد يتم كلمته الأخيرة حتى صاح أحد أصحابه قائلا :

— لقد فسدت والله ولم يعد فيك أمل !

وتبسم ضاحكا فى تهكم ثم قال :

— إنى أدعو الله لكم أن تفسدوا مثلى ، وأن ينقذكم مما أنتم فيه .

ثم أخذوا يتناقشون ، هو يحبذ طريقته التى اهتدى إليها وهم يحبذون طريقتهم فى الحياة . ولكن حديثهم كان فى هذه المرة خالياً من اللامبالاة. كان أشبه باعتذار مقنع عن حياة ألفوها ولم يعد فى مقدورهم أن يتصوروا الحياة على غير هذه الصورة. ومر الوقت سريعا دون أن يشعروا . وانحدر قرص الشمس وراء التلال البعيدة . وتلاشت الأشعة الباقية ، وانتشرت فى الأفق خيوط وبقع من الشفق الرقيق ، بعضها لامع كخيوط الذهب وبعضها يميل إلى الاحمرار . . ثم مالبث صوت المؤذن أن انطلق من المذياع من داخل المبنى يكبر الله الكبير المتعال ، وصمت ثلاثتهم برهة ، وأنصت هو باهتمام وعلى شفتيه ذبذبات وفى عينيه خشوع . . وعندما سكت الصوت وتأهبوا لمغادرة المكان والعودة إلى القاهرة ، تلفت هو إلى خارج سور الكازينو حيث كان جماعة من الناس ينتحون مكانا من الصحراء ويقيمون الصلاة . ثم قال وهو يبتسم :

لابد أن تنتظرونى هنا حتى أؤدى صلاة المغرب مع هؤلاء .. هؤلاء أصحابى ..!

وتركهم ومضى مسرعا إلى الخارج ، ولم ير نظراتهم المتعجبة ، ولا ملامحهم التى طغت عليها الدهشة وعلاها الاستغراب . . .



٣ — الراكبون إلى البحر

مسرحية للكاتب الأيرلندى ج . م . سينج

ولد چون ميلينجتون سينج فى دبلن سنة ١٨٧١ ومات سنة ١٩٠٩ فى مقتبل شبابه ، ولم يخلف إلا ست مسرحيات من بينها — وأعظمها — هذه المسرحية : « الراكبون إلى البحر Riders to the sea » . ويضعه بعض النقاد فى قمة المؤلفين المسرحيين باللغة الإنجليزية .

وقد خترناه فى نماذج الفن الإسلامى — وهو غير مسلم — كما اخترنا طاغور فى نماذج الشعر من قبل ، لأنه — كما قلنا — يلتقى التقاء جزئيا مع المنهج الإسلامى .

إن المسرحية تصور أمًّا فقدت من قبل خمسة من أبنائها . . ذهبوا جميعا إلى البحر ولم يعودوا . . ولم يبق إلا ابنها السادس والأخير . وتصوره المسرحية ذاهبا هو الآخر فى رحلة إلى البحر . منطلقا كالسهم . . إلى حتفه ! لا يصده شىء ولا يقنعه شىء بالعدول عن رأيه . . إنه ينطلق كالقدر . . لأن القدر هكذا أراد !

وتفقد الأم ابنها السادس والأخير . . الأم المحزونة الموهونة الغائبة فى الآلام . . ولكنها فى هذه المرة تستريح ! لقد سلمت البضاعة كلها عن آخرها ! لم يعد لديها ما تقلق عليه ! لم يعد لديها ما تفقده ! وعندئذ تلجأ إلى الله . . الذى سلمته وديعته كلها . . تلجأ إليه تلتمس عنده وحده العزاء والسلوان !

والمسرحية تحمل طابعا مسيحيا واضحا شديد الوضوح — بمقدار وضوح

الهندوكية فى طاغور ! — المسيحية المتصوفة اللاجئة إلى مهرب الروح ، تهرب إليه من جحيم الألم فى عالم الإنسان . . ولـكنها — كشعر طاغور — تلتقى مع المنهج الإسلامى فى نقاط :

فهذا التسليم إلى الله . . وهذا اللجوء إليه . . والشعور بالموت على أنه رد الوديعة إليه . . والتأسى والصبر . . والرضاء « بقدر » الله . . كلها جوانب تلتقى مع منهج الفن الإسلامى ، وإن اختلف الطريق بعد ذلك فى طريقة تناول الحياة !



أشخاص المسرحية

موريا : امرأة عجوز .

بارتلى : ابنها .

كاتلين : ابنتها .

نورا : ابنتها الصغيرى .

رجال ونساء .

المنظر : جزيرة على مسافة من غرب أيرلنده .

[مطبخ أحد الأكواخ ، تُرى فيه شباك صيد ، وقطع من المشمع ، وعَجَلة غزل ، وألواح خشبية جديدة مسندة إلى الحائط . . الخ . « كاتلين » فتاة تناهز العشرين من عمرها ، تفرغ لتوها من عجن كعكة وتضعها فى وعاء على النار . ثم تمسح يديها وتأخذ فى إدارة المغزل . « نورا » فتاة صغيرة ، تطل من فتحة الباب] .

نورا [فى صوت خفيض] : أين هى ؟

كاتلين : إنها مستلقية فى فراشها . أعانها الله . وربما كانت نائمة .. إن كان ذلك فى استطاعتها .

[تدخل نورا فى هدوء ، وتخرج لفافة من تحت شالها] .

كاتلين [تدير المغزل فى سرعة] : ما هذا الذى معك ؟

نورا : لقد أحضرها القسيس الشاب . إنها قميص وجورب (سادة) انتزعا من جثة غريق فى دونيجال . [كاتلين تتوقف عن الغزل بحركة مفاجئة وتمد رأسها لتتسمع] علينا أن نعرف هل هى من ملابس « ميكل » ؟ لابد أنها ستذهب بنفسها بعد فترة لتبحث بجوار البحر .

كاتلين : كيف يمكن أن تكون ملابس ميكل يانورا ؟ كيف يمكن أن يذهب كل هذه المسافة إلى الشمال !

نورا : يقول القسيس الشاب إنه يعرف حالات مماثلة . وهو يقول : « إذا كانت هذه ملابس ميكل ، فتستطيعين أن تخبريها أنه دفن مدفناً طيبا، برحمة من الله . وإذا لم تكن هذه الملابس له فلا تذكروا شيئاً عنها ، فإنها ستقتل نفسها قتلا بالبكاء والعويل » .

[الباب الذى واربته نورا ينفتح على مصراعيه بفعل الريح] .

كاتلين [تنظر إلى الخارج بقلق] هل سألتـِه إن كان سيمنع بارتلى من الذهاب اليوم بالخيل إلى سوق جولوى ؟

نورا : لقد قال : « لن أمنعه ، ولكن لاتخافوا . إنها تقوم الليل بنفسها تصلى . ولن يتركها الله العلى القدير محووجة ، دون أحد حى من أولادها .

كاتلين : هل البحر هائج عند الصخور البيض يانورا ؟

نورا : هائج إلى حدما . والأمواج تزأر بشدة فى الغرب . وسيكون الأمر أسوأ حين يرتد المد فى اتجاه الريح [تذهب إلى المنضدة باللفافة] هل أفتحها الآن ؟

كاتلين : ربما تصحو الآن وتفاجئنا قبل أن ننتهى [تتجه نحو المنضدة] وسوف نظل فترة طويلة نبكى .

نورا [تتجه إلى الباب الداخلى وتنصت] : إنها تتحرك فى فراشها ، وستكون هنا بعد لحظة .

كاتلين : أعطينى السلم الخشبى ، وسأضعها فى مخزن الوقود ، فلا تعلم عنها شيئا أبدا . وحين يعود المد فربما تذهب هى إلى الشاطىء لترى إن كانت جثته قد طفت من ناحيه الشرق .

[يضعان السلم الخشبى تجاه سقف المدخنة . تصعد كاتلين بضع درجات وتخفى اللفافة مخزن الوقود . تدخل موريا من الحجرة الداخلية] .

موريا [ترفع بصرها نحو كاتلين وتتحدث متسائلة] : أليس لديك من الوقود مايكفيك هذا النهار والمساء ؟

كاتلين : هناك فطيرة على النار تحتاج إلى فترة لكى تنضج [تلقى بعض الوقود] وسيحتاج إليها بارتلى حين يعود المدّ إذا كان ذاهبا إلى كونيمارا .

نورا تلتقط حزمة الوقود وتضعها في النار حول الفطيرة] .

موريا [تجلس على مقعد صغير بجانب النار] : لن يذهب فى هذا اليوم والريح تهب من الجنوب والغرب . لن يذهب اليوم فسوف يمنعه القسيس الشاب لامحالة .

نورا : لن يمنعه يا أماه . وقد سمعت إيمون سيمون وستيفن فيتى وكولم يقولون إنه ذاهب .

موريا : وأين هو ؟

نورا : ذهب ليرى إن كانت هناك سفينة أخرى مبحرة فى هذا الأسبوع . وأظن أنه لن يغيب كثيراً ، وأنه سيكون هنا بعد قليل ، فالمد قد بدأ يعود عند الرأس الأخضر ، وسفينة الصيد بدأت تصفر من ناحية الشرق .

كاتلين : أسمع أحدا يعبر الصخور الكبرى .

نورا [تنظر إلى الخارج] إنه قادم الآن . وهو فى عَجَلة .

بارتلى [يدخل . يدور بنظره فى الغرفة . يتكلم فى أسى وهدوء] أين قطعة الحبل الجديدة يا كاتلين التى اشتريناها من كونيمارا ؟

كاتلين [تنزل] أعطيه له يانورا . . إنه على مسمار بجوار الألواح البيض . لقد علقته هذا الصباح لأن الخنزير ذا القدم السوداء كان يقضمه .

نورا [تعطيه الحبل] : أهو هذا يابارتلى ؟

موريا : إنك تصنع معروفا بترك هذا الحبل يابارتلى معلقاً بجوار الألواح . [بارتلى يأخذ الحبل] إنه لازم فى هذا المكان ، وها أنذا أخبرك ، إذا ظهرت جثة ميكل غدا صباحا ، أو بعد غد ، أو أى صباح فى هذا الأسبوع . فسوف نحفر له قبراً عميقاً بإذن الله .

بارتلى [يبدأ فى العمل بالحبل] : ليس معى لجام أركب به الحصان ولابد أن أذهب الآن فى الحال . فهذه هى السفينة الوحيدة المبحرة خلال أسبوعين أو أكثر ، وستكون السوق سوقا جيدة للخيل ، هكذا سمعتهم يقولون هناك .

موريا : سيقولون كلاما قاسيا هناك إذا ظهرت الجثة ، وليس هناك رجل ليصنع التابوت ، بعد أن اشتريت له أجود الأخشاب البيض التى تجدها فى كونيمارا . [تنظر ناحية الألواح] .

بارتلى : كيف يمكن أن تظاهر ونحن نبحث كل يوم لمدة تسعة أيام ، وهناك ريح شديدة تهب من الغرب والجنوب ؟

موريا : افرض أننا لن نجدها . ولكن هذه الريح تجعل البحر هائجا . وهناك نجمة بجوار القمر ، وهى ترفع المدّ فى الليل وتهيج البحر . لوكانت مئة فرس أو ألف فرس تحصل عليها هناك . . ماقيمة ألف فرس فى مقابل ابن ، إذا لم يكن هناك غير هذا الابن ؟

بارتلى : [يصنع اللجام ، لكاتلين] : عليك أن تذهبى كل يوم لتتأكدى أن الغنم لاتأكل الشعير ، وإذا جاء التاجر فتستطيعين أن تبيعى الخنزير ذا القدم السوداء . إذا وجدت سعراً طيبا .

موريا : كيف تحصل مثلها على سعر طيب للخنزير ؟

بارتلى [لكاتلين] : إذا استمرت ريح الغرب مع ليالى القمر الأخيرة فعليك أن تجمعى أنت ونورا مايكفى من الحشائش . ستكون الأمور صعبة منذ اليوم وليس إلا رجل واحد يعمل فى البيت .

موريا : ستكون الأمور صعبة حقاً حين تغرق أنت مع الباقين . كيف أعيش والبنتان معى ، وأنا عجوز أبحث عن القبر ؟

[بارتلى يضع اللجام ، ويخلع سترته القديمة ويلبس أخرى من نوعها ولكنها أحدث] .

بارتلى [لنورا] : هل هى قادمة إلى الميناء ؟

نورا [تنظر إلى الخارج] : لقد مرت بالرأس الأخضر وحلت شراعها .

بارتلى [يأخذ محفظته وعلبة طباقه] : سأكون هناك فى ظرف نصف ساعة ، وسترونني قادما مرة أخرى خلال يومين ، أو ثلاثة ، أو ربما أربعة إذا ساءت حال الريح .

موريا [تتجه نحو النار وتضع شالها على رأسها] أليس رجلا فظاً قاسياً ذلك الذى لايستمع لكلمة واحدة من امرأة عجوز وهى تمنعه من الذهاب إلى البحر ؟

كاتلين : إنها الحياة بالنسبة للشباب أن يذهب إلى البحر . ومن ذا الذى يستمع إلى امرأة عجوز وهى تقول نفس الشىء مرة بعد مرة ؟

بارتلى [يأخذ اللجام] : لابد أن أذهب الآن سريعا . سأركب الفرس الحمراء ، وسيجرى المهر الأشهب ورائى . . دعواتى لكم أن يشملكم الله ببركاته [يخرج] .

موريا [تصرخ وهو بالباب] : لقد ذهب الآن . فليرحمنا الله . ولن نراه مرة أخرى . لقد ذهب الآن ، وحين يسدل ستار الليل الأسود فلن يكون قد بقى لى ولد فى هذه الدنيا .

كاتلين : لماذا لم تمنحيه بركتك وهو يلتفت إليك حين كان بالباب ؟ أليس مما يبعث الأسى فى النفس أنه مامن واحد فى هذا البيت إلا شيعتـه بكلمة تعيسة من ورائه وكلمة قارسة فى أذنه ؟

[موريا تمسك بالملقاط وتحرك النار بلا هدف دون أن تنظر حواليها] .

نورا [تلتفت نحوها] إنك تبعدين النار عن الفطيرة .

كاتلين [صارخة] : عفوك يارب . نورا ، لقد نسينا فطيرته . [تذهب إلى الفرن]

نورا : وسيهلك من الجوع حين يحل الليل،وهو لم يأكل شيئا منذ طلعت الشمس.

كاتلين [تخرج الفطيرة من الفرن] سيهلك حتما . لايمكن أن يبقى عقل فى رأس أى واحد فى منزل فيه عجوز لاتكف عن الـكلام . [موريا تلقى بنفسها على مقعدها] .

كاتلين [تقطع جزءا من الفطيرة وتلفه فى قطعة من القماش ، لموريا] : فلتذهبى الآن إلى النبع وتعطيه هذه حين يمر هناك . سترينه عندئذ ، وتبطل الـكلمة المشئومة ، وتستطيعين أن تقولى له : « أعادك الله إلينا سريعا » فيستريح باله .

موريا [تأخذ الفطيرة] : هل أستطيع أن أصل هناك حين يصل هو ؟

كاتلين : إذا ذهبت الآن سريعاً .

موريا [تقف مترنحة] : إنها لمهمة شاقة علىّ أن أمشى .

كاتلين [تنظر إليها قلقة] : أعطيها العصا يانورا ، وإلا انزلقت قدمها فوق الصخور الـكبيرة .

نورا : أى عصا ؟

كاتلين : العصا التى جاء بها ميكل من كونيمارا .

موريا [تأخـذ العصا التى تعطيها إياها نورا] : فى الدنيا العريضة كلها يخلف الـكبار وراءهم أشياء لأبنائهم وأطفالهم ، أما فى هذا المـكان فالشبان هم الذين يخلفون الأشياء للـكبار .

[تخرج فى بطء . تصعد نورا على السلم] .

كاتلين : انتظرى يانورا ، فقد تعود سريعاً . إنها امرأة أكلها الحزن . كان الله فى عونها . لاتستطيعين أن تعرفى أى شىء تعمل .

نورا : هل عدّت الشجرة الصغيرة ؟

كاتلين [تنظر إلى الخارج] : لقد ذهبت . ألقيها بسرعة ، فالله وحده يعلم متى تخرج مرة أخرى .

نورا [تحضر اللفافة من المخزن] : لقد قال القسيس الصغير إنه سيمر غدا ، وإن علينا أن نذهب إليه ونخبره إن كانت ملابس ميكل حقا .

كاتلين [تتناول اللفافة] : هل قال كيف عُثر عليها ؟

نورا [تنزل] : قال : لقد كان هناك رجلان يجدفان قبل الفجر ، فاصطدم بجداف أحدهما بالجثة بينما كانا يعبران بجوار الجرف الأسود هناك فى الشمال .

كاتلين [تحاول فتح اللفافة] : ناولينى سكينا يانورا . لقد بلى الخيط من الماء الملح ، وفيه عقدة لاتنحل فى أسبوع .

نورا [تناولها سكينا] : سمعتهم يقولون إنها مسافة طويلة إلى دونيجال .

كاتلين [تقطع الخيط] : إنها طويلة حقا . لقد كان هنا رجل منذ قليل — وقد باعنا هذه السكين — وقد قال إنك إذا مشيت من عند تلك الصخور هناك ، فإنك تصلين إلى دونيجال بعد سبعة أيام .

نورا : وكم يأخذ الرجل إذا كان طافيا ؟

[كاتلين تفتح اللفافة وتخرج قطعة من قميص وفرد جورب . تنظران إليهما بلهفة] .

كاتلين [فى صوت خفيض] : فليرحمنا الله يانورا ! أليس عجبا أن نقول إن كانت هذه ملابسه حقا ؟

نورا : سأحضر قميصه من المشجب لنقارن بين هذا القماش وذاك . [تنظر فى بعض الملابس المعلقة في ركن الكوخ] ليس فيها قميصه يا كاتلين ، فأين ذهب ؟

كاتلين : أظن بارتلى ارتداه فى الصباح إذ كان قميصه ثقيلا من الملح [تشير إلى الركن] ها هى ذى قطعة من الكم كانت من نفس القماش . ناولينى هذه وهى تكفى . [نورا تحضرها إليها وتقارنان القماش] إنها من نفس القماش يانورا . ولكن إذا كانت

من نفس القماش ، ألا توجد أثواب ضخمة منه فى المحلات فى جولوبى ؛ أو لا يشترى منها رجال كثيرون ويصنعون منها أقمصة كما صنع ميكل ؟

نورا : [التى كانت قد أخذت الجورب وعدت الغرز التى يحتوى عليها ، صارخة] : إنه ميكل يا كاتلين . إنه ميكل . ليرحمه الله . أى شئ سوف تقول هى حين تسمع هذه القصة وبارتلى فى البحر ؟

كاتلين [تأخذ الجورب] : إنه جورب (سادة) .

نورا : إنها الفردة الثانية من الزوج الثالث الذى اشتغلته . وأنا أعرف عدد غرزه .إنها ستون غرزة.

كاتلين [تعد الغرز] : إنه العدد الذى تقولين [صارخة] آه يانورا . أليس شيئاً محزنا أن يفكر الإنسان فيه وهو طاف فوق الموج كل هذه المسافة إلى الشمال ، وليس هناك من يبكيه إلا الطيور السود المحلقة فوق البحر ؟

نورا [تدور حول نفسها نصف دورة وتلقى بذراعيها فوق الملابس] : أو ليس من المحزن أيضاً ألا يتبقى شئ من رجل كان مجدفا ماهراً وصياداً بارعا إلا قطعة من قميص قديم وفردة جورب ؟

كاتلين [بعد لحظة] : خبرينى . . هل هى قادمة يانورا ؟ إننى أسمع صوتا فى المعبر .

نورا [تنظر إلى الخارج] : إنها قادمة يا كاتلين . إنها مقبلة نحو الباب .

كاتلين : أخفى هذه الأشياء قبل أن تدخل . ربما يكون حالها أحسن بعد أن باركت بارتلى ، ويحسن ألا نقول لها شيئاً ، وهو فى البحر .

نورا [تساعد كاتلين فى ربط اللفافة] : نضعها هنا فى الركن .

[يضعانها فى فتحة فى ركن المدخنة . تعود كاتلين إلى المغزل] .

نورا : هل تراها ستلحظ أننى كنت أبكى ؟

كاتلين : اجعلى ظهرك للباب فلا يقع النور عليه .

[نورا تجلس فى ركن المدفأة وظهرها إلى الباب . تدخل موريا فى بطء شديد دون أن تنظر إلى البنتين ، وتذهب إلى مقعدها بجانب النار من الناحية الأخرى . اللفافة التى بداخلها الفطير ماتزال فى يدها . وتتبادل الفتاتان النظرات وتشير نورا إلى اللفافة .]

كاتلين [بعد أن تغزل لحظة] : لم تعطيه قطعة الفطير ؟

[موريا تأخذ فى النواح بصوت خفيض ، دون أن تلتفت حولها]

كاتلين : هل رأيته يركب إلى الميناء ؟

[موريا تستمر في نواحها] .

كاتلين [بشيء من نفاد الصبر] : غفر الله لك . أليس من الأفضل أن ترفعى صوتك قليلا وتقولى لنا ماذا رأيت ، خيراً من التوجع على شئ حدث وانتهى ؟ هل رأيت بارتلى ؟ إنى أسألك .

موريا [بصوت ضعيف] : إن قلبي محطم منذ اليوم .

كاتلين [كالمرة السابقة] : هل رأيت بارتلى ؟

موريا : رأيت أرعب شئ .

كاتلين [تترك مغزلها وتنظر إلى الخارج] : غفر الله لك . إنه راكب فرسه الآن عند الرأس الأخضر ، والمهر الأشهب وراءه .

موريا [تفزع حتى إن شالها يقع من فوق رأسها ويظهر من تحته شعرها الأشيب المقوص فوق رأسها . تتحدث بصوت مفزّع] المهر الأشهب وراءه . . .

كاتلين [تتجه نحو الموقد] ماذا بك ؟ من أى شئ تشكين ؟

موريا [تتحدث ببطء شديد] رأيت أرعب شيء رآه إنسان منذ اليوم الذى رأت فيه العروس دارا الرجل الميت يحمل الطفل بين يديه .

كاتلين ونورا : أوه . .

[تجلسان منكمشتين أمام المرأة العجوز بجانب الموقد] .

نورا : حدثينا بما رأيت .

موريا : ذهبت إلى النبع ووقفت هناك أتمتم بدعاء فى نفسى . ثم جاء بارتلى يركب فرسه الأحمر والمهر الأشهب وراءه [تمد يدها أمام عينيها كما لو كانت تحجب عن بصرها شيئا] يرحمنا الله يانورا !

كاتلين : أى شئ رأيت ؟

موريا : رأيت ميكل نفسه .

كاتلين [تتكلم بصوت خفيض] : لم تريه يا أماه . لم يكن ميكل الذى رأيته ، فقد وُجِدَتْ جثته فى أقصى الشمال . وقد دفن مدفنا طيبا برحمة من الله .

موريا [بشىء من التحدى] : لقد رأيته اليوم راكبا منطلقا بفرسه . جاء بارتلى أولا على الفرس الأحمر ، وحاولت أن أقول : «أعادك الله إلينا سريعا » ولكن شيئاً ما أوقف الكلمات فى حلق . ومر بى مسرعا ، وقال : « أحاطك الله برعايته » ولم أستطع أن أقول شيئاً . ورفعت بصرى والدموع تنهمر من عينى نحو المهر الأشهب ، وهناك وجدت ميكل راكبا فوقه وعليه ملابس نظيفة وحذاء جديد فى قدميه .

كاتلين [تأخذ في النواح] : لقد هلكنا منذ اليوم . . لقد هلكنا حقا .

نورا : أليس القسيس الصغير قد قال إن الله العلى القدير لن يتركها محووجة بغير أحد حىّ من أولادها ؟

موريا [بصوت خفيض ولكنه واضح] : إن مثله لايعرف كثيراً عن البحر. إن بارتلى قد فقد الآن ، فلتنادى إيمون ليعد لى تابوتا جيدا من الألواح البيض . فلن أعيش بعدهم . لقد ضاع منى فى هذا المنزل زوجي وأبوه ، وستة أبناء — ستة رجال معتبرين . رغم أنى تحملت العناء وهنا على وهن حين جاء كل منهم إلى هذه الدنيا — وبعضهم وُجِدَ وبعضهم لم يعثر عليه ، ولكنهم ذهبوا الآن كلهم . . ستيفن ، وشون فقدا فى الرياح العاتية ووجدا بعد ذلك فى خليج جريجورى عند الجولدن ماوث وحُمِلاَ معاً على لوح خشب واحد ، وأدخلا من هذا الباب .

[تتوقف لحظة ، وتفزع الفتاتان كما لو كانتا قد سمعتا شيئاً من خلال الباب الموارب من خلفهما] .

نورا [هامسة] : هل سمعت ذلك ياكاتلين ؟ هل سمعت ضجيجاً فى الشمال الشرقى ؟

كاتلين [هامسة] : هناك إنسان يزعق على شاطىء البحر .

موريا [تستمر دون أن تسمع شيئاً] : وفقد شيموس ووالده وجده فى ليلة مظلمة ، ولم يظهر منهم شىء على الإطلاق حين طلعت الشمس . وغرق پاتش فى مركب انقلب به فى البحر . وكنت جالسة هنا مع بارتلى وكان رضيعا فى حجرى ،

ورأيت امرأتين ،وثلاث نساء وأربع نساء داخلات يرسمن علامة الصليب ولا يقلن كلمة واحدة. ورفعت بصرى فرأيت رجالا قادمين خلفهن ، يحملون شيئاً فى نصف شراع أحمر ، يقطر منه الماء ، وكان اليوم جافا يانورا ، والمياه تتقاطر وتترك على الأرض خطا منقّطا حتى الباب .

[تتوقف مرة أخرى ويدها ممدودة نحو الباب . ينفتح الباب فى هدوء . وتأخذ نساء كبيرات السن يدخلن ، ويرسمن علامة الصليب وهن على عتبة الباب ، ويركعن فى مقدمة المسرح وعلى رءوسهن مآزر حمراء] .

موريا [كالحالمة ، إلى كاتلين] : هل هو باتش ؟ أم ميكل ؟ أم من . . ؟

كاتلين : لقد وجد ميكل فى أقصى الشمال ، وإذا كان قد وجد هناك فكيف يكون هنا فى هذا المكان ؟

موريا : هناك قوة تحمل جثث الشباب الطافية وتسبح بها فى البحر . وكيف يعرفون أنه ميكل هو الذى وجـــدوه ، أو رجل آخر يشبهه ؟ فعندما يظل الرجل تسعة أيام فى البحر والريح هائجة فمن الصعب حتى على أمه ذاتها أن تقول أى رجل هو .

كاتلين : إنه ميكل . يرحمه الله . فقد أرسلوا إلينا قطعة من ملابسه من أقصى الشمال .

[تمد يدها وتناول موريا ملابس ميكل . موريا تقف فى بطء وتتناولها بيديها . نورا تنظر إلى الخارج] .

نورا : إنهم يحملون شيئا بينهم والماء يتقاطر منه ويترك خطا على الصخور الكبيرة.

كاتلين [هامسة للنساء اللواتى دخلن] : أهو بارتلى ؟

إحدى النساء : هو بالتأكيد . ظلل الله روحه .

[تدخل امرأتان أصغر سنا ، وتجران المنضدة . يدخل رجال يحملون جثة بارتلى على لوح خشبى ، تغطيها قطعة من شراع ، ويضعونها على المنضدة] .

كاتلين [للمرأتين وهما تصنعان ذلك] : كيف غرق ؟

إحداهما : أوقعه المهر الأشهب فى البحر ، ودفعته أمواج الشاطئ الصخرى العنيفة فوق الصخور البيض .

[موريا قد ذهبت وركعت عند طرف المنضدة . النساء يَنُحْنَ في صوت خفيض وتهتز أجسامهن في حركة بطيئة . تركع كاتلين ونورا عند الطرف الآخر من المنضدة . ويركع الرجال عند الباب] .

موريا [ترفع رأسها وتتحدث كما لوكانت لاترى الناس من حولها] : لقد ذهبوا الآن جميعاً . ولن يستطيع البحر أن يصنع لى شيئا بعد ذلك . . لم يعد هناك مايدعونى الآن أن أبكى وأتمتم بالدعاء حين تهب الرياح من الجنوب ، ويسمع صوت تكسر الأمواج على الشاطئ الصخرى فى الشرق والشاطىء الصخرى فى الغرب ، فتحدث ضجة عظيمة وهى تتخبط من هنا ومن هناك . لم يعد هناك مايدعونى أن أذهب لأحضر الماء المقدس فى الليالى المظلمة من سامهين ، ولن أفكر فى حال البحر حين تنوح النساء الأخريات . [لنورا] أعطينى الماء المقدس يانورا . هناك بقية منه لم تزل على (دولاب الفضيات) .

[نورا تعطيها إياه] .

موريا [تسقط ملابس ميكل من عند قدمى بارتلى وترش الماء المقدس فوقه] : ليس الأمر أننى لم أدع لك العلى القدير يابارتلى ؛ ليس الأمر أننى لم أدع لك فى الليل المظلم حتى لا أعود أعرف ماذا أقول . ولكننى الآن سأجد الراحة العظمى . وقد آن أوانها . إنها الراحة العظمى التى سأجدها الآن ، والنوم المستغرق فى الليالى الطويلة ، حتى ولو كان طعامنا حفنة من الدقيق وسمكة قديمة منتنة .

[تركع مرة أخرى ، وترسم علامة الصليب وتصلى صلاة غير مسموعة] .

كاتلين [لإحدى النساء] : لعلك تصنعين أنت وإيمون تابوتا حين تطلع الشمس . عندنا ألواح بيض اشترتها بنفسها ، أعانها الله ، ظنا منها أن ميكل سيعثر عليه ، وعندى فطيرة طازجة تستطيعين أن تأكلى منها وأنت تعملين .

الرجل العجوز [ينظر إلى الألواح] : هل معها مسامير ؟

كاتلين : لايوجد ياكولم . لم نفكر فى المسامير .

رجل آخر : إنه لعجيب جداً ألا تفكر فى المسامير بعد كل التوابيت التى رأتها .

كاتلين : لقد كبرت وتحطم قلبها .

[موريا تقف مرة أخرى فى بطء شديد ، وتنشر ملابس ميكل بجانب الجثة ، وترشها بما تبقى من الماء المقدس] .

نورا [هامسة لكاتلين] : إنها الآن هادئة مطمئنة . أما يوم مات ميكل فكنت تسمعينها تصرخ من هنا حتى النبع . إنها أكثر شغفا بميكل . هل كان أحد يظن ذلك ؟

كاتلين [ببطء ووضوح] : إن امرأة عجوزا مثلها لابد أن يدركها الملل من أى شىء تصنعه . أو ليست تبكى وتنوح منذ تسعة أيام كاملة ، وتحدث أسىً عظيما وحزنا فى البيت ؟

موريا [تضع الفنجان مقلوبا على المنضدة ، وتضع يديها معا على قدمى بارتلى] : إنهم كلهم معا فى هذه المرة . والنهاية قد أتت . ليتنزل الله برحمته على روح بارتلى وروح ميكل وأرواح شيموس وپاتش وستيفن وشون [تحنى رأسها] وليتنزل برحمته على روحى يانورا وعلى روح كل إنسان فى هذه الأرض .

[تتوقف ويرتفع النواح قليلا من جانب النساء ثم يصمت] .

موريا [مستمرة] : لقد دفن ميكل مدفنا طيبا فى أقصى الشمال ، برحمة من الله . وسيكون لبارتلى تابوت جيد من هذه الألواح البيض ومدفن عميق بكل تأكيد . أى شىء نريد أكثر من هذا ؟ لن يعيش إنسان إلى الأبد . وعلينا أن نرضى .

[تركع ويسدل الستار ببطء]



آفاق للمستقبل

تتمثل فى الأدب العربى الحديث نهضة فريدة ، قد لايكون لها شبيه فى تاريخ هذا الأدب كله إلا فى العصر العباسى ، حين اتسعت آفاق الأدب ، وشملت كل المجالات المتاحة فى ذلك الحين .

وهذه النهضة الحديثة التى ترجع جذورها إلى نهاية القرن التاسع عشر ، والتى امتدت فى النصف الأول من القرن العشرين حتى شملت كل مجالات الأدب وفنونه من قصة ومسرحية وشعر وملحمة ومقالة وخاطرة و بحث . . تشبه مثيلتها فى العصر العباسى ، فى أنها لم تكتف بالأصول العربية ، وإنما استمدت مما جاورها من الثقافات والحضارات والآداب والفنون ، ثم صاغت ذلك كله فى أسلوب عربى و إطار عربى .

ولا ضير فى هذا الاستمداد . .

فالفن لايعرف الحواجز .. لايعرف حواجز اللغة أو الوطن أو الدين أو الجنس . . إنه تعبير بشرى عن الإنسانية فى أوسع مجالاتها وأوسع مفاهيمها . ومن ثم يلتقى لديه البشر جميعاً بلا تفرقة ولا انفصال . يلتقون عليه بوجداناتهم وأفكارهم ومشاعرهم ، كما يلتقى الأخ بالأخ فى أسرة البشرية الكبيرة المتصلة الحلقات .

ولكن التقاء البشرية كلها على هذا الجوهر الإنسانى المشترك ، وتعارفها على السمات المشتركة بين الجميع : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) لاينفى وجود التميز بين فرد و فرد ، و بين فن وفن ، و بين مزاج ومزاج .

ولحكمة عليا كان هذا التميز والاختلاف ..

فلو كان الناس كلهم صورة واحدة لصارت الحياة كذلك صورة واحدة مكرورة رتيبة مملة ، لافسحة فيها ولا تشويق !

ولكنها بهذا الاختلاف — مع وجود الجوهر المشترك — تصبح أكثر ثراء وأوسع مساحة وأحفل بألوان الجمال ..

وفى الفن بصفة خاصة تبرز هـذه الظاهرة البشرية الفريدة : التشابه والاختلاف فى ذات الوقت. ويبرز كذلك هذا الجمال ، الناشئ من التقاء الصور المتعددة للجوهر المشترك بين الجميع .

وكل فن أصيل لابد أن يحمل هاتين السمتين فى وقت واحد : فهو فن إنسانى ، بما هو تعبير عن النفس الإنسانية فى حقيقة جوهرها ، وهو فى الوقت ذاته فن متميز بطابعه الخاص ، الذى يعبر عن شخصيته الذاتية فى نطاق الإنسانية الشاملة .

وحين بدأت النهضة الحديثة فى الأدب العربى ، لم تكن بعد قد أخذت طابعها النهائى المتميز ، الذى يكفل لهما السمة الإنسانية والسمة الذاتية فى نفس الوقت .

فقد بدأت تقليداً للصور الأدبية المتوارثة فى الأدب العربى ، ثم أخذت شيئاً فشيئاً تتأثر بالآداب الأوربية ، وبخاصة الإنجليزية والفرنسية ، اللتين وجدتا لهما — بحكم الاحتلال من ناحية ، وبحكم مكانتهما العالمية من ناحية أخرى — تلاميذ ومدارس فى الشرق العربى ، يتأثرونهما وينسجون على منوالهما .

وكان هذا أمراً طبيعيا ومنطقيا مع سير الأحداث : السياسية والفكرية والثقافية فى نهاية القرن الماضى ومبادئ القرن العشرين .

ومرت فترة ظهر فيها فى مصر أدباء كبار . . أدباء لهم ذاتيتهم التى لا شك فيها ، ولهم براعتهم وحذقهم واجتهادهم ومشاركتهم الأصيلة . . ولكن طابع «الترجمة» كان يسيطر عليهم . ولا نقصد أنهم كانوا يترجمون الأعمال الغربية أو الأفكار الغربية وينسبونها إلى أنفسهم . وإنما نقصد عملية أعمق من ذلك وأخفى ، لعلها كانت تتم عن غير وعى من هؤلاء الأدباء أنفسهم ، فقد كانت « مشاعرهم » هى المترجمة عن الآداب الغربية ! مشاعرهم وطريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة وتقديرهم للقيم الإنسانية و « للمفاهيم » على وجه العموم !

ورغم الأصالة الذاتية لهؤلاء الأدباء الكبار — وهى أصالة غير منكورة — ورغم حرصهم الواعى الدقيق المتمكن ، على سلامة الأداء العربى وقوته وفصاحته ، ورغم الخدمات الجليلة التى أدوها فى تنقية الأسلوب العربى وتطويره وتجميله . . رغم هذا كله فقد كانوا طبعة عربية أنيقة من المفاهيم الغربية فى الأدب والحياة !

وكان ذلك — كما قلنا — أمراً منطقياً ، ومتمشياً مع طبائع الأشياء .

وكان المفروض أن تلى فترة الانتقال الطبيعية هذه ، فترة أخرى تبرز فيها السمات الأصيلة لفن هذا الشعب ، وتتخذ طابعها الخاص المميز ، الذى يعطيها شخصيتها الذاتية على مائدة الأدب العالمى الحافل بكل السمات وكل المميزات .

وبدأت هذه الفترة فعلا ، وسارت شوطا فى الطريق .

وأخذ الأدب يتبلور ويصفو على أيدى عدد من أدباء الشباب ، وأخذ ينضج على مهل ليعطى نكهته المتميزة الأصيلة .

ولكن هذا لم يدم طويلا ، ولم يسر فى الطريق الصحيح إلا خطوات . .

وبعدها ، كأنما أصابت الأدباء الشبان زوبعة عاصفة نكثت رءوسهم وأفكارهم وطيرتها فى كل اتجاه . .

وخرجت دعوات الأدب الملتزم وغير الملتزم . وتعددت المذاهب التى يلتزم بها الأدب ، المذاهب الفنية ، والمذاهب الاجتماعية ، والمذاهب التعبيرية ، والمذاهب « الأيديولوچية » ، وغيرها من التسميات والاتجاهات . .

زوبعة كأنما انطلقت فى لحظة . . فشتتت كل ما كان فى طريقه إلى التجمع والاتضاح والبروز .

وضاعت شخصية هؤلاء « الأدباء » فى غمار الزوبعة المشتِّتة !

وصاروا طبعات . . غير أنيقة . . من المذاهب التى ينقلون عنها بوعى أو بغير وعى ، ويتأثرونها كأنها مقدسات ، يتتبعون حرفيتها ويقلدونها جاهدين .

وصار الأدب — من هذه الناحية — كأنه يرجع إلى الوراء !

لقد صار أكثر فنونا وأكثر طرائق وأكثر إنتاجاً وأكثر ميادين . . ولكنه أقل أصالة وأقل جودة ، وأسوأ من ناحية القدرة التعبيرية وسلامة اللغة والأسلوب .

ذلك أن أدباء الشباب — بجانب الزوبعة التى نكشت رءوسهم — لم يكن لهم الصبر المتأنى الذى يحصّلون به ويتمكنون فى التحصيل ، فهم مستطارون معجلون إلى الشهرة والكسب وكثرة الإنتاج ولمعان الأسماء .

* * *

وقد استفاد الأدب والأدباء خبرة كبيرة ولا شك بالاستمداد من أدب الغرب ومذاهبه وأفكاره ، وسعة مجالاته وتعدد فنونه ، وطرائق العرض فيه والأداء ، والقواعد الفنية للعرض والأداء .

ولكنهم فقدوا شخصيتهم المميزة وتبعثروا ، فلم يعودوا يمثلون طابعاً مميزاً محدد السمات فى الأدب العالمى الواسع الثراء .

ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون بأنفسهم أو يعرفون ذاتيتهم !

ولا يعرفون ميراثهم . . .

لقد خرجوا من الآفاق المحدودة التى كانوا يعيشون فيها ، يريدون أن ينطلقوا ويلحقوا الركب الظافر المترائى أمامهم بكل قوته وجبروته . .

وفى انطلاقتهم انسلخوا من كل موروثاتهم الفكرية والروحية و « الأيديولوچية » . . لأنهم ظنوها حملا يعوقهم عن الانطلاق ، وقيداً يعثر خطواتهم فى الطريق . .

ولكنهم كذلك — من ثم — انسلخوا من ذاتيتهم وكيانهم . . وأصبحوا بلا كيان !

وصاروا طبعة — غير أنيقة — من الأدب الذى ينقلون عنه ، أو المذهب الذى يحشرون أنفسهم فيه ! إذ أن تلك المذاهب نتاج تاريخى لبيئات معينة ، مرت بظروف وأحوال معينة ؛ لم يكن لها وجود لا فى بيئتنا ولا فى تاريخنا القريب أو البعيد !

* * *

والخبرة الفنية التى اكتسبوها كانت ذخيرة ضرورية لأية نهضة جادة تراد فى عالم الأدب والفن .

ولا ضير — كما قلنا — من الاستمداد فى هذا المجال . بل هو واجب محتم ، وواجب محمود .

ولكن الضرر الأكبر أن نستمد هذه الخبرة كلها ثم لا يكون لنا وجود متميز الطابع واضح السمات .

ولكى يكون لنا هذا الطابع ينبغى أن نرجع إلى أنفسنا !

ينبغى أن نعود إلى موروثاتنا الفكرية والروحية والأيديولوجية التى انسلخنا منها ونحن منطلقون فيما يشبه هذيان المحموم .

ينبغى أن نعود إلى الإسلام . .

فالإسلام هو كياننا الحقيقى الأصيل العميق الذى يعطينا صفتنا الإنسانية ، ويتيح لنا فى الوقت ذاته أن نكتسب ذاتية متميزة فى المجتمع الإنسانى المتصل الحلقات .

لقد صاحبنا هذا الإسلام أربعة عشر قرنا متوالية ، ومن تصوراته الذاتية نشأت مجتمعاتنا ، وترسبت هذه التصورات فى كياننا حتى ونحن نحاول التملص منها فى الظاهر، ونجرى وراء التصورات المستحدثة التى لم تنضج فى تاريخنا الذاتى .

والإسلام — فى عالم الفن — هو هذا المفهوم الواسع الشامل الذى عرضناه فى هذا الكتاب : أكمل مفهوم عرفته البشرية فى تاريخها الطويل ، وهو كذلك أجمل مفهوم .

وقد كان لابد من خبرة فنية عالية ليستطيع الأدب والفن أن يعبرا عن المفهوم الإسلامى بصورة تكافىء هذا المفهوم من ناحية الأداء .

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى ، فقد كان الأدب والفن قمينين أن يستمدا إيحاءاتهما الفنية من القرآن وفنون القرآن ، ومن التصورات الإسلامية والرواسب الإسلامية فى ضمير الشعب وفى حياته واتجاهاته ، ثم ينتفعا بما استجد من طرائق العرض والأداء ، وقواعدهما الفنية المستحدثة فى الغرب ، لإبراز تلك الإيحاءات والتصورات .

ولكن ذلك لم يحدث . .

فالأدب العربى القديم لم يتجه هذه الوجهة من قبل إلا نادرا ، ولم يكوّن

رصيدا فنياً يصلح لأن تستمد منه النهضة الحديثة وهى فى سبيل النهوض ... بالإضافة إلى أن هذه النهضة ذاتها لم تتخذ منذ البدء وجهة إسلامية ، وإنما كانت أوربية فى صميمها ، متأثرة بكل إيحاءات الغرب ، ومستعيرة لكل مفاهيمه فى الفن والحياة .

وعلى أى فالذى حدث بالفعل هو أننا استمددنا خبرتنا الفنية كلها من أوربا .. ولا ضير فى هذا الاستمداد .. فقد سبقتنا أوربا فى هذا المضمار فترة من الزمن ، اكتسبت فيها خبرات متعددة هى رصيد للبشر جميعاً ، يستمدون منه بحرية ، كل وما يريد .

ولكن هذه الخبرة ينبغى أن تخدم أصالتنا الفنية لا أن تخدم التقليد ..

كذلك حدث فى الأدب الروسى فى القرن الماضى ، الذى شهد أكبر العبقريات الروسية فى عالم الفن .

لقد استمد الفنانون الروس كل « التكنيك » من غرب أوربا .. ولكنهم أبدعوا أدبا أصيلا ذا طابع مميز لا يخطىء الإنسان مميزاته وسماته الأصيلة ..

وهذا هو الذى ينبغى أن يحدث فى مجال الإنتاج الفنى : نأخذ البراعة الفنية وطرائق الأداء وطرائق العرض من أى مكان نشاء .. ولكننا فى النهاية نكون أنفسنا ونكون ذواتنا وشخصياتنا .

ولن يتسنى لنا ذلك حتى نكون « إسلاميين » فى تصورنا للكون والحياة والإنسان .. فهذه هى حقيقتنا التى عشناها حوالى أربعة عشر قرنا ، ولا يمكن أن ننسلخ منها ولو أردنا ذلك أو أراده لنا المريدون ! وهى حقيقة لا تشمل المسلمين وحدهم فى الشرق الإسلامى .. ذلك أن المفاهيم الإسلامية رصيد متاح للجميع ، يملكون الاستمداد منه بصرف النظر عن أديانهم وعقائدهم .

* * *

وتلك مهمة الجيل الصاعد فى عالم الأدب والفن . .

أن يكتسبوا الخبرة الفنية من كل مكان فى العالم يمكن أن يمدهم بالخبرة المنشودة . . ثم يعودوا إلى أنفسهم فيبدعوا فنا يعبر عن ذاتيتهم الأصيلة . . يعبر عن المفاهيم الواسعة الشاملة العميقة الجميلة التى عرضناها بالتفصيل فى هذا الكتاب .

وبذلك لايكونون أنفسهم فحسب . . بل يقومون كذلك بإضافة فصل جديد فى الآداب والفنون العالمية ، هو أروع فصولها وأشهاها ، وهو المرآة المجلوة التى تنظر فيها الإنسانية نفسها ، فتجدها على أصفى صورة وأنقاها .

وهى مهمة ضخمة تحتاج إلى صبر وأناة وتمكن وعمق . . وأصالة .

ولكنها ليست عسيرة التحقيق . . حين تمتلىء نفوس الفنانين والأدباء بمفاهيم هذا المنهج ، فتنطلق من ذاتها تنشىء تصورات فنية جديدة ، وصوراً فنية جديدة ، وموضوعات شائقة ذات جاذبية وذات جمال مشرق طليق .

وقد بدأت تباشير فى عالم الفن الإسلامى . . فى القصة والشعر والبحث والمقالة والخاطرة ، تبشر بأننا فى الطريق الصاعد ، وأننا إن شاء الله واصلون .

وإنى — وأنا أدلى بجهدى اليسير فى هذا المجال — لأرى على الأفق الممتد تباشير هذا النور ، فتملؤنى الثقة بأن الصبح المشرق قريب . . قريب !

تصويب

وقعت أخطاء قليلة فى بعض آيات القرآن الواردة فى الكتاب نصححها فيما يلى :

جاء فى ص ٢٩ : « ... وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » .

والصـــواب : « ... ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » .

وجاء فى ص ٤٥ : « ... يخلق ما يشـــاء إن الله على كل شيء قدير » .

والصـــواب : « ... يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

وجاء فى ص ١١٤ : « ... ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن » .

والصـــواب : « ... ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن » .

وجاء فى هامشة ص ١٤٥ : سورة الفرقان (٣٤) وصحتها سورة لقمان .

وجاء فى ص ١٥٢ : « ... ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق » .

والصـــواب : « ... وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .

الفهـــرس

الموضـــوع | صفحة

كتب للمؤلف

الإنسان بين المادية والإسلام	[الطبعة الثالثة]	دار إحياء الكتب العربية
شبهات حول الإسلام	[الطبعة الرابعة]	مكتبة وهبة
فى النفس والمجتمع		« «
قبسات من الرسول	[الطبعة الثانية]	« «
معركة التقاليد		« «
منهج التربية الإسلامية		دار القلم
هل نحن مسلمون		مكتبة وهبة
منهج الفن الإسلامى		دار القلم

كتب تالية

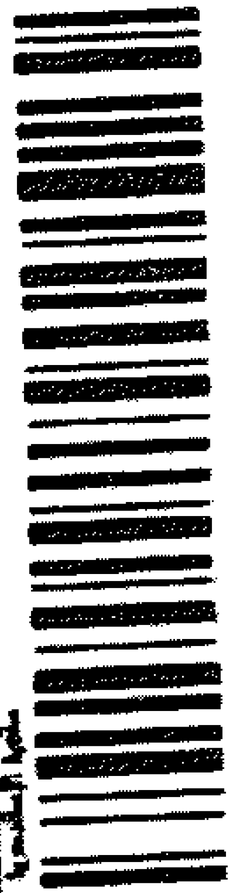
دراسات فى النفس الإنسانية

الثبات والتطور فى حياة البشرية

هذا الكتاب

- هذا الكتاب يعالج قضية أساسية فى الفكر الإنسانى ، ويستشرف أفقاً جديداً فى تصور الكون والحياة والفن والجمال، وينشيء فصلا مستحدثاً فى النقد الفنى.
- فالفن هو التعبير الإنسانى الجميل عن الكون والحياة وعن تصور الإنسان وانفعاله بالحياة والناس والكون من حوله .
- والتصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان هو أكمل تصور ، وأشمل تصور ، وأصدق تصور ، وأجمل تصور .. ورؤية الحياة والكون والناس والانفعال بها من خلال ذلك التصور الكامل الشامل الصادق الجميل ، من شأنها أن تنشيء فناً أكبر وأرفع وأصدق وأجمل من كل ما عرفته البشرية حتى اليوم من ألوان الفن ومستوياته .
- والفن ينبغى أن تكون له موازين جمالية منتزعة من موازين الجمال الكونية والحيوية والإنسانية . فالفن لا يمكن أن يقوم بمعزل عن الكون والحياة والإنسان ، ومن ثم يجب أن لا تنعزل موازينه وقيمه عن الكون والحياة والإنسان .
- والفن الإسلامى ليس هو - بالضرورة - الفن الذى يتحدث حديثاً مباشراً عن الإسلام .. وهو على وجه اليقين ليس الوعظ والإرشاد والحث على اتباع الفضائل .. وليس هو كذلك حقائق العقيدة المجردة ، مبلورة فى صورة فلسفية.
- إنما هو الفن الذى يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامى لهذا الوجود.
- هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان .
- والمؤلف يضع الموازين الفنية الجمالية - أو يكشف عن هذه الموازين - كما هى مرتسمة من خلال التصور الإسلامى .
- والكتاب - من ثم - ينشيء فصلاً مستحدثاً فى النقد الفنى ، كما يستشرف أفقاً جديداً فى تصور الكون والحياة والفن والجمال .

دار القلم



الثمن ٥٠